حوراء النداوي

قسمت

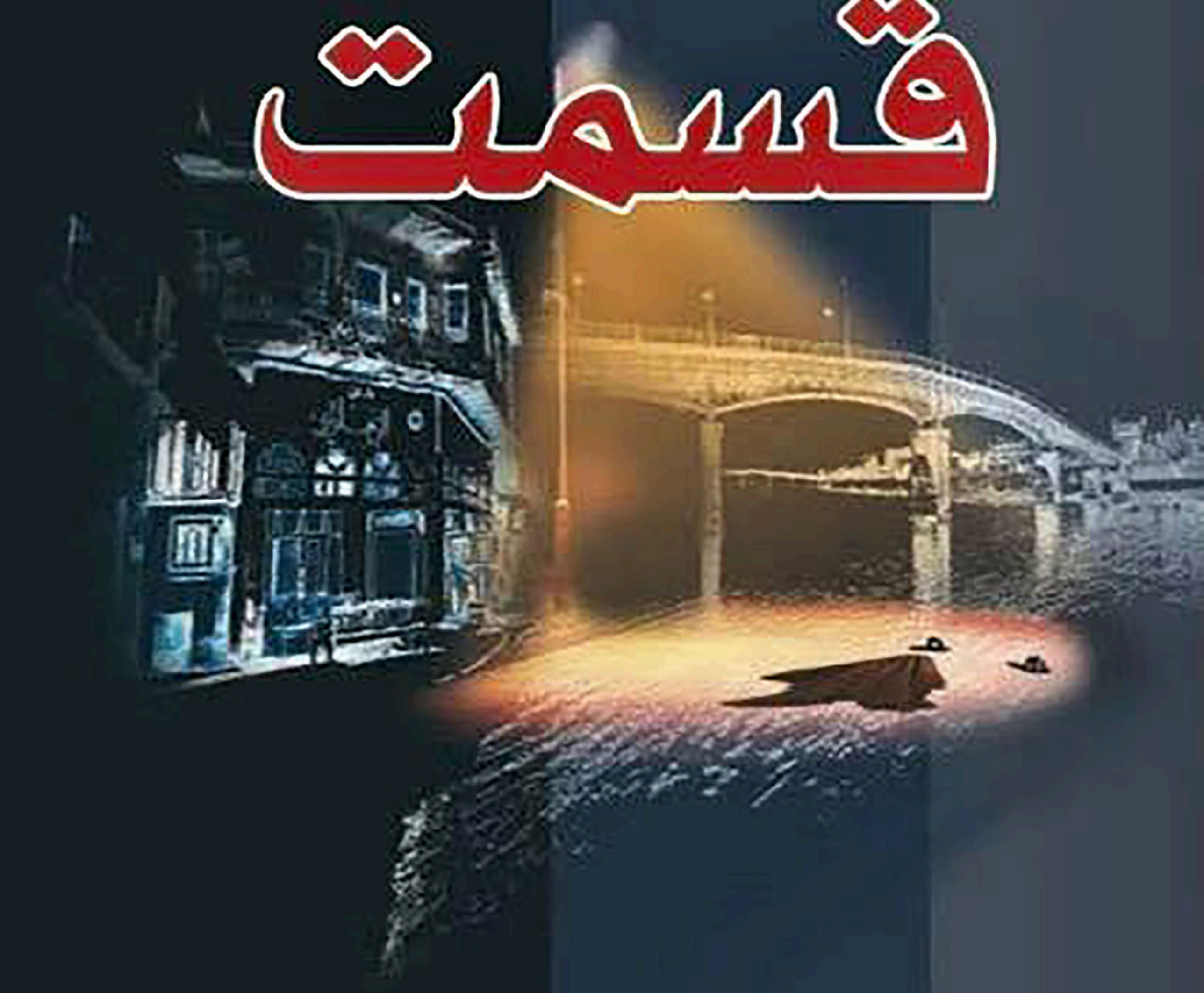

منشورات الجمل

رواية

حوراء النداوي: قسمت

حوراء النداوي

قسمت

رواية

منشورات الجمل

حوراء النداوي: قسمت، رواية
الطبعة الأولى ٢٠١٨
كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٨
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag 2018*
Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

تفاصيل هذه الرواية من وحي الخيال وإن اعتمدت على حقائق ووقائع تاريخية، إلا أن أي تشابه في الأحداث أو الشخصيات والأسماء هو من قبيل الصدفة.

﴿الَّذِينَ أُخرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾.

ـ قرآن كريم

«فكأنّ بعضي مات بموتها، وكأن بعضها ما يزال حيّاً في حياتي. فكلانا ميت، وكلانا حيّ».

ـ ميخائيل نعيمة

القسم الأول

الأحداث
من ١٩٥٠ إلى ١٩٧٥م

الفصل الأول

حكى رواد المقهى الذي يقع على ناصية الشارع الكبير المحاذي للنهر أنهم رأوا قسمت حين قدمت في تلك الليلة ماشية على عجالة وبصحبتها طفلة في الثانية من عمرها وطفل رضيع. قالوا إنهم تبينوا خيالها حين وقفت عند النهر ثم خلعت نعليها ومن ثم عباءتها لتكشف عن بطنها الحامل المنفوخ خلف «دشداشتها البازة»، ما جعل بعض زبائن المقهى ينفضون عنهم آثار السهر لينتبهوا إليها. غير أنها لم تمهلهم كثيراً ليستفهموا، فبادرت ببساطة وسرعة إلى إلقاء الرضيع في النهر ثم قبل أن يفيق السهارى من المفاجاة أو يفكر أحد منهم في أن يهرع نحوها كانت قد ألقت بالطفلة ثم بنفسها.

* * *

بعد يومين من الحادثة أُعلن في بغداد خبر وفاة الملكة عالية، لكن أحداً من أهل الدار أو «النِزل» المستأجرين فيها، لم يكن ليسمع به أو يهتم وهم مشغولون جميعاً في العزاء الذي استمر ثلاثة أيام طويلة حيث لم يخلُ البيت الكبير من المعزيات اللواتي توافدن من جميع أنحاء الدهانة وباب الشيخ وشارع الملك غازي. كل من سمع بالفاجعة جاء إما مواسياً أو ليروي فضوله برؤية الأب والأم المثكولين بابنتهما والأحفاد. الجميع لديهم أسئلة فضولية يطرحونها بطريقة مطمئنة وكانت الأجوبة

والتعقيبات دائماً ما تأتي من «قَيم» و«شازي» بكلمات قليلة ومنكسرة. أما «فرصت» أخت قسمت الأصغر والتي أجّل زفافها للمرة الثانية بسبب وفاة عمها قبل شهور عدة ثم تلقائياً مع إنتحار أختها، فكانت تنظر إلى المعزيات الفضوليات بنظرات فارغة وقد التزمت الصمت. تبدو هادئة مكابرة وهي لم تجد من تبكي أمامه بحرية ولم يحتضنها أو يواسها أحد، الكل كان مشغولاً ومتطلباً أيام العزاء المزدحمة ويبادلونها نظرات قلقة لا تعين على الرحمة. وكانت هي تمقت العزاء وتلهث من أجل وقتٍ يمكنها فيه أن تخلو بنفسها، بالإضافة إلى كونها تكره عادات النسوة المعزيات وإن كانت تشاركهن مضطرة في بعض المظاهر بينما نواح أمها يصلها تارة قوياً وهادراً وأخرى خفيضاً وأقرب إلى الهمهمة فيزيد من حزنها الذي تكتمه بمشقة. كانت تمقت بشدة اجتماعهن على الغداء الذي يقام ثواباً على روح الميت وقد بدين مثل باذنجانات مرصوصة في صندوق بثيابهن السوداء المتشابهة وعصابات رؤوسهن وقد احمرت الخدود من آثار الحزن المزخرف وحمى الانفعال وإنتفخت العيون واحمرت من شدة البكاء الفارغ من الدموع. هذا الانقلاب المفاجيء من النواح إلى الطعام والثرثرة كان يضايقها بشدة ولا تكاد تحتمل إنها المكلومة برحيل أختها، عليها أن تخدم في مجلس نساءٍ لا يخلو من الضحك والنميمة والمعايرة.

على ماذا كن يبكين أو يتظاهرن بالبكاء؟ وهل رحيل أختها قسمت يثير فيهن كل هذا البكاء حقاً؟ ألم يكن جمال قسمت مبعث غيرة وحسد الكثيرات من الحاضرات؟ ألم تكن طيبة قلبها ونظراتها الزائغة وتصرفاتها الطفولية مبعث سخريتهن؟

ثم إنها تشعر برعب هائل وما من أحد ليطمئنها. والدها مشغول في عزاء الرجال بعد أن دفن أختها التي لفظها النهر في اليوم التالي للواقعة،

وهو ما يزال مهموماً بالبحث عن جثتي الطفلين اللتين لن تظهرا قط. وأمها مرمية كالمجنونة في واحدة من غرف الدار العلوية مذ سمعت بالخبر. أما هي فعليها غسل الصحون والمعاونة في الطبخ والتنظيف بينما يداها ترتجفان وحسرة الدموع التي تبكيها في جوفها تصنع لها كتلةً في بلعومها، أو كأن سكيناً قد غارت في صدرها وما من قدرة على سحبها. كانت تعمل بصمت بينما تتخيل أن أختها قسمت ستدخل عليهم فجأة وهي تفتح عينيها الزيتونيتين مستغربة من سخط أختها وعنائها، فتنتشر معالم البراءة على محيّاها اللطيف. تتخيلها تحتضنها مواسية ثم تلقي عنها عباءتها وتشاركها عملها بهمة لتعينها على خدمة المعزين.

لبثت فرصت خلال أيام وليالي العزاء المتعاقبة أرقة لا تنام إلاّ لماماً. تستلقي للنوم وإلى جانبها اختاها الصغيرتان، فترى في عين خيالها لحظات غرق قسمت. ترى الماء وقد ملأ أختها الكبرى فلم تعد قادرة على التقاط أنفاسها، تتخيلها وعيناها تغمضان الإغماضة الأخيرة. شعرها الكثيف الطويل وقد صار ملاذها الوحيد الذي أُذن لها أن تتمسك به في ظُلمات عديدة ومخيفة غير أنها تتجمد عن الحركة فلا تستعين به. تتخيل يداها ممدودتان تبحثان عن الطفلين وبطنها كبيرة لكنها لم تعد منفوخة كما رأتها آخر مرة، بل بدت لها خاوية بلا جنين، ضخمة ومسطحة كأنها للتو قد أسقطت طفلاً من جوفها، دون أن تتعمد. ثم تتخيل فرصت دشداشة أختها وقد بدأ الماء ينفخها حتى صارت مثل كرة كبيرة في أعلاها رأس وشعر يرقص متماوجاً، وفي أسفلها بالكاد تبرز قدما قسمت الصغيرتان. أين الأطفال؟ لا تراهم فرصت، لعلهم ضاعوا في هذه الغياهب. تتساءل قبل أن يعييها النوم بلحظات فتسقط تحت رحمة سلطانه، تُرى هل ندمت قسمت قبل أن يسرق الموت روحها بلحظات؟ هل رفست وتلفتت وهي تهوي في الماء عميقاً باحثة عن طفليها فتناثرت

وتشابكت خصل شعرها كأنها تُجنّ معها؟ هل اعتصرت بطنها بكفيها لتؤمِّن على روح جنينها؟

هل صرخت صرخة كتمتها مياه دجلة الثقيلة؟

* * *

مع نهاية اليوم الثالث للعزاء وبعد أن خلا البيت من المعزيات، أعلنت فرصت بتمرد أنها ستترك ما تبقى من أعمال لليوم التالي دون أن تعبأ بنظرات عمتها قَيَم التي لم تكن مؤنبة كما توقعتها، ثم صعدت إلى الطابق العلوي لتطل على والدتها التي اعتكفت في غرفة قصيّة رافضة الطعام والشراب، مستلقية على الأرض العارية في برد ديسمبر بعد أن أزاحت الفرش والأغطية. كانت عيناها مغمضتين واضعة كفها تحت خدها كأنها مطمئنة لكونها وابنتها المتوفاة تتشاركان صلابة المرقد وبرودته. نادتها فرصت هامسة:

ـ دا؟

فلم تجب لكن فرصت إطمئنت لهدوئها ثم أغلقت الباب بلطف. كانوا قد وجدوا الأم في واحدة من نوبات الجزع وقد شَقّت ثوبها ومرغت جسدها على الأرض، فانطلقت حينها الصغيرة «پري» لتنادي الأب الذي كان في عزاء الرجال فجاء بصحبة عمهم «رضا» وأخذ يهدئ من روع زوجته وقد التف حولها من في الدار بينما كل من الصغيرتين پري في السادسة ومريم التي أكملت عامها الأول للتو تحاولان حشر نفسيهما بينهم، فكانت پري تتابع أمها بنظرات متنبهة وقلقة بينما كانت نظرات مريم التي بدأت تمشي أولى خطواتها منذ أيام قليلة تبدو مملؤة بالفضول رغم قلة وعيها. حمل الرجلان بدرية إلى الحمام الواقع في فناء الدار وغسل الملاّ وجهها عنوة علّ الماء يعيد إليها شيئاً من رشدها،

لكنهم ما إن غفلوا عنها حتى أخذت طابوقة وجدتها تسند الحنفية وضربت بها صدرها مرات عدة ثم سقطت شبه مغشي عليها. حين أعادوها إلى مكانها أخلوا الغرفة من أي أدوات يمكنها أن تؤذي بها نفسها وحاولوا إطعامها بالقوة لكنها رفضت، وقد شعرت فرصت بثقل المسؤولية تجاه أمها وإخوتها الصغار بعد أن تغيب والدها الملاّ غلام علي عن البيت وبات يقضي ليالي العزاء في الخان حيث يعمل، ورافقه في ذلك أخوه الأصغر رضا في محاولة غير مجدية لتخفيف المصيبة عنه.

في تلك الليلة الأخيرة للعزاء، نامت فرصت نوماً متقطعاً وحلمت بطفلي قسمت. رأت نفسها مع ابنة أختها ذات العامين في نفس الغرفة التي تنام فيها. كانت الصغيرة تضع أخيها الرضيع في حجرها وتهزه بقوة حتى كاد أن يقع قبل أن تتلقفه فرصت وتحتضنه إلى صدرها بلهفة. سألت الصغيرة عن أمها فردت على خالتها بصوت ناضج فزعت منه الأخيرة لوهلة فضحكت الطفلة ضحكة غريبة لا تتناسب وبراءة ملامحها. ثم اختفى المشهد فجأة وفتحت فرصت عينيها بينما صدى الضحكات يرن في أذنها طازجاً. خيل إليها أنها ستلتفت لتجد ابنة أختها في مكانها، لكنها لم تجد غير پري ومريم النائمتين بالقرب منها وأخويها مصدق وموفق يفترشان زاوية بعيدة

وجميعهم غارقون في النوم. حاولت أن تتذكر ما قالته الطفلة في الحلم لكن عبثاً، وقد بدأت خيوط الفجر الأولى تتراءى لها من النافذة بينما الدار ترزح تحت هدوء الموت الموحش. لبثت تتمتم آيات قرآنية مما تحفظه وهي تحاول العودة إلى النوم لكنها أحست پبري تقوم من جانبها ثم تهبط متسللة عبر الدرج الخلفي إلى الفناء. كانت أرضية الفناء العتيقة قد مدت بفرش مهترئة صفت بمحاذاة الحائط، بعد أن نُقلت

الأغراض المنزلية القليلة التي كانت تركنها الأم وقَيَم في زوايا الحوش وأودعت في العلية ليغدو الفناء الخارجي خالياً وواسعاً جداً في عيني پري. اتكأت على الحائط مرتدية ثوباً أسود بسيطاً بأكمام طويلة وقماشة ثقيلة كان قد خيط لها في مُحرم وعاد نافعاً للاستهلاك مع مصيبة الموت المفاجئة هذه. جسدها نحيل، يبدو أصغر من أن يكون جسد طفلة في السادسة فبدا ثوبها الأسود واسعاً ويكاد ينزلق عنها مع كل حركة.

بدأت تعد في سرها ببطء:

ـ يك، دو، سِه..

ثم انطلقت بسرعة وألقت برأسها على الفرش وقلبت جسدها الصغير رافعة ساقيها النحيلتين ليظهر لباسها الداخلي الذي يغطيها حتى الفخذين، وليكاد ثوبها ينزع عنها. كتمت ضحكتها وهي تلهث ثم قررت أن تعيد الكرة. إتجهت نحو الحائط وتلفتت فلم تر أحداً وإن بدأت تسمع أصواتاً وهمهمات وأنين أمها المكتوم من الغرف البعيدة. انطلقت مرة أخرى مكررة فعلها فعاد ثوبها ليكاد ينزع عنها وشهقت من سعادتها اللحظية لكنها أحست فجأة بقرصة قوية في فخذها وهي تهوي على الفرش، ثم ما كادت تتبين وجه أختها فرصت حتى عالجتها الأخيرة بضربة على كتفها وهي تجرها قائلة:

ـ هل هذا وقت لعب؟ مصيبتنا بحجم رأسنا يا غبية.

ثم همهمت بحزم:

ـ ساعديني في لم الفرش.

بدأت پري تنتقل بين الفرش وتطوي طرفها الثقيل بكلتا يديها الصغيرتين ثم تقلبها مرة تلو أخرى حتى يصبح لديها فرشة مصفوفة لتحمل فرصت بعضها إلى غرف الطابق العلوي، ووضعت أخرى كانت

من حصة شازي قرب باب غرفة زوجة عمها تاركة لها مهمة نقلها. ثم عادت فرصت إلى الفناء بعد أن اطمأنت إلى أمها وهي تحمل أختها الصغيرة مريم في حضنها، ورأت شازي جالسة في المطبخ تعد طعام الغداء أبكر من المعتاد تحسباً لقدوم معزيات غير محتملات، وضايقها أن ترى پري تتجول وفي عينيها رغبة ملحة في اللعب فسحبتها من يدها ودفعت بها إلى المطبخ وهي تهمس من بين أسنانها:

- إبقي هنا.

ثم التفتت فرصت إلى شازي:

- ميمي شازي، دا متعبة جداً وپري لا تكف عن أذاها.

ثم نهنهت شاكية وهي تخفي وجهها بكفيها:

- إلهي ما الذي فعلناه لتغضب علينا هكذا!

لم تكن شازي تكبر فرصت بكثير. لعلها لم تتعد السابعة عشرة ومع ذلك تعودت فرصت أن تناديها بميمي، فحين انتقلت شازي إلى دارهم عروساً لعمهم، كان الملاّ غلام قد أوصى أولاده وبناته جميعاً أن يخاطبوها ويعاملوها باحترام بالغ رغم قرب سنها منهم، ولم تجد فرصت غير كلمة «ميمي» لتخاطبها بها، لكن بعد أن شبت قليلاً وصار لها صدر يترجرج وخاطب ينتظر باتت كلمة كهذه عبئاً على قلب شازي التي ما لبثت تلمح باستيائها بين الحين والآخر، فتستنكر بصوتها الرفيع كأنها تسخر غير متعمدة:

- ميمي؟! على قولة العرب، شنو هازة كاروكچ؟

لكنها في مثل هذه الأيام تلتزم الصبر وتدرب لسانها على التروي قبل أن ينطلق لاذعاً، فالتفتت إلى پري لتقول بقلة اهتمام:

- پري، أحضري فوطة نظيفة من الدولاب لنلف بها غطاء القدر.

توجهت پري إلى الدولاب دون أن تفكر كثيراً بخيبة الأمل من قطع متعتها التي سرقتها تواً من الأجواء العابقة بالموت، فتحت الدولاب فخرقت صرخة أذنها، أخذت الفوطة بسرعة وقد بدأ قلبها يخفق فعلا نواح رهيب. نظرت نحو شازي وفرصت فوجدتهما تقومان من مكانهما وتخرجان من المطبخ لتقفا عند بابه في الفناء الخارجي. أما «النِزل» ممن يستأجرون الغرف الباقية من دارهم الواسعة فقد كانوا ما يزالون في غرفهم وربما كانوا قد تعبوا من مهمة الترحيب بالحزن التي زجوا فيها فآثروا الإنزواء وترك الباقي لأهل العزاء الأصليين. هرولت پري نحو فرصت وتشبثت بثوبها وأحكمت بقبضتها الأخرى على الفوطة مسترقة النظر إلى معزيات جديدات أبكرن القدوم ربما لتأدية واجبهن العزائي على نحو جيد. ثم رأت قَيَم وقد هبطت بسرعة لتقف في وسط الفناء لتبدأ هي وشازي في استقبال القادمات بلطم خفيف على الخد وهما تنظران إلى الأرض بانكسار مفتعل. شازي ترفع حاجباً رفيعاً وترخي الثاني، وقَيَم تزم شفتيها وتمدهما كأنها ممتعضة لا حزينة. قدماهما متشققتان وثوباهما الأسودان يلمعان وقد عصبت كل منهما رأسها بقطعة من قماش الحَبَر كأنهما تستعدان لاحتفال فلكلوري. صرخت فرصت فجأة ثم تركت أختها الصغرى تنفلت من بين يديها ما أن رأت بين القادمات خالة والدهم نازارة التي قطعت زيارتها الموسمية إلى مدينة النجف حالما سمعت بالخبر الذي وصلها بالمصادفة بعد أن علمت أن ابن أختها قد قدم قبل يومين إلى مقبرة وادي السلام لدفن ابنته الكبرى، وقد أججت رؤية الخالة نازارة وجع فرصت حتى وجدت نفسها دون أن تتعمد أو تدري تصرخ بقوة معلنة عن ألم حاد قبع في جوفها وكاد يكتم أنفاسها في الأيام الأخيرة. يسكنها التوتر والخوف والضغط والحسرة وقلبها منقبضٌ ولا تعرف كيف تريحه. استقبلت خالة أبيها دون أن تسلم

عنيها، وقفت قبالتها بثوبها الأسود وقد طوت ردنيه حتى مرفقيها. في الثالثة عشرة من عمرها لكنها تعلمت كيف تستقبل الأحزان وتجامل فيها وقد شهدت عزاءات عدة مقارنة بعمرها الصغير، من ضمنها وفاة عمها الشاب الذي لقي حتفه مسافراً قبل أشهر ما جعل عزاءهم آنذاك يتضعف فيه الحزن والجزع. جُرع مكثفة ومتتابعة من الحزن علمتها كيف أنهم أمام مصيبتهم هذه من المعيب ألا يحسنوا عزاءً وألا يجزعوا جزعاً يناسب حجم كارثتهم. لكنها لم تتعلم بعد كيف تطلق الحزن صريحاً دون أن تزوقه بصرخة مفتعلة أو كلمات تحفظها ولا تعنيها:

- واي خوشكا (آه يا أختاه).

ثم انطلقت بسيل من التعديد بنواح فلكلوري فصيح وبلكنة كردية جبلية صميمة كأنها لم تولد في بغداد وتعيش فيها عمرها القصير كله، أما نازارة فقد تخلت للمرة الأولى منذ زمن طويل عن وقارها المهيب وصارت ترد على الفتاة بكلام يستذكر مصيبتهم وفاجعتهم، في نحيب كأنه موال طويل ترددده امرأة كردية مكلومة تنحدر من قمة جبل تاركة صوتها يطرق الصدى. تراجعت پري إلى داخل المطبخ بخوف وهي ترى أختها تفقد صوابها هي الأخرى كما رأت أمها قبل ذلك. الكلام الذي تسمعه رهيب! ستعلو أنفاسها وستضطرب بشدة وستحاول أن تبكي. لكنها لا تفعل! خوفها من انهيار أختها المفاجئ يطوقها ويمنعها من أن تبدي ردة فعل. جلست على التختة بالقرب من الموقد الذي وضعت شازي عليه قدر الطعام وتركت الفوطة في حجرها. أحست بريح باردة تلف ظهرها كأنها باتت عارية أمام الخوف والبرد، دهمتها رغبة في التدثر تحت اللحاف ومعاودة النوم فتثاءبت فاتحة فمها الصغير على آخره. حاولت قدر استطاعتها في الأيام القليلة الماضية أن تقفز على هذه الأحزان وهذا الغم الذي صار يضغط على دارهم منتظرة أن

ينتهي هذا الوضع الجديد. عرفت أن أختها قسمت قد ماتت ولن تراها مجدداً حين فقدت أمهم وعيها وانقلب البيت إلى مناحة. بعدها أجلستها قيم في حضنها وقالت لها ووجهها الصارم يلين مع كلماتها أن قسمت سافرت إلى «خدا» وأخذت معها طفليها. اذاً الصغيران اللذان كانت پري تغار منهما كثيراً لن يعودا إلى هذا البيت ولن تراهما مجدداً. ثم شهدت قداسة العزاء المهيبة. رأت النسوة يجلسن في فناء دارهم ثم يقمن مع قدوم كل معزية جديدة، ينظرن إلى الأرض ويخدشن الخدود مرددات النداء المخيف: «وَي، وَي، وَي...» تعلمت أن تقف معهن وتفعل ما يفعلن، بل صارت تنتظر مجيء المزيد من المعزيات لتمارس هذه اللعبة المخيفة. أحياناً كانت الأمور تخرج عن السيطرة. بعض المظاهر والأحداث كانت فضيعة وتركت أثراً هائلاً في نفسها. سيما حين قدمت إلى دارهم والدة حسين زوج قسمت التي دخلت بوجه مكفهر وقد عصبت عصابات عدة حول رأسها وارتدت عباءتها فبدت مثل هرم أسود غير ثابت ويتحرك بعصبية. دفعت باب الفناء بقوة ووقفت وسط المعزيات ثم صاحت بلكنة «البَيرَي» التي تجيدها النساء القويات والمتسلطات وهي تحرك كفيها متفرسة في وجوه النسوة:

ـ بدرية.. أين بدرية؟ أين خبأت رأسها؟ هل رأت ما فعلته ابنتها «العايبة» بأخذ أحفادي مني! ابنتها المجنونة التي ابتُلينا فيها.

ثم لعنت وشتمت ودعت على أهل الدار قبل أن يخرجنها بعض النساء بالقوة. كانت امرأة غاضبة وصوتها رفيع فيه مسحة مزعجة من هدوء كأنها لا تعني غضبتها وشتائمها. سمعتها پري تصيح في أثناء خروجها من الباب:

ـ ستخلد في الجحيم على قتلها أحفادي. تلك المجنونة. ستُحرق في نار «خدا» إلى الأبد، كما حرقت قلبي.

ركضت پري خلفها لتجدها ما تزال واقفة عند باب دارهم الواقعة في ركن من الدربونة رافعة رأسها إلى الأعلى في مناجاة ودعاء مستمر عليهم جميعاً، فبصقت پري على المرأة بصقتين حاولت أن تكونا قويتين لكنهما أطلقتا خفيفتين ورمشت بعينيها مع كل بصقة كأنها لا تحتمل شدّتها. التقت عينا المرأة الهائجة بعيني پري فلم تقطع الطفلة نظرتها وإضطرت المرأة إلى أن تعاود النظر إلى السماء وهي تواصل لعناتها. غضب طفولي ممزوج بانكسارة رافقا پري وهي تودع المرأة بنظرات تحدي بينما كانت الأخيرة توشك أن تختفي عند منعطف الدربونة. شيء ما حل في قلبها الصغير كأنه الكبرياء وصار يتضخم فيه. بدأ هذا الإحساس معها قبل أشهر قليلة حين اكتشف أطفال الدربونة أن أختها قسمت تنتابها نوبة من الضحك التي تستمر طويلاً ثم تتطور أحياناً إلى عاصفة من ضحك لا يهدأ كلما أروها صورة صغيرة لشخصية كارتونية معينة، لتتحول بذلك تسلية مفضلة لهؤلاء الأطفال العابثين بينما إحساس غريب يقرص پري في قلبها وهي تعي أن أختها التي تكبرها بثلاثة عشر عاماً، اللطيفة والهادئة ذات الملامح البريئة والشعر الطويل لا تستحق هذه السخرية. فكانت تسحب عباءة قسمت وتفتعل الضيق والبكاء وتصرعلى أن تعودا إلى البيت وهي تجرها جراً، بينما الأخيرة غارقة في ضحك لا تحاول كتمانه.

ها هي الآن تجلس في المطبخ على تختة مغالبة نعاس الصباح الذي عاودها فجأة، وقد تعودت أذناها على أصوات النواح والبكاء التي بدت وكأنها لن ترحل عن هذا البيت. أحست فجأة بيد امرأة تربت عليها ثم تأخذ منها الفوطة بلطف وتلف بها غطاء القدر ثم تثبته فوقه وتوطيء من قوة النار، فانتبهت أن ثوبها لم يكن أسود كبقية النسوة في البيت. رفعت رأسها لتتبين المرأة التي كانت تبتعد وعلى وشك أن تخرج من المطبخ،

فكانت أختها الميتة قسمت. لبثت پري ترمش دون أن تعي بعد ما رأت للتو، وأحست بالبرد مجدداً ثم إجتاحها الخوف فطأطأت رأسها مركزة حواسها على ظهرها الذي شعرت به مكشوفاً لأي اعتداءٍ مجهول. تنبهت للصمت المفاجيء للبيت فخرجت من المطبخ بخطوات مترددة ووقفت عند باب الفناء لتجده خالياً. نادت من مكانها على فرصت فلم يجبها أحد. نادت على قَيَم، وقد بدأ الخوف يعصر قلبها فأجهشت بالبكاء. بدا لها شكل الفناء أكثر إتساعاً وكأنه سيبتلعها إذا ما تحركت من مكانها. فجأة هُيئ لها أنها تسمع صوت بكاءٍ مكتوم فعادت تنادي بأعلى صوتها وهي تبكي بحرقة، ثم بعد ثوان مرت طويلة عليها سمعت باب غرفة يفتح لتطل عليها فرصت من فوق تطالعها بعينين متورمتين قائلة بنبرة مؤنبة:

ـ ما بك؟ لِمَ تصرخين؟

ثم أكملت بحدة أقل وهي ترى خطوط البكاء على وجه أختها الصغرى:

ـ الجميع في غرفة دا.. إصعدي إذا شئتِ.

فهرعت پري مسرعة إلى أختها وهي تمسح دموعها.

* * *

اقتنع الملاّ غلام علي والد قسمت وجد الأحفاد الذين قضوا غرقاً، أن مصيبة الموت التي خيّمت على دارهم كانت نتيجة ما تحمله إليهم رياح الشتاء الطويلة من شؤم وبؤس. إذ لطالما تشاءم منه ومن طوله وأيامه الباردة والأمراض التي يجيء بها كلما حلّ، تلك التي تعشش في لياليه المليئة بالقيء والسخونة وهي تطحن الأجساد المنهكة الهزيلة. وقد تعوّد أن الموت حين يأتي ليجزّ أعناق ما تيسر له من الأهل والأصحاب

يحلّ مقدمه الأسود شتاءً، حتى ذلك الذي يخطف الأحبة إثر حوادث مفاجئة، فإنه غالباً ما يكون مرتبطاً بفصل البرد والظلام، بالضبط مثلما توفي أخوه الشاب مسافراً قبل أقل من عام تحت عربة نقل يجرها حمار عجوز وقعت بثقلها عليه فأردته قتيلاً. وكان الملاّ غلام علي قد صنع شؤمه الشتائي على إثر ما كان يسمعه عن قومه القادمين من «پشت كوه» (اي ما وراء الجبل)، من أنهم كانوا يعملون بهمّة في الصيف في تجارتهم وزراعتهم ورعي أغناهم، وحين يقترب منهم الشتاء يعودون إلى قراهم المختبئة في أحضان الجبال فينزوون فيها ولا يقاربون أعمالاً تتطلب سفراً أو جهداً يجعل أياً منهم أو من بغالهم وماشيتهم عرضة للأخطار، فليس أسهل من أن تزلّ حوافر بغلٍ يغالب صعوداً أو هبوطاً من جبلٍ وعرٍ تكسوه الثلوج. ولهذا كان الشتاء فصلاً قليل الهمة والبركة، كثير الأمراض والمتاعب بالنسبة للكرد ليس في «پشت كوه» وحدها بل في جميع أنحاء «لورستان» الموطن الأصلي لهذه الفئة من الكرد. ولأن أجساد رجالهم القوية كانت تزخر بطاقة يقيدها الشتاء الأبيض الملعون كانوا يلتفتون بكل حواسهم وطاقاتهم المكبوتة إلى نسائهم فينفثون سمومهم في أرحامهن ليفرخن أطفالاً كُثراً لتخفف عزوة الأولاد من كآبة السُبات الذي يحيق بهم كل عام. في أحايين أخرى كان بعضهم ممن لديه القدرة ينزح غرباً نحو مناطق أكثر دفئاً تقع على حدود الدولة العثمانية، ويُتناقل أن منهم من كان يفضل عدم الرجوع بغية الإستقرار في الأرض المختلفة المناخ والتي كانت تقيهم برد الشتاء ووعورة الجبال وقلة العمل. وكلما شحّ العمل وتعسّرت لقمة العيش نزحوا غرباً حتى بغداد حيث المدينة الكونية الكبيرة التي يحتاج سكانها وكثرة فرص العمل فيها إلى مثل أجسادهم القوية وهِممهم المشحوذة دائماً. قيل لهم، أن العربي لا يقوى على الكثير من الأشغال التي تتطلب

مجهوداً جسدياً هائلاً، فحيث بيئته الصحراوية الخاملة لا تجده يسعى في رزقه إلاّ ما ندر وقبل أن يموت من الجوع بقليل. وكانوا يصدقون هذه الأقوال بيُسر ويتناقلونها فيما بينهم بفخر، فكل تفوق عرقي مزعوم هو علاوة يضيفونها إلى ذواتهم ويمكنها أن تعينهم وتحميهم من خيبات الحياة التي ستصادفهم بسبب عِرقهم المختلف. لذلك فإن بغداد وغيرها من المدن الفعّالة بحاجة إليهم، إلى رجال «پشت كوه» الأشداء ذوي القامات الفارعة المتينة والأيادي الضخمة الخشنة، هؤلاء الذين يعملون دون كلل ويحفرون في الصخور والجبال منذ أزل وجودهم، ويصاحبون بغالهم التي يحمِلون عليها أكثر مما يصاحبون بعضهم بعضاً. هكذا كان الأجداد يتناقلون الصور التي ينمطونها وفق ما يروقهم ويسردونها بغرور الفحول المتناطحة دون أن يتركوا فرصة ليُبرِزوا ويباركوا فيها تفوقهم الجسماني الذي يختالون به حتى على البقية من أقرانهم من كُرد غرب وشمال كردستان. إلا أن هذا النوع من الأجداد لم يكونوا من الأجداد المباشرين للملاّ غلام علي تحديداً، فقصة وجوده في العراق تختلف في بعض تفاصيلها. اسمه مركب فهو غلام علي ابن رحيم ابن جهانگير ابن منصور ابن وفي... إلخ. يعرِف أجداده حتى أسماء بعيدة ويعلم تفاصيل دقيقة عن حيواتهم. جده المباشر جهانگير أو «جيني» كما كان يحلو لقومه تصغير الاسم، كان مسؤولاً عن المالية لدى والي پشت كوه «حسين قلي خان» فكان يأخذ الإتاوات والضرائب من الفلاحين الكرد، سواء كانت دواباً أو سككاً يدفعونها له مرغمين، حتى أن الملاّ كثيراً ما سمع والده رحيم يردد انه يخاف على أبيه من عقاب الله لأنه كان عوناً للوالي على ظلمه هؤلاء البسطاء من الناس. كان جهانگير أو جيني هذا رغم انه يد الوالي التي تطبق على رقاب الناس إلا انه بحسب ما يُستذكر من سيرته فقد كان شجاعاً كريماً في قومه ومهاباً بين أبناء عشيرته، أشقر

الشعر أزرق العينين ذا كتفين عريضين وقامة قصيرة، حتى انه لقصره كان معروفاً عنه أنه يدخل راجلاً من تحت فرس العدو حين يقاتل في حروب الوالي التي غالباً ما كان يُتنازع فيها على الأراضي والسلطة في إقليم لورستان. وفي ما يُذكر، أن الوالي استنفر رجال من عشائر البختيارية والقره لوس والكلهورية وجمعهم ليحارب بهم جمعاً من عشائر «خرم آباد» الذين كانوا تحت أمرة الشاهزادة محمود، وهو أميرٌ غرٌ لم يخلد التأريخ اسمه في غير هذه الواقعة لعدم أهميته أو تميّز سنوات حكمه التي نُصّب فيها أميراً على قومه، لكنه في حينها ولطيشه وقلة خبرته، تجرأ وتنازع مع الوالي حسين قلي خان على سيادة أرض ادعى أنها لعشيرة من العشائر التي تنضوي تحت إمارته. ولم يتوانَ جيني عن الذهاب بنفسه إلى الحرب رغم استبقاء الوالي له ومحاولة ثنيه. وقد قيل إن الوالي حسين قلي خان وقف بنفسه على قمة تلة عالية يراقب القادمين من المعركة معايناً الطريق بدربيله الضخم من ماركة «شيڤالييه» وقد اعتراه قلق غير مبرر على جيني العزيز إلى قلبه، حتى صاح وهو يرى رجلاً يتقدم من بعيد حاملاً على ظهره جثة رجل مقتول:

ـ رباه هذا جيني قد قتل!

وتملّكه خوف وهمٌ للحظات بل إن أطرافه بردت لوهلة حتى تراءى له القادم من بعيد يسير بثبات رغم حمله الثقيل، فعرف أن جيني الحامل لا المحمول، فهدأ لتوه. وحين وصل القادم عند الوالي ألقى بجثة الرجل عند قدميه فتبين أنها جثة الأخ الأصغر لجيني الذي أشار إلى الوالي قائلاً:

ـ هذا قربان بسيط لكم.

لكن البقية من إخوة جيني وكانوا ثلاثة لم يعجبهم القول وأضمروا في أنفسهم حقداً على الوالي وحروبه وقرب أخيهم منه لأسباب مختلفة، وأقسم أحدهم واسمه «هيوه» أن ينتقم لأخيه من العشائر التي تسببت في قتله وقد فعل، فذبح سبعة وعشرين رجلاً ثأراً لأخيه، وكان آخر من قتلهم شاباً في مقتبل العمر توسلت أمه إليه أن يعفو عن ابنها، فقتله رغم ذلك وشرب من دمه إمعاناً منه في عنادها، فدعت عليه ألا يبقي الله له نسلاً. وكان لهيوه ستة من الذكور فلم يعر دعواتها أهمية ومضى دون أن يعرف أنها ستتحقق فيموت أبناؤه لأسباب متنوعة، بل حتى الأحفاد القلة الذين سيولدون في المستقبل، سيموتون في مقتبل شبابهم دون أن يُترك لنسله أثر. أما الأخ الثاني لجيني وكان اسمه كريم، فقد نأى بنفسه عن الثارات والحروب والسياسة التي انغمس فيها أخواه واتخذ لنفسه مسلكاً مختلفاً فعمل في طبابة الحيوانات والبشر معاً، فكان يسعى من أجل الناس ويصعد الجبال متحملاً مشاق صعودها والهبوط منها دون تذمر، وذلك كلما سمع بمريض أو بحيوان على وشك أن ينفق. ولأجل ذلك صار مقرباً من الناس على عكس إخوته، محبوباً لحبه خدمتهم واهتمامه برعايتهم.

وبسبب هذا القرب الذي سمع به الوالي دعاه ليسلمه حكم مدينة مِهران لكن كريم رفض رفضاً قاطعاً ما جعل الوالي يشعر باستياء وإهانة لمثل هذا الرفض، فدعا إليه جيني وأمره بالتأثير في قرار أخيه شبه مهدد، ولمّا لم يكن من سبيل لذلك تحوّلت المعزة العظيمة التي كان يكنها الوالي لجيني بين ليلة وضحاها إلى عداوة أعلنها عبر محاولته قتل كريم التي باءت في المرة الأولى بالفشل، فتعاظم غضبه وبات انتقامه حتمياً بعد أن صار من كان مقرباً وعزيزاً منبوذاً وملعوناً. ولأن جيني كان على معرفة حثيثة بالوالي حسين قلي خان وشدة بطشه فقد عرف أنه

وأهله لم يعودوا في حمايته، بل لن يهدأ له بال حتى يقضي عليهم جميعاً. فحاول إقناع إخوته بأن يهربوا إلى بغداد فهناك سيكونون في مأمن من الوالي، سيما وان حدود الدولة القاجارية كلها لم تعد آمنة بالنسبة لهم، فأي من ولاة الولايات الأخرى سيقدمونهم قرباناً لحسين قلي خان رغبة في التقرب منه. لكن جيني لم ينجح في إقناع كريم الذي رفض فكرة الفرار وبقي حيث هو فمات مقتولاً، ولحقه هيوه الذي لم تتسنَ له النجاة بنفسه بعد ذلك بأيام قليلة، فقد كان هدفاً سهلاً للعديد من الأسر والعشائر التي قَتَل عدداً من أبنائها. وحُمِل جثمان كريم على دابة إلى مدينة النجف في العراق ليدفن فيها بحسب رغبته التي كان أعلن عنها لجمع من محبيه وقد نفذوها له طواعية. أما جيني والوحيد الذي بقي من إخوته على قيد الحياة «فرمان»، فقد نجحا في الهروب إلى العراق وكان ذلك في عام ١٨٧٣ ميلادية، أي قبل عامين فقط من ولادة رحيم والد الملاّ غلام علي، والذي صارت بغداد مسقط رأس له. غير أن فرمان اختفى بعد وصوله إلى العراق بسنة ووصلت أخبار إلى جيني بعد ذلك بسنوات بأنه قد قدم إلى مدينة الحِلة ومعه أسرته المكونة من زوجة عربية وبنتين وثلاثة من الأولاد في عام ١٨٨٧ وفتح مطحنة حنطة هناك، عمل فيها لسنوات قليلة ثم صفاها وغادر المدينة ليختفي وأسرته من جديد. وقد قيل انه انتقل بعد ذلك إلى مدينة البصرة وذاب في العرب تماماً حتى نسي ونسله من بعده أنهم من الكرد.

لم يزر الملاّ غلام علي پشت كوه إلا مرة واحدة في شبابه وكان ذلك بعد وفاة كلٍ من والده رحيم وجده «جهانگير» أي جيني ببضع سنوات. وجاءت زيارته بعد أن أطاح الشاه رضا پهلوي بالحكم الذاتي للولاة فيها وضم إقليم لورستان كله إلى بلاد فارس التي كان قد أُطلِق عليها إسم رسمي جديد هو إيران. وكانت زيارة الملاّ تلك هي الأولى

والأخيرة في ذلك الحين، وقد شعر بالحظ الوافر لكونه من الكرد الفيليين العراقيين الذين لم يقعوا تحت حكم ورحمة الشاه رضا پهلوي الذي كان يستخدم شباب الكرد للسخرة والخدمة العسكرية الإلزامية إلى جانب الملاحقة والسجون التي أعدها لكبار رجالات العشائر إذا ما تمت معارضته. ورغم هذه الفوضى التي مزقت ملّته إلاّ أن الملاّ لم يكن ليفكر كثيراً في السياسات التي شطرت قومه إلى نصفين، نصف عراقي ونصف إيراني. فهو لم يحلم مثلما ستحلم أجيال من بعده بفكرة الحكم الذاتي أو الانفصال بغية التخلص من الظلم والتعسف اللذين سيلحقان بهم وقد تقاسمتهما دولتان، كلٌ تحاول توطينهم وتغييرهم بحسب القومية التي تنادي بها. كان تفكير الملاّ بعيداً عن كل ذلك على الرغم من إعتزازه وحبه للغته وقوميته وأبناء ملّته، إلا أن طبعه المسالم وشخصيته القنوعة الراضية لم يمليا عليه تمرداً يذكر. ثم إنه دائماً ما كان يشعر بالامتنان لكونه من فيليي العراق تحديداً، فهو رغم أنه غير متدين ويصلي صلاة مرتبكة بين الحين والآخر ينهيها في دقيقة ويردد فيها كلمات عربية شتى حفظها من هنا وهناك، إلاّ انه كان محباً لأئمته ومقتنعاً بأن أرض العراق مباركةٌ له ولنسله لأن أولياء الله المحببين له مدفونون فيها، فكلما ضاقت به الدنيا شد الرحال إلى النجف أو إلى كربلاء في زيارة إلى من كان يعتقد أنهم أقرب واسطة إلى ربه من صلاته غير الصحيحة، وحتى انه كان حريصاً على زيارة موسى الكاظم كلما سنحت له الفرصة وكثيراً ما وقف دامع العينين عند الباب الكبيرة دون أن يجرؤ على الدخول إلى الحضرة، وهو يتمتم مشيراً إلى نفسه بصفة الغائب إمعاناً في الانكسار والتواضع: «يا إمامي، يا باب الحوائج، يا موسى ابن جعفر، هذا مقام رجل كردي بسيط، ذي لسان أعجمي ثقيل، يقرأ القرآن لكن دون أن يفهمه، لا يكذب ولا يأكل الحرام ولا

يمد يده لما ليس له. يكفي خيره شره وسيبقى ما لبث حياً يطلب شفاعتك في رحمة الله وغفرانه». ثم يسترسل في مناجاته حتى تستقر روحه فينصرف عن المكان وهو يسير بهدوء الخاضع الذليل. أيضاً، لم يكن الملاّ ليعرف أو يفكر في الأسباب التي جعلته يولد شيعياً على غير مذهب أهل السنة والجماعة كما هم غالبية الكرد في العالم. وهو لم يسمع من قبل عن المؤرخين الذين استغربوا من كيفية وصول المذهب الشيعي إلى قومه تحديداً، سيما وقد ذكر بعضهم أن قومه قد تشيعوا حتى قبل أن تتشيع بلاد فارس التي كانت على المذهب السني لقرون طويلة قبل أن يتغير المذهب الرسمي للبلاد على يد الصفويين ويفرض فرضاً على العامّة من الناس. إلا أن قصصاً كثيرة كانت تُتداول هنا وهناك، فبعض أجداده إدّعوا أن إماماً من أئمة الشيعة قد زار جبالهم وقطن في ظهرانيهم فتحولوا إلى مذهبه حباً فيه. وقيلت روايات أخرى عن أن بعض التجار من پشت كوه كانوا يتنقلون بينها وبين أرض العراق فجلبوا معهم المذهب الإثني عشري. وأياً كانت الروايات الصحيحة، فإن فكرة تشيعهم كانت لتبدو غريبة وعجيبة فكيف يا ترى وصلهم هذا المذهب ليدينوا به جميعم وقد كانوا في ذلك الحين قوماً منعزلين في جبالهم لا يختلطون كثيراً بالأقوام الأخرى؟ كيف تواصلوا مع غيرهم ليجلبوا إليهم مذهباً جديداً بهذه اللكنة الجبلية الثقيلة التي يملكونها والتي كان يستصعبها الفرس ذوو اللهجة القريبة، وحتى البقية من الكرد الذين كانوا يستغربون أن كيف ولماذا يعد هؤلاء القوم ذوي الألفاظ الصعبة والغريبة منهم، حتى إن بعض كرد غرب وشمال كردستان كانوا يعدون الفيلية «بدو الفُرس»، في تلميح مكشوف بأن الفيلية أقرب إلى الفرس من قوميتهم الكردية وهو أمر استهجنه الفيليون في إصرار واضح على أصالة هويتهم الكردية. ولم تكن هذه الألغاز هي الوحيدة، فحتى

التسمية التي عرفوا بها في العراق لها روايات عدة. الفيليون، وقيل إن هذه التسمية جاءت بسبب أشكال أجساد رجالهم الضخمة التي هي أشبه بضخامة الفِيلة، فسموا بالفيليين، وكانت تلك واحدة من الترديدات الشعبية التي فقدت بهاءها مع الوقت، فصار بعض من تفقّه في اللغات يرجع التسمية إلى أصلها وهو «پيلي»، وقد تطور لفظ الحرف الأول إلى الفاء بعد إختلاطهم بالعرب الذين لا يلفظونه، كما هو الحال مع تسمية بلاد «پارس» ببلاد فارس، والعجيب أن الفرس والفيليين معاً تبنوا مع الوقت اللفظة العربية بدلاً عن الأصلية. وهكذا كانت الروايات الغريبة والأسطورية مستمرة، وعلى الرغم من أن أغلبها متضاربة ومختلفة ومتشعبة في تفاصيلها، إلا أنها كانت تثير تباهي الملاّ غلام علي فيرددها على مسامع من يرغب وقد راوده إحساس لذيذ بالفخر، حتى أن بعض الروايات التي تتناقل شفهياً صار يلفها الكثير من التحوير والتجميل المحببين لإضفاء بعض من التشويق والإبهار. بعد حين، صار فيليو بغداد يتناقلون فيما بينهم أن الملاّ غلام علي هو واحد من أحفاد الشاهزادات الذين حاربوا وتقاتلوا قتالاً عنيفاً مع أحد الولاة، وأحياناً كان يُذكر الوالي حسين قلي خان بالإسم، وأن هذا الخلاف الدموي كان بسبب الظلم والإجحاف اللذين عومِل بهما القوم من الوالي الظالم المتعسف رغبة في تقويمه وتحسين أوضاع الفيليين في ذلك الزمان في تلك البقعة من العالم، وقد أدّى إلى ترك هؤلاء الراغبين في الإصلاح موطنهم الأصلي في پشت كوه واللجوء إلى بغداد هرباً من بطش الوالي ولوذاً بالأرض المباركة، أرض العراق، أرض الأنبياء والأئمة الأطهار.

كان الملاّ غلام ينقل ما يعرفه عن ثقافته وتأريخه إلى أبنائه بحرص ودون تحريف، لكنه في الوقت نفسه لم يكن يتعمد الأبقاء على هويته المختلفة، فلكنته الثقيلة وهو يتحدث العربية وأخطاؤه اللغوية التي

يقترفها دون ذنب لا تفاجئ أحداً فأصوله غير العربية تُميِّز دون عناء الشرح. فقد كان يصر على مخاطبة الذكر بأنتِ والأنثى بأنتَ، رغم أن الحاج عزيز الصفار الذي كان يملك دكاناً في نهاية الخان غالباً ما صححه وهو يفتل شاربه قائلاً بلكنة بغدادية ممطوطة تتضح منها قلة صبره:

ـ «لك عيني.. أي يا ملاّ، شكم دوب افهمك؟ قولّي انتَ.. مو بعينك هاي الشوارب ولاحقني انتي انتي!».

فكان ملاّ غلام يشيح بكفه باستهانة، ما له وهذه اللغة المعقدة المليئة بالضمائر؟! إذ هو يقارن لغته بها فترجح كفة لغته فوراً. لغته البسيطة السلسة التي يجمع بها الأرض والجبال والأنهار والحبيبة والغريم والعدو بضمير واحد فقط! فلماذا تراه يرهق عقله؟ يكفيه تماماً انه يفهم العربية على نحو يعينه في مسلكه ومسعاه، فهو ليس ساذجاً لكي يجعل حاجز اللغة يسرق من جهده وعمله الذي تدرج فيه من مراهقٍ حمّال إلى مراقبٍ للخان لمعرفته القراءة والكتابة، وكان قد اكتسب لقب ملاّ في شبابه منذ انتظم في الكتّاب معلماً الأطفال من أهل ملّته قراءة القرآن بلسانه الأعجمي الأعوج. وبالرغم من أن الملاّ كان يكتب ويقرأ بصعوبة ويتحدث العربية المكسرة، إلا أنه بين قومه كان يعد فطحلاً من فطاحل اللغة وجسراً بين الملتين لمجرد أنه كان يرسم الحروف بخطه الطفولي ويقرأ الأرقام ويحمل ساعة في جيبه الصغير يعرف بها الوقت لكي لا يكون تائهاً بين الليل والنهار.

أما قدَر الفجيعة المضاعفة هذا فقد جاء في شتاء بغدادي هادىء، وكان الملاّ قد لازم الدار قبلها لأيام قليلة إثر نزلة شعبية، وهو الذي يعز عليه أن يغيب عن «الخان» قرر أن يذهب إلى عمله قبل أن يبلى تماماً

على الرغم من معارضة زوجته بدرية، فنهض مع الساعات الأولى تتفجر وارتدى ثيابه مكابراً ولف شماغه حول «العرقجين» بتؤدة ثم حمل جسده الواهن وسار في الطريق وهو يعقد يديه خلف ظهره ماشياً بهدوء ينظر إلى الأرض دون أن يرفع رأسه إلا ليرد التحايا الصباحية. قدماه تعرفان الطريق عبر الدرابين الضيقة التي كانت تعبق بروائح الصباح البغدادي الندي. شاي، صمون، بيض مقلي، طماطم مقلية، وأصوات الباعة و«صبحك الله بالخير ملاّ» التي يتلقاها من المار ممن يعرفونه. ما من شيء يعكر صفو حياته، وكل طاريء مرّ به عبر سنوات عمره التي عبرت الخمسين بقليل عرف كيف يتغلب عليه بصبر وحزم. ابنته الكبرى قسمت، تزوجت وأعطته حفيدين جميلين، صحيح أنها كانت أحياناً تثير بعض قلقه بسبب سذاجتها المفرطة وطيبتها التي كان يراها أشبه بالعته، إلا أنها وكما يروق الملاّ قد سُترت في الوقت المناسب في بيت قوي البنيان مع رجل طلب يدها مراراً مذ لمحها صدفة تلعب مع أطفال جيرانهم المسيحيين. وقد كان حسين حينها شاباً في الخامسة والعشرين من عمره، وفير المكسب ومن أصول فيلية جيدة، لم تثر اهتمام الملاّ ليبحث فيها كثيراً فوافق على طلبه بسرعة فائقة رغم أن ابنته كانت قد تعدت التاسعة بقليل فقط، ولهذا فقد قطع الملاّ غلام وعداً لحسين أن يزوجه ابنته ما إن تكبر وتصبح مؤهلة للزواج، وبعد صبر أعقبه الحاح زُفّت قسمت لحسين وهي بعد في الثانية عشرة ولم تكن قد بلغت مبلغ النساء بعد، فلبثت عند زوجها لفترة عُدّت طويلة دون أن تنجب. وبسبب الوعد الذي قطعه الملا غلام لحسين حدثت قطيعة بيته وبين أخته الكبرى التي هجرتهم واسرتها إلى مدينة مندلي حيث أهل زوجها، بعد أن رفض تزويج قسمت لابنها لكي لا يحنث بوعده. هذه القطيعة أيضاً لم تعكّر صفو حياته الهادئة، فكل ما لا قدرة له على إصلاحه يلقيه

خلف ظهره دون ندم ويمضي قدماً في حياة يسيرها بقدر ما يستطيعه من توازن. حتى حظ ابنته الثانية فرصت المسكينة التي تأخر زواجها من رجل يكبرها بعقدين بسبب موت عمها، لم يجعله يفقد توازنه، فحمد الله على مصيبة الموت وتعوذ من الشيطان ثم قرر أن يؤخر زواج ابنته حتى يمرعام كامل على وفاة أخيه الشاب الأعزب الذي ذهب فى حادثة سخيفة لا تستحق أن يفقد أحدهم على إثرها حياته. وبالرغم من انه كان حريصاً على أن تتزوج بناته في سن مبكرة، إلا انه لم يكن من النوع الذي يبغض الإناث أو يستثقل وجودهن، بل كان يفضلهن على ولديه مصدق وموفق اللذين دائماً ما ردد أنهما دون نفع ولا يحسنان سوى الشقاوة والأذى والحديث بالعربية فيما بينهما حيث التقطاها بسرعة من المدرسة، بينما كانت بناته يلكنها بصعوبة لقلة اختلاطهن ولرفض الأب فكرة تعليمهن. ولم يتضايق الملاّ حين ولِدت له بنت بعد ولديه ليزيد عدد بناته إلى ثلاث حتى ذلك الحين، بل أنه قرر كسر سلسلة أسماء البنات ذات التاء الطويلة التي كانت زوجته بدرية على وشك إكمالها وفضل أن يطلق على طفلته الجديدة آنذاك إسم «پري» ويعني الملاك، بدل إسم «عِزّت» الذي اقترحته زوجته.

في ذلك الصباح الشتوي لم يكن الملاّ غلام ليعلم أن حياته ستخرج عن سيطرته ولن يعود بإمكانه إعادتها إلى ما كانت عليه من هدوء وبساطة. لأول مرة في حياته يغير من عاداته الدائمة فلم يحدث أبداً أن عاد من الخان في نفس طريقه بعد دقائق قليلة لكنه عاد يومها مهرولاً يتنفس بصعوبة ويشهق مع كل خطوة مردداً بكرديته البغدادية المبسطة والتي كانت مع الوقت قد فقدت الكثير من لكنة الأجداد الأصيلة:

- طين وحلّ فوق رؤوسنا.. أية مصيبة!

الطين الذي تلطخ به الرؤوس كناية عن سوء الحظ والبخت العاثر

والمصائب المتعاقبة لم يكن ليكفي رجلاً كردياً يعد الموت الطبيعي لقرابته عاراً يصعب محوه، فما بالك بعار ابنة قفزت إلى الموت بنفسها ولم تكتفِ بذلك بل أخذت معها أرواح طفلين وجنين لم ير النور بعد.
أي عار أيها الكردي الذي تُلمز وتُعيّر بموت أبيك إذا ما مات ميتة ربه.
بأي عار سيعيش معك لينغص حياتك هذا الانتحار سيء الصيت!

الفصل الثاني

لم تكن الدار التي تقع في الدربونة الضيقة في واحدة من درابين «الدهانة» هي الوحيدة التي زارها شبح لكنها الوحيدة التي زارها شبح قسمت بالذات، فبقية البيوت في المنطقة كان قد تعود سكانها على مثل هذه الزيارات غير المحببة من أهل العوالم الغيبية. وكان يتردد في المنطقة أنها كانت مأهولة سابقاً بعدد من الأسر اليهودية قبل أن يهجروا وأيضاً عدد من طائفة الغدايدة المسيحيين الذين انتقل أغلبيتهم منها إلى مناطق أقل شعبية في بغداد، فحل محلهم كرد فيليون وعرب من أصول غير بغدادية. وقيل إن الغدايدة واليهود كانوا سبباً رئيسياً في جلب الأرواح والأشباح إلى المنطقة بعد أن دفنوا بعض موتاهم في أحواش الدور لكي يبقوا على مقربة منهم، فامتلأ الحيّ بسكان غير مرئيين وظواهر غريبة.

ولم يكن شبح قسمت هو الوحيد الذي يزور دار الملاّ غلام علي، فقد سبق لأمها بدرية أن صادفت رجلاً فارع الطول يخرج من المطبخ في طريقه إلى الحمام، كان يضع على رأسه «چراوية» ويرتدي صديري بلون السُكّر على دشداشة بيضاء. ويبدو أن الشبح تفاجأ هو الآخر لوجودها، لأنه أخفى وجهه بكفه وحثّ خطاه نحو الحمام وغاب فيه. وقد انتظرته بدرية لبعض الوقت دون جدوى ثم استجمعت شجاعتها

وأطلت برأسها في الحمام لتجده خالياً. حينها أخبرت قَيم عمّا رأت فردت الأخيرة ببرود في محاولة للتسرية عنها:

ـ وأي بيت لا تكثُر فيه الملائكة؟

حتى الصغار كانوا على علم بالظواهر الغريبة دون أن يكترثوا كثيراً لها سيما وانها لم تكن فجة، اذ لم تكن سوى تقاربات طفيفة بين العالمين. كأن يخطف شبح أمامهم أو يطلب منهم حاجة فيلبونها ليختفي بعد ذلك بالسرعة التي ظهر بها. وحدها شازي كانت تسبب لأهل البيت الربكة كلما حدث وسمعتهم يذكرون الأشباح، رغم أنها الوحيدة التي لم تقابل شبحاً بنفسها ولم تشهد أياً من الحوادث الغريبة كضياع السكاكين ثم ظهورها في سطح المنزل أو قرقعة الأواني فجراً، وقد كان نومها عميقاً فلم تكن تسمع أصوات الدق والغناء والرقص التي تصدر بين الحين والآخر ليلاً. لكنها كلما استمعت لأهل الدار وهم يتندرون بالطرائف التي كانت تقابلهم يومياً تهب مرتعدة وهي تمصمص شفتيها وتردد آيات قرآنية وتمسح على جسدها، وأحياناً كانت تصر على أخذ زوجها معها كلما أرادت دخول الحمام، وحرصت دائماً على الآ تنام وحدها مطلقاً حتى في أثناء قيلولة ما بعد الظهر. وبعد أن تكرر ظهور قسمت لپري ثم فرصت ثم أخيراً قَيَم، وصل الخبر إلى بدرية التي هبّت من مكانها فرحة بعودة ابنتها إلى الدار ولو على شكل شبح، وصارت تقلب وجهها الذي ذبل من البكاء وقلة النوم في الغرفة كأنها سترى قسمت معلقة في السقف أو مصلوبة على الحائط. ثم حين هدأ روعها ومسحت دموعها التي ذرفتها بين فرِحة ومنهكة من الحزن والعزلة التي فرضتها على نفسها، قالت لها قَيم وهي تتحسس جسدها:

ـ كأن في جسدي رجفة لا تهدأ.

بحلقت بدرية فيها بعينيها الدامعتين:

ـ وهل أنت خائفة؟

ـ لا أخاف الأشباح، رغم انه يحدث أحياناً أن أصاب بالقشعريرة حين أفكر فيها. ما يخيفني أمر آخر. ألا يقال إن الأرواح التي لا تبرح دارها تجلب الخراب والنحس؟

قالت قَيَم ذلك وأخفت في نفسها حقيقة خوفها وهو أن روح قسمت بالذات هي روح لفتاة منتحرة قتلت معها أطفالها وهو ما سيجعل النحس المنتظر يتفاقم تأثيره عليهم جميعاً كما كانت تعتقد. لكن بدرية ردت ببساطة دون أن تشعر بلمحة إهانة أو حتى تستنكر صراحة قيم:

ـ إنها ليست سوى قسمت! ما من داع للخوف. متى كانت المسكينة مؤذية في حياتها لتؤذي في مماتها. إنها حكمة الله الذي رأف بحالي وأعادها لي.

غير أن قلق قَيَم لم يخف حتى وهي ترى زوجة أخيها تقوم من رقدتها الطويلة في الغرفة القَصيّة وتعود بنشاط لحياتها، فنقلت قلقها هذا إلى جارتهم المسيحية أم تيسير التي طمأنتها من أن أشباح المنطقة مسالمون وها هم أمامها لم يحدث لهم أي سوء، وأنهم حدث أن رأوا بعض أمواتهم بأنفسهم من أولئك الذين دُفِنوا في فناءات الدور. ثم قادت أم تيسير قَيَم من يدها في صباح أحد الأيام وأرتها كيف ان الأشباح تعبّد الطريق أمام ابنها تيسير كل يوم، فيجد أمام دراجته التي يعمل عليها دفة باب مخلوعة يعبر منها فوق الدرجات المكسورة المؤدية إلى فنائهم، تختفي حين يرحل ويعود فيجدها أمامه.

ورغم هذه التطمينات ورغم أن قَيم كانت واحدة من أكثر أهل الدار شجاعة في مواجهة الأشباح التي تشاطرهم المنزل إلا أنها بقيت على

خوفها من أن تسكن روح قسمت الدار إلى أجل غير مسمى، وحين عبّرت عن ذلك أكثر من مرة أشارت عليها شازي بأن تزور «پرگه» بنفسها مؤكدة ان الحل لا بدّ عنده.

لم تكن قَيَم قد استعانت پبرگه البصّار من قبل على الرغم من احتمالية أن تكون زبونة مناسبة جداً، ربما لأنها كانت راضية بحياتها ومقتنعة بمصيرها عن طيب خاطر. إذ دام زواجها خمس سنوات فقط لتكتشف في نهايته أنها عاقر، وقد آلمها ذلك في حينها لكنه لم يترك أثراً طويل الأمد فقد تمكنت بقليل من الرضا تجاوز أزمة كهذه وكأنها حادث عارض، سيما وانها كانت تتعامل مع قلة حظها كحقيقة طبيعية واعتيادية مذ ولدت بنتاً ثانية بين إخوة عدة من الذكور وأخت واحدة كلهم كانوا يفوقونها جمالاً بينما ولسخرية القدر منها فقد فارقها الجمال كلياً. كانت طويلة ونحيفة ليس في جسدها أية انحناءة انثوية تذكر. من يتمعن في ملامحها سيستغرب أن كيف تجمعت في شكلها كل تلك الصفات المتنافرة، من صدر ممسوح وأنف طويل وعينين غائرتين وشعر باهت ليس له صفة محددة فلا هو مجعد أو منساب، كما انه لم يكن داكناً أو بنيّاً مشقراً مثل شعر إخوتها. في طفولتها كثيراً ما سمعت الناس يتساءلون مستغربين عن هذه الصغيرة التي هي أشبه ببطة سوداء وسط هذه الأسرة وكيف تكون من نسل جهانگير الوسيم المربوع، فكان يجيء الرد بأنها تشبه كثيراً جدتها لأبيها التي اشتهرت بحظها العظيم رغم جمالها المتواضع إذ تزوجت من جيني المقرب من الوالي آنذاك والَحسن الوجه ذي العينين الزرقاوين الداكنتين كزرقة البحار الهادئة. وقد هاجرت معه إلى بغداد المدينة الكبيرة والرائعة حيث عاشت عيشة تعد ملكية بالمقارنة مع قريناتها اللواتي سحقتهن الحياة في القرى والجبال المنسية. غير أن قَيَم لم تملك حظاً مثل حظ جدتها وتطلقت في سن

صغيرة وحرمت من الحياة الزوجية كما حرمت من الأولاد، لكنها ولجت عقدها الرابع مؤمنة ان لو كان في الزوج والأولاد سعادتها لكان قد جعلهم الله من قسمتها. فكانت قانعة بعيشتها في هذه الدار الكبيرة التي تضمهم جميعاً، وقد حرص أخوها الملاّ على مكانتها فجعل لها كلمة مسموعة وأثراً محترماً فلم تشعر قط أنها زائدة عن الحاجة أو غير مرغوب فيها. وعلى عكس ما تعودت من نفسها، اقتنعت قَيَم أخيراً أن زيارة پرگه باتت أمراً حتمياً لسلامة أسرتها وحفظهم من المهالك والأخطار. فبعد ان غسلت صحون الغداء في ذلك اليوم وضعت عباءتها وخرجت، سائرة بين الدرابين التي تحفظها دون أن تتخذ طريقاً مباشراً حتى وصلت إلى إحدى درابين «باب الشيخ» فلما صارت أمام دار عتيقة ومتينة البناء، طرقت الباب فجاءها النداء الشهير:

ـ منو؟

ردت بالكردية وبصوت خافت: ـ أنا قَيَم.

فتحت الباب شابة بيضاء ممتلئة الجسد، في عينيها نظرات غبية:

ـ خالتك نازارة ليست هنا.

ـ اسأل عن پرگه.

ـ خرج.

ـ أين أجده؟

ـ خرج سارحاً. فإذا ما تعب جلس على القهوة التي في نهاية «العگد».

حثّت قَيَم خطاها وألقت بصرها ناحية القهوة فلم تجد له أثراً وكانت قد قررت بعناد ألاّ تعود دون لقائه. لكنها لم تكن ترغب في دخول بيت خالتها لتنتظره فيه، فهي تفضل أن تتم أمورها بسرية ودون حاجة

التوضيح لأحد سبب رغبتها في لقاء البّصار برگه الذي كانت خالتها نازارة قد سمحت له بالسكن في غرفة صغيرة قصية من حوشها الكبير من دون مقابل.

وآثرت قَيَم ان تمضي الوقت في زيارة واحدة من معارفها في باب الشيخ لحين عودة «برگه» من جولته اليومية التي يدور فيها على بيوت من يعرفهم ليلقي عليهم بتنبؤاته ومواعظه التي يستلهمها جميعاً من غيب ولج إلى عالمه فجأة وفي واحدة من الحوادث الشبيهة بالقصص الخيالية. فقد كان «برگه» قبل أن يصبح بصّاراً رجلاً عادياً يتنقل بين بغداد وزرباطية وبدرة وحتى إيلام وخرم آباد، متابعاً تجارته التي كانت في حينها قد بدأت بالتوسع. وكان له أبناء وزوجة وحياة طبيعية كما عُرف بكونه جاد في عمله محب للكسب وجمع المال، حتى صادفته حادثة غريبة في واحدة من رحلاته إلى پشت كوه، حيث انهارت صخور الجبل تحت قدميه فجأة فسقط من علٍ وقيل أنه مات أو شبه فارق الحياة ولبث جسده مسجىً في العراء على الصخور الصلبة لثلاث ليالٍ بينما روحه تحوم حول الجسد عبثاً تحاول العودة إليه. وفي أثناء هيام روحه قابلت مجموعة من الجن فعقدوا معها صفقة حيث اشترطوا أن يخدمهم برگه مقابل أن يساعدوا روحه الهائمة على العودة إلى جسدها قبل أن تفارقه تماماً وتنتقل إلى الموت. وكانت هذه الرواية هي الأكثر تطرفاً وتصديقاً من الناس. أما الرواية الثانية فتقول انه حين سقط ارتج دماغه فحدث فيه عطبٌ فجُن على إثره وصار ما صار إليه. لكن لا أحد يحبذ هذه الأخيرة سيما وان برگه قد عاد من الموت ليتحول إلى بصّار يلقي بحكمة وبلاغة عضات وتنبؤات غالباً ما كانت تصدُق، بعد أن تغيرت حياته تماماً فهجر أسرته وتحول من رجل مكتمل الرجولة إلى خنثي، بمظاهر جنسية صعبة التعريف. فكان بطوله الفارع ونحوله البائن

وشاربه الكث، يتنقل أحياناً بين درابين الدهانة وباب الشيخ وحتى شارع الملك غازي الذي سميّ فيما بعد بشارع الكفاح، بعباءة امرأة يرتديها فوق دشداشته السوداء، فيضعها فوق كتفيه وأحياناً فوق رأسه متمايلاً بغنج كأنه لا يفتعل أنوثته. نصفه رجل ونصفه أنثى ورغم ذلك لم يتجرأ أحد على التحرش بخنثى مثله، فالأشباح والجن وما يحيطه من غموض وقصص خيالية كانت تبعد عنه المعتدين والطامعين. وحتى القطتان اللتان كانتا تظهران معه دائماً قيل إنهما جنيتان تحميانه وتشيران إليه بأغلب ما يصدر عنه من تنبؤات، وكان پرگه يُطلِق عليهما إسم «شيرمينا» و«نيرمينا» ويكلمهما علناً أمام الناس ثم يتوقف للحظة كأنه يسمع ردودهما على كلامه ليسترسل بعد ذلك في مخاطبتهما، بل ويبكي أحياناً منهما مدعياً أنهما تؤذيانه وتثقلان عليه بأوامرهما. ويتناقل الناس الحادثة التي روتها «نازارة» وهي تضحك واحدة من ضحكاتها النادرة، من أن پرگه خرج في ظهيرة أحد الأيام من غرفته صارخاً ليقف في فناء الدار باكياً وهو يستحلف القطتين ان تتركانه وشأنه. لكن كلاً من شيرمينا ونيرمينا مشتا إليه بهدوء وإصرار دون أن تحفلا بتوسلاته حتى وقفت واحدة قبالته بينما الأخرى خلفه فتحرك من مكانه صاغراً لتسير معه القطتان كأنهما تقودانه إلى الغرفة وأُغلق الباب خلفهم، ثم سُمعت أصوات ضرب وصفع ولَكم من بينها صوت پرگه باكياً متوسلاً، ليخرج بعدها بكدمات واضحة وبعينين مزرّقتين من آثار المعركة. ولم يُعرف أبداً ما إذا كانت القطتان هما الفاعل أم ان أشباحاً أخرى ظهرت لتؤدب پرگه المسكين الذي لا حول ولا قوة له أمام جبروتها.

حين تقدمت قَيَم من پرگه في قهوة تعج بالرجال وهي تغطي نصف وجهها بعباءتها لم يستهجن أحدٌ إقترابها من قوقعتهم الذكورية تلك، فإن تقترب إمرأة من پرگه يعني أنها بحاجة لمساعدته، وهو أمر يتقبله

الناس سيما وانه خنثي لا تثير كثرة اختلاطه بالنساء وسماع مشكلاتهن ريبة أحد. وقام هو ليستقبل قَيَم مباشرة حين فهم أنها تبغيه. أخبرته بمخاوفها فطمأنها بأنه سيزورهم بنفسه.

* * *

في اليوم التالي، قرابة الضحى طرق پرگه الباب طرقة بالكاد تسمع ودخل دون أن يُعطى الإذن بالدخول، وكان أمراً اعتيادياً ومقبولاً ان يزور پرگه الدور في أثناء غياب الرجال وان يقتحم المنازل بغتة. بدشداشته القاتمة وعصابة الحَبَر السوداء التي يلفها حول رأسه وقامته الفارعة كان يبدو مثل خيالٍ متحركٍ للموت. وقف عند رأس شازي التي كانت جالسة في الحوش تغسل أطباقاً عند المجرى، فشهقت شهقة خفيفة لمّا رفعت رأسها لتُفاجأ به ثم قالت مرحبة وهي تنفض يديها:

- خوش هاتيد عزيزگم (أهلاً بك أيها العزيز).

على عكس ما تعود الناس من معاملة شازي غير المبالية والخالية من الاحترام إلا أنها كانت تحترم وتهاب پرگه على وجه الخصوص، إذ كان لنشأتها في دار نازارة فضل في علاقتها الودية به، وقد عودها على الاستفادة من تعويذاته التي يصنعها لها دون مقابل فلم تكن تدفع له نظير خدماته على أن يبطِل مفعول سحره سريعاً.

- اعطيكِ الخرزة لكن أعيديها آخر المساء برضاك، وإلاّ أتتك كلٌ من شيرمينا ونيرمينا وقطعتاك إرباً واستعادتا الخرزة أينما تكونين قد أخفيتها.

وبالرغم من الجرأة التي عرفت بها شازي إلا أنها كانت أجبن من أن تخالف تعليماته وأذكى من أن تعادي أو تبارز الجن والعفاريت، بالإضافة إلى أن پرگه لم يسبق ان رفض لها طلباً من طلباتها المجانية

التي غالباً ما كانت بسيطة حتى ذلك الحين. خرزة لجذب أعين الرجال، أخرى لإثارة غيرة بنات المنطقة. خرزة لجذب رضا إليها ومصالحته، وخرزة أخرى لإبعاد أشباح دار الملاّ عنها. نادت شازي على قَيَم فجاءت الأخيرة مسرعة وغطت رأسها بفوطتها ما ان رأت الرجل. رحبت به وهي تبحث عن عباءتها بعينيها. بكسل وشبه ميوعة، دار پرگه ببصره مستكشفاً، فوقعت عيناه على فرصت التي اختبأت خلف قَيَم. حرك يده قائلاً:

ـ لماذا أخرتم قسمة الفتاة؟ زوجوها قبل أن يطرأ حزنٌ جديد.

وأكمل متمتماً بنبرة متعالية:

ـ التأخير لن يغير المكتوب.

ثم تقدّم نحو المطبخ بقامته الفارعة النحيلة وقَيَم وشازي من ورائه بينما اتكأت فرصت على الحائط وبجانبها پري ومريم يتابعن الموكب بنظرات فضولية. حين دخل كانت شيرمينا رابضة عند شباك المطبخ من الخارج وطالعت پرگه بنظرة كسولة ثم تثاءبت وفهمها هو للتو. فأسرع نحو زاوية المطبخ ولمس الجدار بكفه ثم قال:

ـ هنا، هذا مكان روح ابنتكم. هنا مقرها في هذه الزاوية بالذات حيث تلج إلى الدار.

ـ ماذا تريد منا؟

تمتمت قَيَم. فالتفت إليها بجسده كله:

ـ إنها خائفة.

سمعته بدرية التي وقفت مستترة خلف باب المطبخ من الخارج وراحت تنوح بصوت متقطع وتضرب على صدرها فأسرع قائلاً:

ـ إنها بخير حيث هي، لكنها خائفة وقلقة عليكم أنتم.

همست قيم كأنها لا تريد لبدرية ان تسمع:

ـ أخي، أرجوك حصن الدار، فلا تعود روحها تحوم فيه.

ـ روح المسكينة لا تُقلق. القلق والخوف من المكتوب.

لم تلتفت قيم لجملته في خضم قلقها وقالت مصرّة:

ـ كيف لا أقلق من روحها؟ ألم ترَ ما حلّ بجيراننا اليهود الذين ساكنوا أرواح موتاهم. ألا تذكر كيف عُذِبوا وفُرهدوا ثم شُردوا وهُجروا. وأينما حلوا حلّ بهم الخراب.

ألقى پركَه نظرة سريعة على مكان شيرمينا التي كانت قد اختفت ثم قال:

ـ أختاه، المكتوب نفذ. ما حيلة پركَه المسكين أمامه؟!

ثم لما وجد قَيَم تلح عليه طمأنها بأنه سيعطيها خرزة تحمي الدار من الشرور، وكان في الحقيقة سيعطيها خرزة لكي تهدأ وتستكين وتسلّم بالقضاء. ثم همهم بكلمات مبهمة على خرزة كبيرة وهو يفركها بكفه ناولها بعد ذلك لبدرية وأخبرها أنها لحماية أولادها ولكفايتهم جميعاً من الشر والحسد. وكانت الخرزة في الواقع ليست سوى تعويذة للصبر والرضا بالمكتوب. دفعت المرأتان له بسخاء وصبت له بدرية من طعام غدائهم لذلك اليوم في «سفرطاس» تناوله منها دون أن يبدي شكراً، وقبل أن يرحل أشار إلى فرصت بسبابته ونظر إلى قَيَم نظرة فهمتها. ثم تلفت كأنه يبحث عن شيء لتصطدم عيناه بشازي وكاد ان يقول شيئاً لكنه أمسك واكتفى بهز رأسه بأسف. ولبثت هي تقلب عينيها الكبيرتين وقد أخرسها الخوف من نظرته غير المفهومة، متهيبة شبحاً سيطلع من جيب دشداشته السوداء فجأة ليصفعها على فعلة ما ثم يختفي.

* * *

على غير عادة نساء الدار كانت شازي تجيد العربية على نحو جيد، ففي صغرها تعودت ان تتنقل بحرية بين بيوت الجيران من غير الكرد والبيات عندهم بين الحين والآخر، فقد كانت يتيمة الأم ووحيدة والدها العجوز الذي كان ما يزال حتى ذلك الحين يمارس مهنة البناء بكفيه المعروقتين وقد تقوس ظهره من أثر حمولات الطابوق التي كان ينقلها في السابق على ظهره.

اكتسبت شازي هذه الحرية المترفة مقارنة ببنات جيلها بشكل يثير العجب، سيما وانها قد نشأت في دار نازارة الخالة الكبرى للملاّ غلام علي والتي عُرفت بأنها كانت ترعى أبناء أختها المتوفاة وإن كان ذلك يحدث عن بُعد، إذ لم تُظهِرالمرأة عطفاً أو رعاية شاملة غير أنها بين الحين والآخر كانت تملي عليهم أمومتها الصارمة الخالية من العواطف الجياشة والحنان المفرط. ولذلك كان من المستغرب ان تكون شازي تحت رعايتها المزعومة.

وقد كانت نازارة وهي تلك العجوز التي شارفت على السبعينيات من عمرها، تبدو رهيبة بمظهرها الحازم الذي اكتسب شكل حدادٍ مستمر بعصابة رأسها السوداء التي كانت تربطها على مدار العام وثيابها القاتمة التي لم تغير من لونها أبداً ثم إنها نادراً ما كانت تُرى منبسطة أو متبسمة. وكان حزمها وقوتها مبعث إكبار وإجلال، فلم يكن أحد ليتجرأ على رد كلمتها أو التعاطي معها إذا ما أصدرت أمراً، بمن في ذلك رجالات مجتمعهم الكردي المصغر المنتشر بين درابين بغداد. أما أولادها الستة «أسودها» كما كان يحلو لها تدليلهم، أو «قططها المبللة الهلوعة» إذا ما أحبت تقريعهم، فهؤلاء لم يكن نصب أعينهم غير الرغبة في إرضائها، حتى ان الناس كانوا يتهامسون فيما بينهم عن إمكانية ان تستخدم نازارة قدراتها حتى على ابنائها، فلم يكن أحد ليستوعب هذا البِر المبالغ فيه

ومنهم من قد انتصف عقده الخامس. كثر الحديث بين الناس عن قدرات نازارة التي قد لا تكون خارقة بالنسبة لجمع ما، إلا أنها استقرت كذلك في ضمير من يعرفونها من كرد بغداد، فكانوا جميعهم يهابون الغموض المحيط بها فكلهم قد تداولوا في صغرهم القصص العجيبة عنها، وأهم تلك القصص أنها في صِباها خلدت إلى النوم فلم تستيقظ منه إلا بعد ثلاث ليالٍ طوال، حتى ان أهلها أثارهم قلق بالغ عليها وهم يرونها مستلقية على ظهرها دون حراك ووجهها مستقبل الشرق، هكذا دون أية حركة ودون ان تبدو عليها أية معالم للحياة حتى وهم يحاولون إيقاظها عبثاً، فبدت لهم كأنها ميتة أو في غيبوبة. وحده نفسها المنتظم أبقى على أملهم في أن تعود سالمة من نومتها التي طالت، وحين صحت فجأة تلوّت في فراشها ومدت يدها الرقيقة إلى رأسها مرددةً مرات عدة بأنه يؤلمها بشدة. ثم قامت على حين غرّة لتقف في وسط الغرفة بدشداشتها البيضاء التي بدت فضفاضة على جسدها الضئيل، وقد صار وجهها النحيل الغائر العينين ينضح عرقاً بارداً. جالت بعينيها في الغرفة لثوانٍ ثم اتجهت مباشرة إلى القرآن الذي كان قد وضع على الرف للتبرك، فلم يكن أي من أهلها قد تعلم القراءة والكتابة. تناولته وفتحت صفحة منه ثم صارت تقرأ الكلام الذي فيه، على مرأى ومسمع من أهلها الذين وقفوا مشدوهين يراقبون ابنتهم التي ذهبت إلى النوم قبل ثلاث ليالٍ أمية تماماً ولا تكاد تنطق العربية. وفي مثل تلك البيئة الأمية كانت هذه الحادثة كفيلة لتزكية نازارة واعتبارها ولية من أولياء الله الصالحين، إذا ما نطقت كان كلامها حِكماً وإذا ما أخطأت في معالجة أمر إعتُبر خطؤها صواباً وسار الناس عليه مقلدينها دون نقاش. وبما أنها أصبحت الفتاة الوحيدة التي تقرأ من بين أبناء جيلها لا سيما وأنها قد تعلمت ذلك بمعجزة، فقد بات يُنظر إليها على أنها الفتاة التي هضمت

علوم الأولين والآخرين، وصار الناس يحجون إليها طالبين مساعدتها وناشدين رأيها وحكمتها في شتى مجالات حياتهم. وحين تزوجت نازارة كان زوجها ظلاً لها، مغموراً بشعاعها الساطع فلم يكن ليكاد يُرى أو يحس وقد غادر الدنيا سريعاً ما ان انتهت مهمته بجعلها أُماً لستة رجالٍ سيملأون فراغه الذكوري الذي لن يكون موحشاً تماماً. أما مسألة إنجابها لستة ذكور دفعة واحدة فقد كانت تلك الأخرى مبعث إعجاب الناس وانبهارهم لأنهم ظنوا ان لها القدرة على التحكم في جنس الجنين الذي في بطنها ربما لأنها كانت معروفة ببغضها للإناث وكانت تردد بجسارة أنها لن تنجب سوى الذكور فهي لم تكن لتخجل من إبداء احتقارها للنساء، حتى أنها في سرها لم تكن تستثني نفسها وان لم تفصح بذلك كثيراً، لكنها دائماً ما تمنت لو أنها خلقت رجلاً مواسية نفسها بأنها كانت لتفعل الأفاعيل. وكلما كبرت نازارة زادها العمر هيبة ووقاراً وزاد من احترام الناس لها سيما وأنها كلما كاد الناس أن ينسوها وقد انغمسوا في مشاغل الحياة تعود لتذكرهم بنفسها بنبوءة تجعلها تسري على لسان النسوة لأيام ثم ما تلبث ان تَصدُق، أو بقدرتها العجيبة على شفاء مريض كاد اليأس يقضي على أهله ومحبيه.

في بيت هذه المرأة تربت شازي بعد وفاة والدتها التي كانت تقوم على خدمة نازارة بين الحين والآخر، وقد رأف القلب الصلد في صدر المرأة العجوز بالطفلة اليتيمة، فأمرت الأب ان يغير مكان سكنه ليسكن في دارها ولتكون شازي تحت رعايتها، إذ ان نازارة كانت ترى الوالد المنهك الكبير السن وقد شارف على توديع الدنيا فتشعر بالشفقة على الصغيرة من أن تترك بلا أهل أو سند. وفي ذلك الحين لم تكن شازي ووالدها الوحيدين اللذين افرغت لهما نازارة غرفة في دارها الواسعة التي لم تكن لتسمح ان يستأجر فيها «نِزل» كما في باقي الدور الكبيرة. وفي

الغرفة القصية التي كانت في ما مضى مخزناً لخردة وأدوات غير مستعملة كانت تحتفظ بها العجوز لسنوات قبل أن تفرّغها وتشرف على تنظيفها بنفسها لتسكن البصّار «برگه» بعد عودته من الموت، حيث أرسلت أحد أولادها في طلبه ما إن سمعت بقصته العجيبة، وكانت بها رغبة قوية في أن يبقى هذا الرجل تحت عينيها سيما وأنه عاد إلى الحياة وفقد الأهل والمأوى. بالإضافة إلى الغايات الكثيرة التي في نفسها، فإنها دائماً ما كانت رفيقة بمن لا سند لهم وتعتبر نفسها والنعم التي غمرها الله بها سبباً ووسيلة لرعاية المحتاجين والمتضررين، فكانت دارها مفتوحة دائماً لهم. ثم إنها لم تكن بحاجة إلى المال لكي تؤجر الغرف في دارها ولم تشعر بالوحدة لتفتقد الصحبة، فأولادها جميعهم يحتلون غرف الدار الكبيرة هم وزوجاتهم وأبناؤهم كما أنهم منتشرون في أكثر المناطق حيوية في سوق الشورجة وصيتهم يسبق صيت تجارتهم الناجحة فهم أولاد نازارة ويعرفون باسمها، غير أن شازي كانت الوحيدة التي لم تكن تهاب نازارة في هذه الدار الواسعة، فكبرت وكبرت معها مشاغباتها وعبثها. ولعلها لم تكن كذلك من واقع كونها تود المجاهرة بعنادها ومواجهة المرأة العجوز الرهيبة حباً في التجاوز وإمعاناً في الصلافة. إذ لعلها لم تعدُ كونها غير مبالية وغير واعية للعواقب. أما نازارة فكانت قد اكتشفت ذلك في الطفلة اللاهية وعرفت بحكمتها أنها لا تقصد عنادها بقدر ما هي غير متنبهة لاحترام المربي والرقيب فهي في نهاية الأمر مجرد طفلة وحيدة ويتيمة تكبر دون أم لتوجه تصرفاتها. ولم يكن العطف أو الأمومة المفرطة من صفات نازارة الثابتة فكانت رغبتها في تأديب شازي تروح وتجيء بحسب مزاجها المتقلب، ثم ان العجوز لم تكن لتخفي أمام نفسها عدم اكتراثها للطفلة كونها ليست ذكراً جديداً يمكنها تبنيه واتخاذه ابناً سابعاً، فلماذا يا ترى

تعاند حظها السعيد بجعل نفسها وهي في أراذل العمر أماً لبنت! وهكذا كان عدم اكتراث نازارة لشازي وتنقلاتها بين الدرابين والبيوت قد سمح للأخيرة بتطوير مهارة غير مسبوقة في اللغة العربية بين جيلها من بنات ملّتها وقد ساعدها ذلك في التعرف على ما كان يخفى عنها في البيوت العربية والمسيحية المجاورة ففتحت عينيها على دُنى جديدة بعيداً عن بيت نازارة الذي يسير بالأوامر ويعد عليها اللفتة والضحكة. في بيوت المسيحيين أكلت كبتهم اللذيذة التي تختلف في شكلها وطعمها عن تلك التي تصنعها كناين نازارة كما وتعلمت أيضاً كلمات من لغتهم الآثورية وحفظتها بسرعة ثم صارت تستخدمها بسلاسة وخفة لا سيما في لعبها ومشاجراتها مع أبنائهم. صلّت معهم ورسمت صلباناً على صدرها وركعت للعذراء وخشعت كما لم تفعل من قبل وباتت تميز نساءهم عن باقي النسوة في المنطقة من مشيتهن الحذرة البطيئة، ولفتاتهن اللا مبالية غير الفضولية.

مع جيرانهم العرب تعلمت لف الكليجة ورصها في الصواني بينما كانت النساء يقطعن الوقت بالنميمة وبأحاديثهن عن الرجال والضحك والهمهمة وأحياناً سرد بعض التفاصيل الحميمة التي لم تكن شازي حتى وقت قريب من ذلك تعرف ماهيتها. تعلمت أن الضحك والتسلية وأخذ الأمور بأريحية هي أمور محللة وان زينة النساء داخل البيت هي أمر محبب ومطلوب، مقارنة بما كانت تراه من بنات مِلّتها اللواتي كن يكتفين بجمالهن الطبيعي وانوثتهن الصلبة ونظراتهن الصارمة الخالية من الميوعة، معتبرات أن كل ما يلهيهن عن مسؤولياتهن الحياتية ضرب من ضروب الترف والرغبة الجشعة في الدنيا وهو ما لم يكن مقبولاً في عرفهن فهن لم يتربين على التعامل مع الحياة وظروفها الصعبة بمثل هذا الاستخفاف. بخروجها من محيطها الضيق وعالمها المحدود فهمت

شازي وفي سن صغيرة ما لم يتعلمه الكبار في سنوات طوال، فقد عرفت أنها لم تخلق لتبر الناس على حساب رغباتها، فصارت التحذيرات الكثيرة والنصائح التي تتلوها نساء الدربونة على مسامعها لا تستقر في نفسها أبداً، أذ أنها تنبهت بفطنتها وهي بعد في الثانية عشرة أنهن ينصحنها بحسب قوانينهن وما تمليه عليهن مجتمعاتهن الصغيرة التي ينتمين إليها، كلٌ حسب عرفها. فكانت تكتفي بالاستماع مبتسمة نصف ابتسامة ظريفة وقد حفرت غمازة عميقة خدها الأيسر.

وما ان بلغت شازي مبلغ النساء حتى اكتملت أنوثتها بشكل مدهش لم يكن ليناسب سني عمرها الفتية، فقد كانت جميلة جمالاً مثيراً على عكس الفيليات اللواتي اشتهرن بجمالهن الهاديء، فعيناها كبيرتان أكثر من المعتاد وبشرتها بيضاء قريبة من الصفار. وكان لها شعر أسود وأنف مدور وخدان منفوخان وجسد فيه كل المواصفات الأنثوية المثيرة من مؤخرة عالية لثديين مكتنزين عرفت بسرعة كيف تستثير بهما رجال المنطقة في أثناء غدوها ورواحها. وكلما كانت شازي تكبر أمام عيني نازارة كان يتضح للأخيرة فطنتها وذكاؤها اللذان لم تكن نازارة لتعتبرهما أمرين محببين ولم تكن أبداً لترحب بمثل تينك الصفتين في فتاة بعمر شازي. ومع الوقت بانت أيضاً رغبة الفتاة الجامحة في الحياة وحبها الظاهر لذاتها ولجمالها واهتمامها بجسدها وعزز ذلك اكتشاف نازارة مكحلة صدئة وإصبعاً لأحمر شفاه مخفيين تحت مخدتها، كانت قد أعطتهما لها إحدى الجارات. بالطبع، لم يرق كل ذلك للمرأة التي تحتقر في النساء حتى وجودهن وتستكثر عليهن الحياة، فارتأت أن تزوجها ما ان شبت قليلاً لكي تكبّل برجل وأطفال ومسؤوليات، فتنسى مع الوقت الرغبات والطموحات التي تعلمتها في درابين باب الشيخ. وكان رضا الأصغر من أبناء أختها الراحلة حاضراً في ذهنها كعريس منذ

زمن، بالتحديد منذ جاءها أخوه الأكبر غلام علي طالباً مشورتها في حال أخيه الذي كان يقلب الليل نهاراً والنهار ليلاً فينام لأوقات طويلة من النهار ويقضي الليل في سهر، وغالباً ما يذهب إلى العمل وهو مخدر بالتعب والإرهاق وحتى انه لم يكن منجزاً في الأعمال المختلفة التي كان الملاّ يوكلها إليه، ففشل فيها جميعاً. كان رضا قد تجاوز الثانية والعشرين بقليل وبات ذلك الشاب الذي تربى مدللاً على يدي قَيِّم والملاّ معاً، وصار متعوداً على ذلك النمط الحياتي الخامل الذي صعّب من مهمة أخيه في جعله رجلاً متحملاً للمسؤوليات في مجتمع لا يُحترم فيه إلاّ الرجل العامل. اما الملاّ فكان في دوامة لا يقدر على الإفلات منها فقد تعود هو الآخر على هذا الأسلوب في المعاملة والتدليل المفرط حتى أنه بدأ في ممارسته مع ولديه أيضاً. لكنه كان يسوغ ذلك بينه وبين نفسه بان تدليل الابن أمر مختلف فهو أكثر قبولاً وأقل مضرة على عكس تدليل الأخ لأخيه الذي يكون مفسداً لا محالة. ورغم ما كان يتبدى له من ضرر إلا انه كان يحرص على وضع النقود في جيب أخيه رضا ما ان يشعر بحاجته لها. بل انه كان يحرص على شراء لفائف الدخان الخاصة به كلما تنبه لنفادها على الرغم من أن رضا لم يكن يدخن أمامه مطلقاً علامة على احترامه. بعد الكثير من التفكير وفشل محاولات عدة، توقع الملاّ ان لن يحل أمراً كهذا سوى الخالة الكبرى نازارة، وحين نشدها استمعت له بوجوم وهي ترتشف شايها المهيّل وتنظر إلى الأرض دون أن ترمش. بعد أن انتهى سألت نازارة ابن أختها بضع أسئلة عن رضا وما يحبه ويكرهه ولبثت تستمع لأجوبته كأنها سارحة. أخيراً وضعت استكانة الشاي أمامها على الأرض ونادت إحدى كنّاتها لتسألها عن زوجها فردت الأخيرة انه لم يعد بعد.

صرفتها ثم عدّلت عصابة رأسها بيديها المعروقتين النحيلتين:

ـ غلام. أخوك بحاجة إلى عمل غير مرهق لأنه مدلل كالنساء. حتى النساء بعضهن فيها الفائدة فكيف برجل ينام حتى الظهيرة. ماذا تسميه هاه؟ ماذا؟

واستمع الملاّ إلى الكلام الذي يعرفه مسبقاً وهو مطرق، منتظراً حكمها الأخير الذي صدر منها قاطعاً:

ـ سيعمل سائقاً.

رفع رأسه إليها وقبل أن ينطق كانت قد أكملت:

ـ في السفارة الإيرانية.

فالتزم الملاّ صمته يستزيدها.

ـ لقد تعلّم كيف يقود السيارات اليس كذلك؟ ولدي «نوزاد» له معارف في السفارة فهو يمول احتياجاتهم من الشورجة بنفسه، وسيتوسط له. سيرى عالماً جديداً ويعمل عملاً غير مرهق. يجلس في تلك التي يسمونها السيارة ليقودها، ليس أسهل من ذلك، حتى أنها ليست عربة بحمار لكي يعلفه وينظف برازه. إنه عمل سهل. وهؤلاء العجم لا بدّ وأنهم بحاجة لشخص يفهم لغتهم سيرحبون به.

ولم يطمئن الملاّ لقرارها، خاف من أن يخفق رضا مجدداً وهذه المرة سيخذله أمام جمع من الناس، فهو لم يكن ليظن هذا النوع من الأعمال بالسهولة التي وصفته بها خالته. غير أن نازارة كانت على حق. فقد سعد رضا بالسيارة ومكان العمل وانتظم فيه على غير عادته الملولة، فكانت رغبة المرأة العجوز ان تُكمل عليه سعادته بالزواج. فأمرت الملاّ ورضا بذلك وقد إختارت لهما الصبية مسبقاً وكان ان وافقا دون جدال. حين تزوج رضا من شازي كان الأمر بالنسبة لوالدها صفقة نسب لم يكن ليحلم بها. أصبح الرجل الوحيد الذي بلا عزوة نسيب كلِ

من السيدة المهابة نازارة والملاّ غلام علي، ولم يعكر صفو فرحة البنّاء البسيط سوى عدم إنجاب ابنته لطفل فصارت فرحته الكبيرة تتصاغر مع الوقت ويحل محلها القلق. الكل قلِق من تأخر الإنجاب إلا شازي نفسها، فلم يكن الأمر ليمثل لها أهميةً قصوى، على الأقل ليس بقدر ما كانت مهتمة بمشاحناتها مع قَيَم و«النزل» حيث تسببت برحيل ثلاث أُسرٍ منهم، وأيضاً عراكها المستمر مع نساء الدربونة وافتعالها وطلبها للمشاكل دون مراعاة لقَيَمة أو اعتبار لأحد، فلا النساء الكبيرات ولا الرجال ولا حتى صيت الملاّ يمكن ان يقف في وجهها ويخفف من حدة طباعها. وحين اشتكت بدرية لوالد شازي من تصرفاتها وصلافتها ولسانها اللاذع رد ببساطة أن مسؤوليتها تقع على عاتقهم منذ انتقلت إلى بيتهم زوجة لابنهم ولهم كامل الحرية في التصرف وفي اختيار طريقة تأديبها، ثم إختتم كلامه مستخدماً مثلاً عربياً ترجمه إلى الكردية قائلاً:

ـ لكم اللحم ولي العظم.

اما الملاّ فكان يتسامى بنفسه عن مشاكل النساء رغم شكوى زوجته المتكررة من شازي، وبين الحين والآخر كان يلمّح لأخيه مذكراً ان الرجل القوي هو الذي يستطيع السيطرة على نزق وطيش زوجته بسهولة بفرض احترام لا يمكنها تجاوزه، هكذا يبقي رأسه مرفوعاً بين البقية من الرجال ويحافَظ على بيته من الخراب. وكان رضا يستمع إلى أخيه الأكبر بهدوء وفي نفسه كسرة وضعف، فهو شاب مسالم في طبعه من النوع الحييّ وكان يتجنب المشاكل والمشاحنات أملاً في ان تكف زوجته عنها. وعلى الرغم من محاولاته الدائمة الصمود أمام مشاكل شازي إلا أنه حدث ان سمعها مرة وهو عائد إلى البيت في غير موعده تسب وتلعن وتردد كلاماً جارحاً تطلقه كأنها لا تعني به أحداً معيناً، لكنه عرف أنها تشاجرت مع قَيَم متذمرة من كثرة الأعمال في المنزل ففهم

أنها تعني أخته الكبرى بسلاطة لسانها فدخل إلى غرفتها ثائراً وبرّحها ضرباً حتى سال الدم من أنفها وفمها، ثم أرسلها إلى والدها الذي أعادها في الصباح التالي آمراً بتقبيل قدم زوجها ففعلت باكية مسترضية فسامحها رضا على مضض. وما هي إلا أيام معدودة حتى عادت شازي لعاداتها وتصرفاتها النزقة، وحدها الظواهر الخفية التي في الدار كانت قادرة على إذلالها فما ان تسمع أحدهم يذكر حدثاً متعلقاً بشبح تجدها تقعد في مكانها باستكانة وخوف، وحين اكتشف كل من موفق ومصدق خوفها هذا صارا يتندران ويلعبان بأعصابها.

ـ ميمي شازي، انتبهي خلفك شبح امرأة عجوز وقبيحة.

ـ ميمي شازي، هل سمعت بالشبح الذي ظهر لمصدق. كان جسداً بلا رأس يرتدي عباءة سوداء. ورغم انه بلا رأس إلا انه كان ضخماً وطويلاً جداً.

ـ موفق، احكِ لميمي عن الشبح ذي اللحية السوداء، الذي يجلس القرفصاء في الليل عند باب المطبخ.

هكذا كانا يسخران منها حتى تصرخ بأعلى صوتها مستنجدة بقَيَم لكي تكف عنها الولدين.

* * *

لم يتطلب الأمر الكثير لكي يقتنع الملاّ غلام بضرورة تزويج فرصت في أقرب وقت سيما بعد أن تراجع خاطبها الأول عن الزواج ما ان بدأ الحديث يكثر عن النحس الذي يرافق أسرة الملاّ وبناته بالإضافة إلى قصة انتحار الابنة الكبرى التي لم تكن لتُمحى من ذاكرة الناس بسهولة. ورغم بساطة بدرية إلا أنها دائماً ما كانت مؤثرة في قرارات زوجها بطريقتها البدائية المستكينة، وليس أحب إليها من تزويج بناتها وسترهن

ما ان يشبين سيما فرصت فقد صار من المهم ان تتزوج بسرعة لكي تكسر دائرة النحس التي تطوقهم. ولم تكن بدرية لتهتم لاستغراب الجيران ونميمتهم أو تلك المرأة العربية الجنوبية التي سكنت في دارهم مؤخراً والتي علقت قائلة:

ـ يا خيّة، شنو تعبانين من خبزتها؟ غير تخلص سنوية أختها.

كل ذلك لم يعد مهماً بعد أن أشار عليهم بالإسراع في تزويجها البصار پرگه، ولعل زواج ابنتها سيكون أفضل علاج لروحها المثقلة بالحزن والهم، سيما وان الراحة من همّ البنات والرمي بحملهن الثقيل على كاهل رجل لن تساوم عليه بدرية بشيء. لكن ليست هذه الاسباب مجتمعة هي ما جعل الملاّ يوافق على تزويج فرصت من حاجي النجار تحديداً، حيث طلب يدها في واحدة من قراراته السريعة والطائشة التي نادراً ما ندم على أي منها. فرغم أنه قارب الخمسين من عمره إلا انه لم يكن قد فكر قط في الزواج وحدث ان سأله أحد أصدقائه ممن يجالسونه في القهوة بعد الانتهاء من العمل عن سبب عزوبيته غير المبررة فرد ببساطة وهو يرشف شايه انه لم يكترث للأمر ولا ينوي تغيير نمط حياته بشكل مفاجئ. فعاتبه صاحبه وعرض أمامه الأسباب الكثيرة محاولاً إغراءه وحمله على التفكير الجديّ في الزواج ولم يبدُ على حاجي انه في سبيله إلى الاقتناع حتى ذكّره صاحبه:

- الحق خلفلك شكم ولد يشيلوك من تكبر بآخر أيامك. وين تنطي وجهك بعدين؟

فكانت الشرارة الأولى لما أصبح فيما بعد هاجسه وهو يتخيل نفسه بعد سنوات ربما قليلة عاجزاً عن العمل يجود عليه الناس بطعامه وملبسه. فاتخذ قراره فجأة وعلى استعجال ووقع اختياره على ابنة الملا

غلام علي بعد أن تناهى إلى سمعه أن الملاّ لديه فتاة في عمر الزواج، وكان أن قوبل بترحاب فاجأه. لم ينظر الملاّ إلى عينه العوراء أو يكترث لحالته البسيطة وفارق السن الكبير بينه وبين ابنته، إذ لم يجد فيه عيباً طالما انه رجل كردي يعمل نجاراً ويكسب لقمته من عرق جبينه سيما وانه لم يسمع عنه ما يشين. أما فرصت فقد فرحت لكونها ستتزوج أخيراً مثلها مثل قريناتها وان النحس الذي رافقها سينحسر عنها، ولم يضايقها في ذلك الحين ان الناس كانوا يشيرون إلى زوجها على انه أبوها فكانت ترد موضحة ببساطة:

ـ واي خدا، انه زوجي وليس أبي.

لم تكن فرصت تعلم ان رجالاً في المنطقة التي انتقلت إليها مع زوجها، كانوا يطمعون فيها ظانين أنها لا بدّ بحاجة إلى رجل أكثر شباباً وعنفواناً من حاجي العجوز العبوس الذي يمشي خلفها عاقداً كفيه خلف ظهره منحنياً إلى الأمام قليلاً وغير مكترث لنظرات الناس الفضولية. لم تتعود في بداية حياتها معه على التذمر من طبعه الجلف ولا صعوبة مراسه أو عناده، إذ لم تكن تعلم عن عالم الرجال غير مسؤوليات بيتها وأولادها التي تزداد يوماً بعد آخر والتي ستلهيها لسنوات عديدة فلا تفكر كثيراً في نفسها أو قسمتها السيئة. بعد سنوات طويلة ستترحم على والديها بحسرة وهي تسأل الله ان يسامحهما على قلة وعيهما وعدم مبالاتهما في اختيار الزوج العجوز الكئيب الذي أفنت سنوات شبابها وعمرها برفقته البائسة.

الفصل الثالث

لم يشعر «مامَلي» بحاجة إلى زوجة حتى بدأت رغبته الجنسية تلح عليه بشدة سيما بعد أن تعرف إلى مومسات منطقة «الميدان» وصار يذهب إلى هناك مرات عدة في الأسبوع الواحد. وكان قد تعدى الثانية والثلاثين في الوقت الذي اقتصرت تجاربه الجنسية كلها على هذا النوع من النساء، مذ عرف طريقه إليهن في سن لم تكن مبكرة. كانت هؤلاء النسوة الجديدات نسبياً على المنطقة قد انتشرن فيها منذ مطلع الخمسينيات لكنه لم يكن قد سمع بهن قبل ذلك، ربما لأنه حتى أشهر قليلة من قراره المصيري كان يتردد على غيرهن ولم يصدف أن علم ببيت الدعارة هذا من قبل. وقد اكتشف مامَلي حين زارهن أن هؤلاء المومسات من نوع مختلفٍ أثار فيه الرغبات التي لم تكن لتهدأ حتى بعد لقاءاته الأسبوعية السريعة تلك والتي تزايدت تدريجياً حتى وصلت إلى أربع مرات في الأسبوع دون إشباع كامل. كبرى المومسات كانت امرأة تركية في الخمسين مارست المهنة في إسطنبول في مطلع شبابها ثم انتقلت إلى بغداد عشيقة لشخصية مرموقة، وما لبث الرجل ان ملّها فاضطرت للعودة إلى مهنتها ولم تفكر في العودة إلى بلدها بعد أن صار لها زبائن منتظمون وبيت دعارة معروف تديره بمهارة وحزم. وحين قررت ان توسع من نشاطها وتنتقل من الأزقة والدرابين المنسية إلى

مكان أكثر ازدحاماً وشعبية كان خيارها الجديد هو منطقة الميدان، دربونة الصابونجية تحديداً.

كان اسم مامَلي الحقيقي مركّباً «محمد علي» ويُنادى اختصاراً بـ مامَلي وهو اسمه المركب ذاته مختصراً ومدمجاً باللكنة الكردية الجبلية. وقد تعود مامَلي على الأرخص من بين كل العاهرات اللواتي عرف، وحتى حين صار يكسب ما يكفي لكي ينتقل إلى المومس الأعلى مرتبة من بينهن لم يكن ليرضى لنفسه ذلك، ففي النهاية الجسد هو الجسد والحاجة هي الحاجة وتُقضى لديه بالطريقة ذاتها. وقد استمر على هذه السياسة حتى مع الجديدات أيضاً، وإن استُثيرت رغبته عند هؤلاء الخبيرات بطرق لم يعهدها من قبل. بالإضافة إلى ذلك فثمة سبب آخر كان يمنعه من الارتقاء درجة أخرى في سلم المومسات، وهو انه كان يهابهن ويفضل الضعيفات المنكسرات من بينهن فقد عرف تماماً مدى سطوة وصلافة المتمرسات المعروفات والمشهورات بعهرهن في المنطقة. فقد شهد بنفسه «سليمة سِلاّية» مثلاً وهي تتنقل في شوارع المنطقة على ماطور فيسبا إيطالي واضعة على رأسها بيريّه خاصة بمفوضي الشرطة، والتي كانت غالباً ما تستعين «ببهيجة زنبور» إذا ما تعاركت مع أحدهم، فتلك الأخيرة كانت تنزل إلى العراك في وسط الشارع بسهولة وفي يدها قامة ضخمة لا تتوانى عن استخدامها وايذاء من تسوّل له نفسه الوقوف في طريقها أو مبارزتها والتشاجر معها. وفي مرة احتُجز قوادهن في السجن لأيام معدودة ولم يكن باستطاعة حاميهن إخراجه، وحين جاء الرجل بنفسه إلى بيتهن فتحن له الباب بينما كان مامَلي جالساً في الحوش ينتظر ان تنتهي فتاته من عملها فاستقبلته «نجية ام الهدوم» ـ حازت على لقبها هذا لأنها كانت ترفض ممارسة الجنس دون ثيابها. وهي واضعة يدها على خصرها وتمط كلماتها وتشدد عليها:

ـ بخت، شوفوا منو إجى.. عيني بعد وكت!

حاول الرجل الذي بدا بهيئة أنيقة وشارب صغير كأنه تذكر ان يلصقه تحت أنفه قبل أن يخرج من بيته مباشرة، حاول ان يحافظ على رباطة جأشه وتمتم معتذراً بما لم يسمعه مامَلي فعلى صوتها وهي ترفع كفها في الهواء وتلوح بها:

ـ خاف ما تقبل! واحنا شلون نبقى هيچي بدون قواد؟ عود منو يقودلنا؟ انت؟

فقالت كبراهن التركية بلسانها الثقيل وهي تجلس متربعة وتضع قبضتها على طرف ركبتها كأنها تتوعده:

ـ أمان، ما بيه خير.. لو بيه خير يصير قواد من زمان.

كانت سلاطة لسانهن بالإضافة إلى لسان مامَلي العربي الركيك تجعله يتلعثم أمامهن فكان يوثر التزام الصمت معهن رغم ثرثرتهن، ثم بدأ يضيق ذرعاً بهن وبكل ما يحيطهن من أجواء مثيرة لقلقه ففكر ان يشبع رغبته الجنسية بطريقة أخرى سيما وأنها تتعاظم يوماً بعد آخر، فكانت فكرة الزواج.

حين طلب مامَلي يد پري كانت قد تجاوزت الثالثة عشرة بقليل، بطوله الفارع وعظامه الضخمه بدا مثل عملاق يحاول الانقضاض على عقلة الإصبع. وقبل أن يعقدوا قرانها طلب الشيخ إذنها فأخبروه ان الصبيّة موافقة لكنه وفي موقف نادر أصر ان يراها، فدخلت وهي تلف فوطة بيضاء بإهمال حول شعرها مرتدية فستاناً يظهر مدى نحولها، فاشاح الشيخ بوجهه بضيق ظاناً أنها حتى أصغر من سنها.

- هذه طفلة. كيف تريدون مني تزويجها؟

ساد صمت جبان لثوانٍ قطعته پري بشجاعة وبعربية ركيكة قالت وعيناها الزيتونيتان تبرقان:

- أني موافق، يريد يتزوج.

تلعثم الشيخ وقال بنبرة أقل حدة:

- بابا انتي بعادج صغيرة. اني أخاف من الله، خاف أحد غاصبج.

- لا شيخ. أني مو صغيرة. أني ثلاثتعش سنة. أبويا يقول يتزوج. ابويا قابل وأني قابل.

زفر الشيخ وحوقل ثم عقد قران پري على بركة الله.

قالوا لماماي ان پري جميلة لكنها لا تعد أجمل البنات في أسرة الملا غلام علي، فهي نحيفة وهزيلة على عكس أختها فرصت التي كانت قد تدورت وتربربت بعد أن أنجبت. صحيح ان لپري عينين جميلتين ووجهاً مدوراً لكن أين هذا الوجه من جمال وجه أختها الراحلة قسمت. مع ذلك لم يكن ماماي ليعير مسألة الجمال اهتماماً ورغم تعوده على السمنة الواضحة التي كانت تتمتع بها نساء الصابنجية إلا أنه مارس الجنس مع مومس عوراء ذات مرة وأخرى بشق في جبهتها، ومسألة الزواج بحد ذاتها مختلفة وتكفيه امرأة يركن إليها بعد عناء النهارات الطويلة. أما ما يخص الإثارة فهي لن تنعدم ما دامت التي بجانبه انثى أياً كانت ملامحها. ورغم ان الأهل والأقارب دائماً ما كانوا يعتبرون جمال پري منقوصاً بسبب نحافتها ويتندرون من كون اسمها والذي يعني (الملاك) غير مناسب لها، إلا أن ذلك لم يؤثر في ثقة پري بجمالها، فكانت ترى ان حاجبيها السوداوين الكثيفين اللذين لم تمسسهما يد انسان يبرزان جمال عينيها الخضراوين الداكنتين كأنهما زيتونتان، وتعرف ان أنفها صغير بطرف مدبب، وشفتيها الرقيقتين قلما تنفرجان

عن بسمة لكن وجهها يشرق متى ما ابتسمت. بشرتها بيضاء ناصعة، ورثتها عن أهل ملّتها والتي طالما تباهوا بها لنقاوتها وصفائها. شعرها البني الداكن وحده كان قصة، طويلاً وكثيفاً ومموجاً. حتى جسدها النحيف لم تكن تبرز منه عظام منفرة عدى عظمة الترقوة، وحتى ذلك الحين وهي بعدُ في الثالثة عشرة، لم تكن قد اكتملت معالمه وسيصبح بعد سنوات قليلة جسداً صلباً فتياً، صحيح أنه سيبقى لفترة طويلة نحيفاً عند الخصر والصدر لكنه سيكون مكتنزاً من غير سمنة عند السيقان والأرداف وأيضاً سيضاف إلى طول پري بضعة سنتيمترات إضافية فهي لن تكون أبداً ضئيلة. وحتى التقليل من مستوى جمالها وهي بعدُ في تلك السن الصغيرة لم يكن منصفاً، سيما وانه مختفٍ دائماً تحت ثيابها الطويلة وفوطتها التي تعقصها خلف رأسها في أثناء قيامها بالأعمال الكثيرة في الدار. مع كل هذا وغيره لم يكن الجمال بحد ذاته يعني الكثير لها، فهي لم تحاول إبرازه ولم تشعر أنها بحاجة له بقدر ما هي بحاجة لتكون صلبة وقوية، فاكتسبت مع السنوات رصانة وهيبة فرضتها على أهلها جميعهم رغم صغر سنها، فلم تكن فيها خفة المراهقات ولم يقوَ أحد على إنتزاع ضحكة أو بسمة منها الاّ بصعوبة. منذ احست پري بوجع ثدييها وهما ينموان بدأت تطمح إلى الزواج، ثم حين بلغت مبلغ النساء أصابها قلق من العنوسة وهي بعد في الحادية عشرة، وأضمرت ذلك في نفسها ولم تبده لأحد. لا أحد يستحق أفكارها في هذه الدار. امها تعيش على ذكرى الأشباح وقيم بصرامتها وقلبها الجسور تبدو بعيدة عنها، وشازي لم تكن تستهويها بعالمها المستخف بالقِيم وشخصيتها العنيدة وتعودت پري على عدم الإقتراب منها كثيراً. أخواها لاهيان عابثان وكانا بالنسبة لها قد إستعربا لكثرة ما يتحدثان بالعربية وقد صارت الحياة خارج الدار تستهويهما أكثر، وكانت برغم أنها الأصغر تنهرهما

بين الحين والآخر وتطالبهما بالحديث بالكردية فيخضعان لهيبتها فوراً. ولعل وقع نظراتها الحادة كان له الأثر الأكبر في إحاطتها بتلك الهالة من الاحترام. أما أختها الصغرى مريم فلم تكن في حسبانها لتتبادل معها ما يجيش في خاطرها واعتادت پري معاملتها بأمومة متعالية ولم تكن تضمر تجاهها ندية الأخوات مطلقاً.

لم تكن پري قد أُخبِرت بما ينتظرها ليلة زفافها، فالحياء الشديد الذي تتربى عليه نساء الكرد كان يمنع الأم من البوح لابنتها بالتفاصيل. حتى الدورة الشهرية تستقبلها الفتاة لوحدها وتواجه عالم انوثتها للمرة الأولى بمفردها دون أن يعلمها أحد كيفية التعامل معه، وبسبب خجل والدتها في ذلك الحين قدمت لها قَيَم خرقتين بيضاوين نظيفتين وأمرتها بحزم دون أن تنظر في عينيها ان تضع واحدة وحين تغسلها تضع الثانية حتى تنشف الأخرى.

- يجب أن تبقي على نظافة ثيابك دائماً. حين تغسلين الخرقة الأولى لا تتركي بها اثراً وانشريها في مكان قصيٍ في السطح. إحرصي على الاّ يراها أحد.

ولم تتضايق پري من الطريقة الفضة التي قوبلت بها مظاهر انوثتها الأولى، وتركت بعد ذلك حدسها وفطرتها يرشدانها إلى مواضع انوثتها. حدسها يشير لها ان هذه الدماء دليل على إشارات بعيدة لعارٍ محتمل، لذلك عليها أن تحرص على هذا الجسد أكثر وان تُقيم وزناً أكبر للعيب والحرام. حدسها يخبرها ان هذه الدماء التي تنفجر ثم تقل حتى تختفي كل شهرٍ مرة هي دليل على خصوبتها المحتملة، وعلى أنها مذ تفجرت فيها وهي امرأة قابلة للزواج والحمل والرضاعة، قابلة لأن تنام بمفردها في غرفة مع رجل غريب ستناديه زوجها. وليلة اغلق الباب خلفها ومامَلي كانت تعرف ما ينتظرها بحدسها وأيضاً ببعض ما نال سمعها

وهي صغيرة من كلام شازي الفج، لا بد ان أمراً عظيماً ينتظرها وإلا ما سُمّي عيباً. لكنها لا تعرف تفاصيل ذلك الأمر المهول، وقررت في سرّها بأن تترك نفسها لزوجها يفعل بها ما يشاء فهو قطعاً أدرى ولذلك لم تُصدم للوهلة الأولى فقط تجرعت الألم على مهل وبصلابة نادرة لفتاة في مثل سنها وخبرتها المعدومة.

* * *

منذ انتحار ابنتهما أي منذ سبع سنوات خلت بات الملاّ غلام يعيش مع زوجته علاقة زواج عذرية، وحتى بعد أن عادت رغبته إليه لم يحاول مع زوجته المفجوعة والمشدوهة دائماً، سيما حين تجرأ بعد سنتين من الانقطاع وصدته بدرية بحزم متعجبة من قدرته على التفكير في ذلك وله ابنة وأحفاد ماتوا غرقى في ليلة باردة. ولم يباشر الملاّ زوجته إلا مرة واحدة حدثت بعد ليلة خمر من تلك الليالي النادرة حيث أكثر من الشراب على غير عادته ثم استغل تعب ونعاس زوجته التي لم تقاومه طويلاً خشية أن يعلو صوتهما. بعدها ندم ندماً شديداً لأن بدرية خاصمته ولم تكلمه إلاّ لماماً رغم محاولاته العديدة لمصالحتها وقد طال خصامها له ثم تحول إلى جفاءٍ عنيد حين علمت بحملها من تلك الليلة العابرة والتي لم تكن لتتكرر بعد ذلك أبداً. عند اختلائها به بعد عودته مساءً أفضت إليه بالخبر السيء ولطمت خديها بعصبية ولامته طويلاً على فعلته:

- كيف أنظر في وجوه الناس وبطني تتقدمني؟ ماذا سيقولون عني وأنا أحمل وألد بعد وفاة ابنتي وأحفادي؟

وكانت فرحة الملاّ وزوجته باهتة بخبر حمل ابنتهما پري. فطالعت بدرية زوجها بنظرة لوم فاضت من عينيها فتحاشاهما وأقسم بينه وبين

نفسه ألاّ يترك نفسه لشهوته مطلقاً، وعاش حياته كلها فيما بعد بجسد ممتنع. في حين استقبلت پري الأمر بفرحة عارمة وهي تكابد علامات حملها القوية من وحام وقيء، لكنها لم تُظهر فرحتها لأحد وكتمتها كي لا يُظن ان بها لهفة، وبفارق أسبوعين فقط عن أمها وضعت ولداً فيما وضعت الأم بنتاً ما يعني هماً جديداً وحملاً ثقيلاً. وحين قدمت جارتهم العربية مباركتها وسألت عن اسم المولودة ردت بدرية بعربيتها الركيكة.

ـ ما يدري. ماكو إسم. سميه سم وزقنبوت.

ـ يا دادة حرام عليچ! رزق الله هاي. سميها سهام على اسم بنيتي.

ـ خلاص سميه سهام.

بهذه الطريقة المثيرة للشفقة حصلت سهام على اسمها بينما أطلقت پري على ابنها الأول اسم «سالار» والذي يعني القائد بالكردية، وكان اسمه هو أُمنيتها له بأن يكون ربّان مستقبلها وقائد أُسرتها والمشكل لتفاصيل حياتها. جاء مولودها ذكراً كما دعت وصلّت وتمنت أن يكون. وهي ككردية أصيلة انتهى إحساسها بتبعيتها لزوجها سريعاً متى ما ولدت ذكراً، ليتحوّل طفلها الصغير إلى رجلها الذي ستربيه وتعجنه بكفيها الخصبتين وتشكل طينته الحرة لتصنع منه إلهها الجديد. ستغسل عنه فطرته وتقرأ عليه تعاويذ القوم الأقدمين لتغذية ذكورته كما يجب، ستتمتم الصلوات وتقضي النذور التي نذرتها مسبقاً لأجل سلامته وحفظه، وستقسم بينها وبين نفسها على طاعة طفلها ليصبح إلهاً صغيرا يمشي على قدمين، له العتبى والرضا ولمقامه التبجيل والتوقير الدائمَين حتى يأتي اليوم الذي سيحكمها فيه ويسيّر لها حياتها وحياة أسرتها بأكملها بما فيها زوجها الذي سيشيخ في الوقت الذي يكون رجلها الجديد في عنفوان فتوته وجبروته الذكورية. ولم تستشر پري زوجها في اختيار الاسم. قالت سالار. فوافق من فوره.

غير أن پري وبعد أن وضعت ولدها بأيام لم تكن قد أفاقت بعد من صدمة ولادتها التي لم تكن سهلة، ووجدت نفسها تنسى فرحتها بالمولود الذكر وقد صارت تفتش في دواخلها عن مشاعر الأمومة التي كانت تسمع عنها لتجد إحساساً شبيهاً بالبرود بالإضافة إلى الخوف والقلق اللذين لازماها طويلاً، وظنت بينها وبين نفسها ان الآلام المبرحة لجسدها الذي تمزق لتنبثق منه روحٌ جديدة، وأوجاع حوضها التي لم تشفَ منها لأشهر هي السبب في ذلك، وانتظرت بلهفة أن تتغير مشاعرها مع الوقت. كان ابنها طفلاً جميلاً ذا صحة جيدة وعينين كبيرتين، وبرغم أيامه القليلة في الدنيا إلا انه تعلم كيف ينظر في عينيها بتركيز ويطيل النظر كأنه يحاول ان يوصل إليها إحساساً لن يفهمه أحدٌ سواها. فكانت تبكي وتحتضنه إلى صدرها بشدة ثم تعاود النظر إليه فتجده يطالعها بذات النظرة الثاقبة. ومع بداية حملها بطفلها الثاني تعودت أن تجلس أمام ابنها سالار تتخيل حياته القادمة فلا تجد في دواخلها سوى القلق عليه، ذلك الذي يكاد ينهش صدرها. وفهمت أخيراً ان أمومتها تعني خليطاً من مشاعر قلق وخوف وحرص مبالغ فيه حد الهوس وحب جارف لهذا الشيء الصغير يصعب عليها تفسيره أو وصفه. وكلما تخيلت الطفل الجديد الذي ستضعه في هذه الدنيا كان يشتد عليها الشعور بالوحدة والخوف وهي تتصور نفسها عاجزة عن حماية هذا الكائن المسكين الذي بلا حول أو قوة يستعين بهما على الدنيا، إذ ليس له من أحدٍ سواها وعلى عاتقها مسؤوليات حمايته وتنشئته وتحضيره ليستقبل هذا العالم الكبير جداً والموحش جداً. وكلما كانت تصل بتفكيرها إلى هذه النقطة كانت تشعر بعجز يغرس أطرافها في مكانها فتكاد لا تتحرك. وصارت مثل هذه الهواجس تلازمها بشكل متزايد حتى تحولت مع الوقت إلى علة تنخر روحها يوماً تلو آخر حتى

باتت صعبة الشفاء. ولأنها لم تعارك الحياة سوى بما تسمح به فطرتها وخبرتها المحدودة فإنها لم تجد سوى الأعباء اليومية لتدشن بها هوسها الشديد، فصارت نظافة ابنها وحرصها الدائم على ألا تُنقَل إليه الأمراض والجراثيم هي المحفز الأول لاضطرابها الذي بدأ يتزايد مع الوقت وشيئاً فشيئاً يكبر في داخلها ويتعملق لتحاول صرف نفسها عنه عبثاً. لم تكن نظافة طفلها وحده ما يثير اهتمامها بل كل ما يحيطه، الشراشف والأغطية والأرضية، كاروكه الصغير المصنوع من خشب رخيص، وأيضاً زوجها الذي صارت لا تسمح له بلمس الطفل إلاّ إذا كانت يداه نظيفتين وغالباً ما طالبته بغسلهما أو إختصرت هي كل ذلك بتغيير قماط سالار إذا ما لامسه أحدهم. وكانت تفعل كل ذلك بعناية وحرص ودون أي تبرم. ثم أخيراً كانت هي. هي نفسها، يداها حضنها وصدرها المرضِع، كلها قابلة للتطهير الدائم سيما وأنها تلمس بأصابعها الأسطح والأجسام التي لم تكن في نظرها نقية. وفي تفاقم شديد لحالتها صارت تغسل حلمتها بالماء والصابون في كل مرة تنوي فيها أرضاع صغيرها، ومرة شعرت ان حلقة الطهارة قد بدأت تتسع من الحلمة المغسولة لتشمل باقي الصدر وبات يبدو لها أنه ما زال هناك أطراف تلك الحلقة التي لم تكن نقية تماماً ولابد أنها قد لوثت باقي الجسد. شيء ما في خاصية الماء المطهِرة دوماً ما كانت تدعوها للتفكّر في كونها قد تكون على نفس القدر من خاصية التلويث أيضاً، إذ لا يوجد حاجز واضح ومحدد يمنع الطهارة عن النجاسة أو الدرن عن النقاوة، ولذلك كانت پري تشعر بحاجة ماسة إلى أن تخلع ثيابها لتغتسل بالكامل، بعد أن كانت رغبتها في البداية مجردة في أن تعدّ حلمتها للتغذية مثل بقرة متمزسة. حين تشققت يداها من كثرة الإغتسال وصار جسدها كله يئن من الحساسية التي كانت تظهر عليه واضحة بسبب بياضه الناصع وفركه

المستمر بالماء والصابون والليفة الخشنة التي كانت بري تستبدلها بجديدة كل يومين، حينها فقط شعر زوجها بحدسه البدائي ان زوجته بحاجة إلى المساعدة. فكّر مامَلي كثيراً في ذلك قبل أن تسيطر عليه سلبيته ومن ثم كسله عن مد يد العون، وانتهى إلى الاّ يحرك ساكناً محدثاً نفسه بإنها لا بد ستشفى من هوسها الغريب هذا من تلقاء نفسها.

الفصل الرابع

في منطقة حدودية بين ما يُعرف بإيران والعراق اليوم وبالتحديد مدينة مهران كان قد ولد مجيد الذي عُرف في ما بعد باسم مجيد الصائغ، الإبن الأوسط من بين أبناء الحاج حسين كاكه زاده الثلاثة. وقد عاش مجيد في تلك المنطقة القريبة جداً من الحدود العراقية الإيرانية التي كانت قد رُسِمت قبل ولادته بسنوات لا تعد طويلة في عرف الزمن، حتى ان مجيد دائماً ما كان يذكر انه في طفولته تعود ان يشتري لأمه السكر من زرباطية العراقية ويعود به إليها قبل أن يتهدّر شايها على النار في الجانب الذي بات يعرف بالجانب الإيراني حيث يقطنون. وكان ذلك في وقت مبكر من طفولته بلا شك لأن امه تزوجت بعد موت أبيه بقليل لينفصل هو وإخوته عنها، فلم يكن رجال قريتهم ليتركوا امرأة جميلة، بيضاء ومدورة الوجه وقوية البنية مثلها لتعيش شبابها أرملة. كانت في العشرين فقط ولها ثلاثة أولاد ذكور، فهي فوق جمالها ومتانة بنيانها ولودٌ ومن المحبذ ان تستمر في إنجاب المزيد من الذكور سيما وان عين الحسود كانت قد أصابتها مسبقاً ونالت من الزوج فتوفي. إذن ـ وبحسب اعتقادهم ـ فإن العين قد ذهبت بالشر ولن تعطب رحم امرأة مثلها. وحقاً كان، فولدت الأرملة الشابة من زواجها الثاني أربعة ذكور وبنتاً واحدة. بعد زواج والدته مباشرة أُرسل مجيد مع أخويه إلى أحد

أعمامه الذي كان يسكن مدينة زرباطية في الجانب العراقي. ولم يكن مجيد ليميز الخطوط الواهية التي سميت حدوداً، لم يكن يعرف تلك الفواصل الرسمية، فزرباطية وبدرة وجصّان وغيرها من المدن لم تكن لتختلف بالنسبة له عن مهران ودهلوران وإيلام. سيما وان لغته الأم، وهي الكردية اللورية أو الفيلية كما اشتهر اسمها فيما بعد، مستخدمة في هذه المدن جميعاً. أما القوم فمنهم أبناء عمومته وعشيرته متوزعون بين القرى على الجانبين. وهو حين شب قليلاً وميّز الفوارق القومية بين العرب والفرس أفهمه عمه ـ والذي كان رجلاً جاهلاً يميل إلى الأعراف القومية وتحقير شأن البقية من الأقوام ـ أفهمه أنهم ككرد فيليين كلهم يعودون بالأصل إلى منطقة پشت كوه أو «ما وراء الجبل» وقد انتشروا في المناطق والأقاليم القريبة عبر الزمن. وعرف مجيد بالإضافة إلى ذلك أنهم كان لهم ولاةٌ يحكمونهم حتى عهود قريبة قبل أن يأتي الشاه رضا پهلوي ويضمهم تحت حكمه ويلغي حكم الولاة، كما حاول الشاه التأكيد على هويتهم الإيرانية دون أن يحاول كسب ولائهم بالترغيب وحسن المعاملة، بل فعل ذلك بالترهيب والقمع ومساعيه العديدة لطمس هويتهم الكردية وتفريسهم.

مثل بعض أقرانه تعلم مجيد في الكُتاب، وكان ذلك قبل أن ينتقل إلى زرباطية. لم يكن تعليماً جاداً بقدر ما كان تحفيظاً لبعض السور القرآنية القصيرة وتعريفاً بسيطاً بكيفية فك الخط، أي أنه تعلم إلى الحد الذي يمكّنه من قراءة الفارسية بصعوبة، وتلك لغة تشبه إلى حد ما لغته المحكية غير أنها لينة جداً ومائعة جداً وتعاند لكنته الجبلية المكثفة، وهو لم يستسغها كثيراً ورغم ذلك أشار عليه ذكاؤه الفطري ان يحاول كسبها، سيما وانه كان يدفع من قوت يومه وما يكسبه من عمله من أجل الدروس القليلة التي يحضرها في الكُتاب. ثم مع انتقاله إلى زرباطية

حاول مجيد ان يفهم العربية في أثناء الدقائق القليلة التي كان يلتقي فيها بالتجار والمستطرقين من المدن القريبة الناطقة بها لكن عبثاً. ورغم ما بدا له من صعوبتها إلا ان ثقة عجيبة استقرت في نفسه بأنه حتماً سيتعلمها يوماً، فكان ينظر إلى المجلات والجرائد التي تُباع على الأرصفة ويفكر أن لا بدّ سيأتيه يوم يقرأ فيه مثل هذه المجلات، ليس فقط ليرضي فضوله الذي كانت تستثيره الصور الأنيقة على الأغلفة، بل لكي يفهم ويتعلم كل ما يخفى عنه أيضاً. ومع تكون وعي الفتى شيئاً فشيئاً تبين أن طموحه كان غير متناسب وظروف حياته التي بدأت صعبة، مذ لطمته الدنيا على وجهه الغرّ باليتم والابتعاد عن حضن الأم، إلا أنه كان دائماً ما يشعر أن يوماً جميلاً ينتظره لم يعشه بعد وانه لم يولد في هذه القرية المنسية لكي يعيش حياة صغيرة مثل البقية من أبنائها، وكان من الغريب ان يرافقه مثل هذا الشعور فالحياة التي أرته الحرمان والقسوة منذ نعومة أظفاره لم تكن تنبىء بالمستقبل الجميل الذي آمن به في سره، فقد قضى سنوات طفولته جائعاً حتى تعود الجوع مذ كان يرى بأم عينيه زوجة عمه تطعم أولادها وتحرمه وأخويه الطعام، حتى ان أخاه الأكبر ومن شدة الحرمان تفاقم في صدره حقد على أولاد العم، فوقف في إحدى الأيام مختبئاً خلف جدار الدار المتهاكلة وما ان ظفر بأحدهم حتى أمسكه من رقبته وركّعه على الأرض وأمره ان يتقيأ إفطاره الذي تناوله للتو. يومها وقف مجيد يتفرج وفي صدره يعتمل إحساس شبيه بالتشفي، غير أنه بات يؤلمه الموقف كلما استعاده بعد ذلك بسنوات. أن يضطر أخوه إلى انتزاع اللقمة من أحد لا ليسد بها رمقه وإنما انتقاماً، بغضاً وحسداً وقلة حيلة، كان أمراً بالنسبة له مثير للشفقة والحزن معاً، لكنه أيضاً كان مبعثاً للخجل والنقمة.

وما أن شبّ قليلاً اتخذ قراره بالرحيل دون تفكير عميق. هكذا وعلى

غفلة من نفسه، حتى إنه لم يعش حلم السفر أو هذيانات المقبل على الاغتراب من أجل لقمة العيش والبحث عن الفرص. فقط كان بحاجة إلى التذكير ربما، إذ صادفته في ليلة شديدة البرد شديدة العتمة قضاها في حراسة المطحنة حيث يعمل، حركة غريبة تصدر من الأسفل، فأدلى جسده الفتيّ من فوق منادياً بعد أن اكتشف سارق القمح:

- علي نظر! أهذا انت؟

فارتعد الرجل المسكين قائلاً:

- «برا»، أرجوك. أطفالي لم يأكلوا منذ ثلاثة أيام.

ففكر مجيد للحظة ثم قال وهو يرتد بجسده إلى الخلف:

- بسرعة. خذ حاجتك، وارحل بسرعة.

بعد هذا الموقف، اتخذ مجيد قراره بالهجرة. لم يكن في نيته أبداً ان يقضي عمره يعمل في مطحنة أو يختبيء في سبات شتوي ليموت من قلة العمل والجوع، وبدا له قراره صحيحاً وهو يفكر بقلة الفرص حيث هو وبتلك التي ستتاح له لو أنه هاجر إلى مكان أكثر حيوية. كان في السادسة عشرة وقد بانت على جسده معالم قوة وفتوة مبكرة، ففكر ان يتوغل غرباً سيما وان له ابناء عشيرة يعملون ويكسبون جيداً حسبما نال سمعه، ويمكنهم ان يساعدوه في إيجاد عمل هناك. ورغم ذلك فإن العمل وحده لم يكن السبب في حث مجيد على السفر، فهو غير مرتبط باحد وأخواه لا يتمتعان بربع ذكائه أو طموحه وقد يقيدانه إذا ما رافقاه في طريق هجرته، فغادر ما ان أتيحت له الفرصة، غادر دون وداع، بل إنه لم يفكر في زيارة والدته قبل أن يمضي. رحل خفيفاً دون متاع، يحمل في يده «بقچة» صغيره فيها ثيابه الرثة القليلة وبعض حاجياته الضرورية، والتي كان بإمكانه التخلي عنها لتفاهتها لولا أن فيه صفة

المحافظة على النظافة والاعتناء بتغيير وغسل ملابسه بشكل دائم، فلم يكن فقره ليمنعه عن ذلك حتى وإن اهترأت ملابسه من كثرة غسلها.

يوم وصل إلى مدينة بغداد كان الوقت ظهراً وكانت معالمها شديدة الوضوح بالنسبة له وجوها حاراً وجافاً على عكس ما ترك قريته، فاستقبلها بإكبار وهو يشهد للمرة الأولى مظاهر الحضارة التي لم يكن ليعرفها هناك في قريته. وصل غريباً بلسان لا ينطق إلا الكردية وبضع جمل فارسية وأخرى عربية التقطها جميعاً من الكتّاب ومخالطة التجّار، على أمل ان يلقى ابن عم والده «مامَلي» الذي كان بعضهم قد أخبره عن اسم المكان الذي يعمل فيه والقهوة التي يلتقي فيها، فوصلها وفي البداية تردد في الدخول وهو يفكّر ان كيف سيتعرف على ابن عمه الذي لم يكن قد التقاه من قبل، فلبث يروح ويجيء أمام القهوة لدقائق خجلاً من مبادرة أحد بالحديث، ثم تشجع أخيراً ودخل متجهاً إلى «الچايچي» ليحدثه بكلمات كردية وضع في وسطها مامَلي فصاح الچايچي على أحدهم:

ـ كاكه سعيد. تعال شوفلنا هذا بالله شيريد.

قام رجل ضخم يرتدي صاية نظيفة ويلف «چراويته» بعناية حول رأسه الأشيب ليسأل مجيد عن مطلبه بكردية سليمة غلبت عليها لكنة سورانيّة. فتردد مجيد قليلاً ثم قال وهو يحاول أن يبدو ثابتاً.

ـ انا غريب من مهران في الاصل، ومن سكنة زرباطية. أبحث عن ابن عم والدي اسمه مامَلي، محمد علي خسرو. قالوا لي انه معتاد على الجلوس في هذه القهوة.

فسحبه كاكه سعيد من ذراعه وهو يقول:

- على الأغلب يكون في طريقه الآن، تعال اجلس.

ـ تعرفه؟

ـ أعرفه بالطبع.

ثم التفت كاكه سعيد إلى الچايچي وصاح بصوته الجهوري:

ـ جيب بيبسي للولد، خليه يبرد قلبه.

وكان مجيد عطشاً بالفعل فارتشف جرعة كبيرة ظناً منه ان الشراب مجرد عصير فاكهة ليفاجأ بطعمه فخرج ما ارتشفه للتو من انفه، وشعر كأنه يكاد يفقد القدرة على التنفس وغامت عيناه للحظات، بينما غرق كاكه سعيد في ضحكة وهو يضرب على ظهره.

ـ هاي شنو، لك أنت منين جاي؟ ما تقولي!

ولبث كاكه سعيد يتجاذب معه أطراف الحديث محاولاً التعرف إلى هذا الفتى الغريب، حتى يجيء قريبه. وبعد ساعتين تقريباً قال مجيد بقلق:

ـ لقد تأخر مامَلي. هل من الممكن الآ يأتي اليوم؟

ـ اصبر، سيأتي. واذا لم يفعل ذهبنا بك إلى داره.

ساعة أخرى مرت ومجيد يتابع الخارج والداخل إلى القهوة في صمت ويرد على ما يوجهه له كاكه سعيد بكلمات مقتضبة. أمله كله معلق بايجاد ابن عمه وهو لا يفكر سوى في اللحظات القادمة وعقله لا يقذف به إلى المستقبل كما سيفعل معه دائماً فيما بعد. لم يكن وهو جالس بتحفز وقلق على طرف الكرسي يدرك معنى أن هذه المدينة الجديدة عليه ستحتضن شبابه وأيامه القادمة، وأنه سيغزل لنفسه فيها ذكريات وأحلاماً كثيرة سينقضها فيما بعد، حينما سيغادرها بعد سنوات عديدة مطروداً منها مجرداً من كل ما صنعه لنفسه فيها. منذ يوم مقدمه هذا ترك وراءه كل ما يربطه بمسقط رأسه دون أسف. ترك أخويه وأمه

وعمه الذي رباه وأبناء عمومته المنتشرين بين قرى پشت كوه ومدن مثل مهران ودهلوران وزرباطية، وأعمامه الكثر الذين لم يحدث أن التقى بعضهم في حياته. ترك الوديان والجبال والسهول الخضراء اللا محدودة، حتى الجداول والينابيع النقية والطبيعة البكر التي لا تخجل من إظهار محاسنها تركها، ولن يشتاقها.

* * *

لم يكن من السهل أن تقتنع پري بأن يسكن ابن عم مامَلي معهم في نفس الدار. حاول مامَلي معها لأيام حتى اقتنعت على مضض وشرطت شروطاً عدة أولها ألا يكلمها مجيد إلا للضرورة القصوى وان يبقي على مسافة واضحة بينه وبينها، وإذا ما اضطر لمخاطبتها فلا ينظر في عينيها. ووافق مامَلي على شروطها بسرعة قبل أن تتراجع عن قرارها، فهو يعلم ان حدّيتها في التعامل مع الرجال الأغراب سببها عفتها المفرطة، وهو ليس بالأمر الذي يمكنه أن يعترض عليه. وكان مامَلي قد جدّ في البحث طويلاً عن غرفة يستأجرونها «كنِزل» في إحدى دور الدهانة أو شارع الكفاح بسبب پري التي كانت تكره الدار التي نزلوا في إحدى غرفها لأن بها أسرة فيها أربعة شبان، ثلاثة منهم كانوا يدرسون فيعودون الي البيت في وقت مبكر على غير عادة الرجال العاملين، وغالباً ما كانت تحلو لهؤلاء الإخوة الدراسة في الفناء وهو الأمر الذي لم تستسغه پري أبداً فطالبت بإصرار الانتقال إلى دار أخرى. بحث مامَلي في أغلب الدرابين القريبة في «عقد النصارى» حيث كان يسكن، ثم «عقد الأكراد» وباقي المناطق المحيطة «بالشورجة» وغيرها، لكن دون جدوى. ولم يكن سبب إخفاقه هو قلة الدور أو الغرف المستأجرة، بل ما وضعته پري من شروط تعجيزية أهمّها ان تكون الدار المستأجرة خالية من الرجال كأن يكون سكنة الدار إمّا أرامل أو عوانس. ولمّا أخفق مامَلي في إيجاد دار

بهذه المواصفات تركت پري له الغرفة الصغيرة التي طالما تبرمت من السكن فيها، وعادت إلى دار أهلها غاضبة مع أطفالها الثلاثة وبطنها التي كانت قد انتفخت للمرة الرابعة. عندها اقترح والدها الملاّ غلام علي، أن يخلي لهم إحدى الغرف المخصصة «للنزِل» واعداً بألاّ يسكّن في داره رجالاً بعد اليوم. ووافق مامَلي بشرط أن يدفع أجرة سكنه وأسرته الصغيرة، وتم الاتفاق حتى أن پري إبتسمت واحدة من إبتساماتها النادرة وعيناها الجميلتان تلمعان بغرابة بعد أن نالت مرادها. فكان طلب مامَلي في أن يسكن عندهم مجيد في الغرفة الصغيرة القصية، بما ان المرأة العجوز الجنوبية وابنتها العانس سيغادرانها قريباً، يعد بالنسبة لپري تعدياً على اتفاقهما وقلة احترام منه تجاهها. عبثاً حاول تذكيرها بأن الشاب الذي سيسكن عندهم صغير السن وسيعمل من الصباح الباكر حتى آخر المساء، كل هذه كانت بالنسبة لپري حججاً غير مقنعة فمجيد يصغرها بقليل فقط، ولا يعتبر غراً ما دام شاربه قد نبت وعضلاته قد فتلت. وبعد ان حاول والدها الملاّ استرضاءها وهو يذكرها كيف أن من واجبهم مساعدة ابناء ملتهم، لوت پري شفتيها وهي تلقي على زوجها نظرة حانقة تنطق شرراً، علامة على إضطرارها الرضوخ للأمر. ولو كانت پري تعلم المكانة التي سيحوزها هذا الشاب من نفسها لكانت وفرت عصبيتها وجدالها المستمر مع مامَلي، حتى عندما رأته للمرة الأولى لم تكتشف ذلك فأشاحت بوجهها عنه قبل أن تتبين ملامحه كأنها تطرده رغم كلمات الترحيب التي نطقت بها شفتاها. كانت ما تزال نفساء وقد وضعت ذكراً منذ أيام قليلة بعد بنتين فأضمرت في نفسها عتباً شديداً على زوجها الذي لم يدع فرحتها تكتمل بذكرها الجديد دون منغص. لم تكن قد تعدت العشرين من عمرها ولها حتى ذلك الحين ولدان وبنتان ثم هذا الولد الأخير، ولم يكن في نيتها ان تُنهي إنتاج

الأطفال المستمر هذا، فكانت بعد خمسة أطفال قد اعتادت على عدم تفسير قلقها وهوسها وحزنها المستمر الذي لا ينقطع والذي كان يتفاقم أكثر كلما وضعت بنتاً، ولعلها ظنت ان ما بها هو جزءٌ من طبيعة امومتها وقد صارت تتعايش معه بسلاسة أكبر رغم صعوبة ما يفرضه عليها من تبعات.

لم يصعُب على مامَلي المساعدة في إيجاد عملٍ لمجيد في سوق «الشورجة» سيما وان ذلك تم بمباركة الملاّ الذي أوصى به معارفه هناك. تلقائياً قُرر ان بنية الفتى تصلح لعمل الحمالة، ودفع بمجيد إلى العمل مباشرة. ولبث الفتى لأيام يتعمد ألاّ يعود إلى الدار إلا للنوم فقط، فشعرت پري بالارتياح لتغيبه طوال النهار وزاد في ارتياحها أنها انتبهت لتعففه وغضه البصر كلما دخل إلى الدار متجهاً إلى غرفته. وأكبرته جداً لما وجدت من نفسه العزيزة وهو يرفض طعاماً أرسلته بدرية إلى غرفته مدعياً أنه قد أكل قبل عودته إلى الدار. شيءٌ ما من الملامح القليلة لشخصيته التي بدأت تتضح لها ذكرها بنفسها. عفته وشخصيته الرصينة التي لا يبدوعليها نزق الشباب ثم نظرة التصميم التي في عينيه، كل ذلك أشعرها لوهلة بالتقارب بينهما بل أن مجيد هذا يقترب بالفعل من أن يكون نسخة ذكورية منها، فصارت مع الوقت تتقبل وجوده بينها وبين نفسها دون أن تبدي ذلك أو حتى تغير من تصرفاتها الجافة معه. شعرت أنها لربما قادرة على الترحيب بوجوده كنزل شاب وأعزب في دارهم، وهو أمرٌ لم تكن لتتخيله من قبل. وقد حدث ما أكد ذلك في ليلة باردة من ليالي شباط، فبينما كانت پري بانتظار مامَلي الذي صار يتأخر موعد عودته منذ بداية شهر رمضان فيقضي وقته بعد الإفطار في القهوة، قامت هي بإرضاع وليدها «عادل» ثم وضعته على فرشة بيضاء على الأرض التي جدّت في تنظيفها خلال

النهار ومن ثم فرشتها بأغطية قديمة لكن نظيفة كانت قد أنقعتها في قدر كبير وضعته على «الچولة» ومن ثم فركتها وغسلتها بعناية بالصابون المبروش ونشرتها بحرص تحت أشعة شمس الشتاء المعقمة لكل ما تلوحه. غطت صغيرها بغطاء أبيض نظيف وأخيراً دثرته بلحاف وخرجت من غرفتها بعد أن اطمأنت لنوم أطفالها جميعهم. في طريقها إلى المطبخ لمحت خيال مجيد عائداً من عمله وتأكدت أنه هو وليس أحد أشباح الدار من مشيته المرهقة التي يبدو منها التعب واضحاً. عقدت حاجبيها باهتمام وتحركت فيها أُمومتها فانكسر قلبها لغربته ووحدته وجسده المتعب الذي أنهكته الأحمال الثقيلة. ترى على ماذا أفطر اليوم؟ وهل لديه ما يتسحر به أم انه يطوي النهار على بطن خاوية؟ نفضت كل ذلك عنها حين عادت إلى غرفتها لتجد مكان رضيعها خالياً وقد أزيحت الأغطية عن الفرش بإهمال بينما كان ينام البقية من أطفالها بهدوء. فكرت أن لعل أختها الصغرى مريم قد حملت عادل إلى غرفتها، لكن لماذا تقدم مريم على ذلك وقد نام الطفل للتو؟ ثم إنها لم تسمع له بكاءً أو تململاً أثناء انشغالها القصير! اتجهت إلى غرفة أمها وفي قلبها انقباضة فوجدت والديها نائمين وقد اعتادا على النوم المبكر سيما وأنهما يحرصان على الاستيقاظ للسحور، فانتقلت بسرعة إلى حجرة قَيَم لتجدها ومريم مستلقيتين في فرشهما، فبحثت بعينيها عن صغيرها وهي تسأل بلهفة:

- أين عادل؟

طالعتاها بنظرات متعجبة.

- انه ليس في الحجرة، تركته للحظات وعدت فلم أجده في مكانه.

- لعله عند ميمي شازي.

قالت أختها مريم.

وبدأ الخوف يتصاعد في قلب پري ودقت أمومتها ناقوس الخطر فهرعت إلى غرفة شازي لتضرب الباب بدقات سريعة، فخرج إليها عمها رضا متسائلاً.

ـ عمي أين عادل.

ثم خرجت من بعده شازي وهي تعدل فوطتها حول رأسها:

ـ ما بك؟ هل سيغادر الرضيع فراشه بنفسه؟

مع هذه الحركة والأصوات التي بدأت تعلو كان أهل الدار كلهم قد خرجوا من غرفهم، وحين علموا باختفاء طفل پري بدأوا جميعاً يفتشون عنه بينما انهالت اسئلة شازي على پري أين وضعته؟ هل كان نائماً؟ أو إن كانت متأكدة من أنها قد تركته في مكانه فعلاً؟ عادت پري فجأة إلى غرفتها مهرولة وهي تبحث بطريقة محمومة.

ومن شدة يأسها صارت تفتش في صندوق أدواتها وتحت أقدام أطفالها. هل من المعقول أن تكون قد نسيت أين وضعت رضيعها؟ هل من الممكن ألاّ تكون في كامل وعيها وأن هوسها وقلقها قد صوّرا لها أنها قد وضعته في فراشه بينما تكون قد رمت به خارج الدار مثلاً. وهنا هرعت إلى باب الدار وفي إثرها شازي ورضا، وخرجت إلى الدربونة تتلفت يمنة ويسرة فيما حاول عمها إعادتها إلى الداخل:

- ادخلي انا سأبحث عنه.

سحبتها شازي وقد رق قلبها فجأة لحال الأم فقالت بانفعال:

- رضا اذهب في طلب پرگه.

- أي پرگه الآن، اخرسي وادخلي إلى الدار فوراً.

وجاء صوت الملاّ ثابتاً:

ـ بل اذهب في طلبه.

وكان واقفاً عند عتبة الباب عاقداً ذراعيه خلف ظهره. وفهم رضا من نظرته انه جاد في أمره فذهب لتوه بينما سحبت شازي پري التي انهارت ما ان وطأت فناء الدار. في خضم هذا كانت الأصوات تصل إلى مجيد متشابكة وغير مفهومه لكنه فهم مع قليل من التركيز أن رضيع پري قد اختفى فجأة، لكنه لبث في حجرته متردداً هل يخرج إليهم ليساعدهم في بحثهم أم ان تدخله سيكون غير مرحب فيه! ثم ارتأى أخيراً أن مكوثه في حجرته قد يفهم على انه لا مبالاة منه فخرج ليقف عند الباب حائراً لا يدري هل يعلن عن وجوده أم يكتفي بالتصرف من تلقاء نفسه. وهنا التقت عيناه بعيني الملاّ الذي نظر إليه نظرة ملؤها القلق، وأحس مجيد ان ما دام الرجل قد شاركه قلقه وحيرته ولو عبر نظرة فإنه لا يخجل من تدخله في المعضلة التي هم فيها. مباشرة شعر بشيء ما يتحرك في داخله على نحو مفاجئ، ودون ان يفهم كيف ولماذا دعاه هاتف إلى الصعود إلى السطح تحديداً، ولم يكذّب مجيد الهاتف الذي دوى في كيانه فوجد نفسه يتجه إلى سطح الدار عبر السلم الخلفي. كانت هذه أول مرة يصعد فيها إلى هناك، وأخذ يتلفت ثم تردد قليلاً وظن أنه سمع صوت طفلٍ رضيع، كأن أحدهم يناغيه وهو يرد بالضحك. لم يطل بحثه حيث وجد عادل ممدداً عند زاوية من السطح يتحرك بلطف وعلى وجهه إبتسامة بريئة بينما نظرته مثبتة إلى فوق كأنه يتابع حركات شخص غير منظور، بينما كان نصفه الأسفل ملفوفاً بجزء من غطائه الذي فُرش تحته بعناية كأنما ليحفظه من أرضية السطح الباردة. شعر مجيد بلهفة كبيرة وهو يحمله ويهبط به إلى الأسفل ونادى بصوت لم يخرج منه عالياً كما حاول:

ـ عمّاه.

فالتفتوا إليه متعجبين وازدادوا استغراباً وعجباً حين رأوه يحمل رضيعهم بين يديه، وهرعت إليه پري لتتناول صغيرها منه وتهبط وإياه على الأرض.

ـ وجدته فوق، على السطح.

قال مجيد ذلك بنبرة ثابتة، فارتسمت علامات الإستفهام على وجوههم جميعاً، وبينما كانوا يتساءلون فيما بينهم عن كيفية وصول الرضيع إلى السطح دخل رضا على عجلة وفي إثره پرگه يحمل نيرمينا في حضنه بينما سارت شيرمينا الهوينا متذيلةً الموكب.

ـ وجدتموه!

بادر رضا ما ان رأى ابنة أخيه تتفحص طفلها بلهفة ثم تحتضنه بقوة.

فرد الملاّ وهو ينظر إلى پرگه.

ـ وجده مجيد فوق السطح. لا ندري كيف وصل إلى هناك فكيف تفسر ذلك يا پرگه؟

دار پرگه بعينيه المحمرتين ليلتقي بأعينهم جميعاً عدا پري التي كانت منشغلة بابنها، ثم قرّب اذنه من نيرمينا وهمس في أذنها عاد بعدها ينصت إليها باهتمام رغم أنها لم تصدر مواءً فعلياً يمكن ان يفسَّر بأي معنى. فجأة رفع رأسه قائلاً:

ـ الملائكة. الملائكة أحبت ان تلاعب ابنكم هذا

تبادلوا جميعاً نظراتٍ مستغربة بينما تهاوت قَيَم على الأرض وهي تضرب على فخذها كأنها تلعن حظها.

ـ ما من قلق. لا تقلقوا. انه.. ما اسمه؟

ـ عادل.

ـ ان عادلاً هذا قريب منهم. هم يحبونه وذلك من حسن حظه، من منا لا يتمنى ان تودّه الملائكة وتحفه بعنايتها!

ـ ملائكة؟ انه يقصد الجن الذين يسكنوننا، لكنه لا يود إخافتكم.

قالت قَيَم بعصبية، فالتصقت شازي بزوجها وهي تردد آيات قرانية في سرّها واضعة كفاً على صدرها.

قالت پري وهي تمسح دموعها:

ـ ابعدهم عنه ارجوك. لن احتمل تكرار ما حدث الليلة

ـ ابعد عنه ماذا؟ الملائكة؟ أهذا ما تريدينه؟

بكت پري بحرقة:

ـ ماذا أفعل اذاً؟ أعطيه لهم ليلاعبوه متى ما شاؤوا؟ ليس من الإنصاف ان أرتعب هكذا على صغيري. أرجوك أبعدهم عنه.

رد پرگه بعربيته البسيطة متهكماً ومبتسماً بصبر:

- من عيوني.

ثم أخرج خرزة من جيبه وتمتم عليها كلمات وانحنى ليغرسها بين ثياب الرضيع عادل.

- شدّي عليه قماطه، وضعي هذه الخرزة بين ثيابه دائماً. حصنيه بالقرآن ولا تخافي. حظ هذا الصغير سيكون عظيماً ما دام طفلاً قد عشقته الملائكة. تصدّقي. حتى پرگه المسكين يستحق الصدقة.

ثم التفت إلى أهل الدار ودار عليهم جميعاً يوزع خرزات للحصن دون أن يسألوه ذلك، ثم خص شازي بخرزة زرقاء مائلة إلى الأخضر على شكل لسان مشقوق. وهمس في أذنها:

ـ خذي حذرك من نفسك، لا تعاونيها على دمارها. قبل أن تنطقي بشيء فكرّي قبل أن تذبح كلماتك أحداً. بعض ما قدّر لك باستطاعتك تجنب اسواه لو أنك ترغبين، فلا تنسي أن تكثري من التصدق. وتملقي الرب بحُسن خُلقك مع الناس.

ثم انتحى برضا جانباً وهمس في أذنه بكلمات مودعاً في كفّه خرزة أخرى على شكل دمعة زرقاء فيما كان رضا يستمع إليه وهو يغالب تعبه ونعاسه وذهنه مشوش من أثر أحداث الليلة. أخيراً نظر برگه إلى مجيد ومدّ قبضته إليه مومئاً برأسه أن يقترب، لكن مجيد ابتعد بلا مبالاة منسحباً إلى حجرته دون أن يثير انتباه أحد.

بعد عودته من سهرة طالت عن المعتاد هذه المرة، استمع مامَلي إلى زوجته وهي تسرد عليه أحداث الليلة المثيرة وهو مطرق. كانت تضع أمامه السحور وتتكلم دون توقف على غير عادتها، وكان هو حريصاً على مشاركتها طعامها المتأخر رغم كونه غير ملتزم بالصيام. فجأة سألته:

ـ لِمَ لا تدعو ابن عمك للسحور معنا. المسكين، قد لا يكون في حجرته كسرة خبز.

فرح مامَلي باهتمامها المفاجيء هذا وتنازلها عن نفورها وعنجهيتها، فقفز من فوره قبل أن تغير رأيها لدعوة مجيد الذي رفض بخجل في البداية ثم رضخ مع الحاح مامَلي، فدخل إلى حجرتهم على إستحياء مطأطئ الرأس لتستقبله پري بعينين تلمعان بامتنان وقلب تتراقص فيه فرحة غريبة، لكنها على الرغم من ذلك لم تفقد رزانتها المعتادة. وحول طعام السحور المكون من بيض مقلي، جبنة بيضاء ودبس وراشي، دار الحديث بينهم عما حدث. فقال مامَلي ببساطة وهو يلوك لقمته:

ـ في كل شبر من هذا البيت قابلت أشباحاً وملائكة، البيت مسكون وما من غرابة فيما حدث.

تردد مجيد قليلاً:

ـ لكن ليس من الطبيعي ان يختطفوا ولدك الرضيع ليلاعبوه كما ادعى ذلك المعتوه!.

فاعترضت پري:

ـ پرگه! انه ليس معتوهاً. هذا رجل مبروك. كلنا نعيش هنا بفضل بركته.

إبتسم مجيد وهز رأسه بلطف كأنه ليس به رغبة في مجادلتها. ولم يكن قد شعر بنفورها منه في السابق، ربما لأنه لم يكن قد انتبه لزوجة ابن عمه قبل تلك اللحظة. وهو لم يعتد على تواجد النساء الجميلات أو الشابات بالقرب منه ولا يعرف الطريقة الصحيحة للتعامل معهن فينطوي على نفسه بخجل أمامهن، رغم الشعور الدائم الذي صار يرافقه بحاجته الملّحة إليهن، كأن في جسده حقد وغلٌ يحاول ان يطردهما عبثاً، وهن لا غيرهن المسبب في ذلك الشيء الغريب الذي يسري في جسده مثل سمٍ لا يدري متى تجرعه ولا يعرف كيفية التخلص منه.

رشف مامَلي القليل من الشاي ثم سأل في شبه دعابة:

ـ وهل تخاف؟

ـ من ماذا؟

ـ من الجن! العفاريت والأشباح والبيوت المسكونة.

أطرق مجيد قبل أن يرد مبتسماً بخجل:

ـ الخوف للمدللين فقط ولم أكن قط منهم.

كان بوده ان يخبرهما عن الليالي الطويلة الباردة والداكنة جداً، حيث كان يبيت في المطحنة التي كانت تئن بأصوات متنوعة والتي كانت كلها غريبة ومخيفة، أو يخبرهما عن طفولته التي قضاها دون حضن يحميه ويدفئه كلما خاف وارتعد ليلاً، لكنه خجل من ذكر ذلك واكتفى بالابتسام.

* * *

لا شيء في الدار في ذلك الصباح الرمضاني كان يوحي بأن يومهم هذا لن يمح من ذاكرتهم ما لبثوا أحياءً. ليس لأنهم سيعيشون يوماً حافلاً شبيهاً بليلتهم السابقة بل لأنهم منذ هذا اليوم، دائماً ما سيتذكرون الأيام الذي ستتخذ فيها مصائرهم انعطافاتها الحاسمة. نساء الدار قمن صباحاً وهن ينفضن عن أرواحهن ما علق بها من أحداث الليلة التي مرت على خير في محاولة لتناسي ما تسببت به لهم من قلق وخوف. لا إفطار في هذا البيت احتراماً لرمضان على الرغم من أن جميع رجال الدار لا يصومون، بإستثناء مجيد الذي لم يُعرف أبداً إذا ما كان محافظاً على صيامه وصلاته أم لا. كان بينهم شبه اتفاق غير معلن بأن الإيمان ومظاهره وتوابعه من التزامات منوط بالنساء فقط، حتى ان شازي التي لم تكن تخفي عدم التزامها لم تسلم من تلميحات مستنكرة طالتها من غير الملتزمين ومن بينهم الملا ذاته، إذ كان الرجال في دواخلهم وبطريقة ملتوية يعدون التزام نسائهم الديني دليلاً غير مباشر على عفتهن بينما لا يشترط ذلك بالنسبة لهم على أي حال.

غادر الرجال إلى أعمالهم فهرعت النساء بدورهن كلٌ إلى مهمتها وفي خضم انشغالهن لم يسمعن عمّا حدث في البلد سيما وان الوحيدة التي يهمها أمر المذياع وتحرص على تشغيله هي شازي التي أهملته ذلك الصباح. لم تعرف أي منهن ان بياناً قد أذيع يتحدث عن القضاء

على ما أسماه الطاغية والخائن المجرم عبد الكريم قاسم، على الرغم من أن الزعيم الذي كانوا يحبونه لم يكن قد صفّي بعد. وصار البلد بين ليلة وضحاها تحت رحمة ضباط يخوضون معركتهم المصيرية في انقلاب عسكري صريح، في الوقت الذي كانت فيه نساء الدار يطهين طعام الإفطار ويغسلن الفرش والصحون ويتابعن حملات تنظيفهن التي لا تنتهي غير واعيات لأهمية الساعات الفاصلة التي تشحذ منشارها الحاد لتقتطعهن من حياتهن التي يعرفنها إلى حياة أخرى ما كن يحلمن أنها ستكون مآلهن، حتى وان لم يتابعنها مستقبلاً بوعي نشط وباعتقاد راسخ بالقدر والمصير الذي لا يمكنهن تغييره.

حين عاد الرجال باكراً من سعيهم اليومي للقمة الرزق مثقلين بأخبار الأحداث التي ضجت لها بغداد، لم يشعروا أنهم بحاجة إلى مشاركة نسائهم مثل هذه الأمور التي لربما لن تعنيهن كثيراً. في النهاية تتحكم النسوة بحياة رجالهن عبر الأشياء الصغيرة، فيما يتحمس الرجال للأحداث والمعطيات الكبيرة دون أن يدركوا ان الفُتات من الشؤون الصغيرة التي يتركونها عن طيب خاطر لنسائهم ليتكفلن بها، هي ما يسير لهم حياتهم بأسرها. ولعله قد نال سمع پري حوار زوجها مع أبيها الملاّ بعد أن عزم نفسه على سفرة سحورهم تلك الليلة، لكن ذهنها كان مشغولاً بأشياء مختلفة وهي تراقب صغيرها عادل خوفاً من أن يختطف من فراشه مرة أخرى. لا شيء يدعوها للانتباه لحوار الرجلين وهما يستذكران ما حدث في شارع الرشيد صباح اليوم وقلقهما من الساعات القادمة وما تحمله من تغيير.

في اليوم التالي ضجت بغداد مجدداً بأصوات إطلاق النار حيث كان البعثيون يلاحقون مناصري قاسم فوق أسطح البيوت ليقتلوهم حيث يثقفونهم. عند الضحى بدأت النساء يسمعن بحركة خارج الدار، أصواتاً

وضجيجاً ثم أصواتاً لإطلاق نيران فصارت شازي تقرأ القرآن وتمسح على جسدها بينما تمتمت قَيَم بكلمات في سرّها وهي تحاول المحافظة على رباطة جأشها رغم الخوف الذي انتابها. ثم حدث أن دخل الملاّ إلى الدار فجأة وبصحبته مجيد الذي لم يُرَ من قَبل في الدار في مثل هذه الساعة من النهار، وبعد ذلك بقليل دخل رضا ومعه كل من مصدق وموفق يدفع بهما إلى فناء الدار وقد بدا عليهما الامتعاض. كان الملاّ قد أمرهم جميعاً بالعودة تحسباً من أي مكروه إذ كان يخفي في نفسه خوفه من شبابهم وطيشهم الذي قد يدعوهم إلى التسرع والتهور مع أي حدث مفاجئ، وبحكمة الرجل الكبير كان يعرف أنهم كمِلّة تسكن بغداد ليسوا سوى أقلية بلا سند أو ظهر والأفضل لهم أن يتخذوا مواقف الحياد دائماً. هكذا كان يفكر الملاّ دون أن يبوح تماماً بما يجول في رأسه، رغم ان تفكيره هذا ورغبته في البقاء على طريقة إخفاض الرأس كي تمر العواصف لن تجدي نفعاً في المستقبل، فلا أولاده أو أحفاده ستنفعهم وتكفيهم هذه السياسة المحايدة.

مع اشتداد أصوات الإطلاقات النارية دق بابهم دقات قوية كأن أحدهم يضرب الباب بكفيه معاً وهو يصيح:

- ملاّ.. يا بيت الملاّ!

ثم دفع الباب فكان پرگه الذي دخل لاهثاً ومرتجفاً وهو يولول، وقد طارت عباءته النسائية من على كتفيه لتقع أرضاً.

- الويل لپرگه المسكين، قليل الحظ والبخت!

بقي يردد ذلك وهو يلوذ بالملاّ بينما كانت كل من شيرمينا ونيرمينا تحومان حوله وتموءان كأنهما تصرخان، فكان ثلاثتهم مثل زوبعة جامحة من الضجيج. وقبل أن يستفسر أحدٌ من پرگه عن حالته نفض عنه مسكنته وهلعه فجأة واتجه مباشرة نحو شازي باسطاً لها كفه:

أعطني إياها.

ـ الخرزة، خرزة اللسان المشقوق

بينما لبثت شازي تنظر إليه بعينين مفتوحتين كأنها لم تفهم ما قاله للتو، وهنا صاح الملاّ بصوت عالٍ يأمره بأن يهدأ من فوره ويفسر لهم ما به. بميوعته المعتادة قال پرگه وهو يتمايل بغنج ويبالغ بحركات ملامحه المتألمة:

ـ منذ اليوم لن تنفع أي خرزة أو حجاب من التي أعطيتها لكم في السابق. الجو تحوم فيه روائح البارود والدماء ملأت الشوارع. لن تجدي نفعاً أعمال پرگه قليل البخت بعد الآن.

حاول ان يعدّل العصابة التي يلف بها رأسه وأكمل قائلاً:

ـ سيل الدماء أتلف كل ما صنعتُه! محاه كأنه لم يكن. الأفضل ان تعيدوا لي الخرزات والأحجبة فإني أخشى ان تعود عليكم بفعل عكسي.

هنا وجد مجيد نفسه يقول بإندفاع:

ـ ما هذا الهراء!

كان ما يزال واقفاً في الفناء خلف الجمع الذي تحلق حول پرگه. وحين التفتوا إليه مستفسرين، تردد قليلاً قبل أن يكمل:

ـ ألا تدعي انك رجلُ مبروك في جوفك علم من الغيب البعيد؟ كيف لم يتسنَ لك إذاً معرفة المستقبل القريب وقد أهديت كل من في الدار خرزاتك وأحجبتك أول الأمس؟ لماذا لم تنبهنا عمّا كان سيحدث في البلد بعد ساعات قليلة فقط إذا كنت كما تدّعي فعلاً؟

انهار پرگه على أرضية الفناء الباردة منشجاً بصوت عالٍ وهو يضرب على رأسه بكفيه:

ـ يا لحظ پرگه المسكين. يا لحظه العاثر. «بد بخت»، ليتك مت وارتحت يا پرگه.

ركع رضا بجانبه محاولاً ثنيه عن البكاء وضرب نفسه عبثاً، بينما تابع الجمع حركاته بعيون مشفقة. وألقت پري نظرة عتاب على مجيد ثم أسرعت بدورها إلى پرگه تهدئ من روعه، والذي رفع رأسه بعد أن خف نواحه قليلاً:

ـ مَن تعيس الحظ الذي قال ان في يد پرگه العلم بالغيب، إنها ليست سوى محض إشارات أتلقاها. هل في مقدور مسكين وضعيف مثلي تغيير أقداركم؟ وهل تصنعون أقداركم بتنبؤاتي أم بخياراتكم؟

ثم واصل وهو يمسح أنفه بكم دشداشته السوداء:

ـ شيرمينا ونيرمينا كانتا خاملتين في الأيام الماضية، لم تنبهاني لما كان سيحدث، لم أتلقَ أية إشارة لأبلغ أحداً. اعذروني جميعاً أرجوكم. اعذروا العبد الحقير پرگه.

ثم صار يردد كلاماً أشبه بالهمهمة وكأنه يحدث نفسه وهو يقوم متثاقلاً إلى قطتيه اللتين بدأتا بالشجار والصراخ محاولاً تهدئتهما:

- پرگه هل من تغيير قريب في رزقي؟! پرگه، كل رفيقاتي تزوجن إلا أنا! پرگه، هل سيتزوج زوجي عليّ؟! أرجوك پرگه، أرجوك!

وفجأة منتقلاً من الهمهمة إلى الصراخ أكمل وهو يبسط كفيه:

- عضّي على لسانك الطويل أيتها الحمقاء ولن تكوني بحاجتي.

ثم التفت إلى الملاّ فجأة وقال مخاطباً:

- بالله عليك يا ملاّ قل لي، هل تأتي الخيارات واحدة أم فرادى؟ كل الخيارات في هذه الدنيا أسمها خيارات لأنها تأتي ومعها غيرها. ما حيلتي أنا إذا كان من ينشدني غبياً فيرجع لي بعد أيام متسائلاً بغضب لماذا لم تصدق نبوءتك يا پرگه؟ هل أصنع له تعويذات للذكاء لكي يفتح

عقله ولو قليلاً قبل أن أشير عليه بعضاتي؟! خيارك أيها الغبي غيّر مصيرك ولست أنا المخطئ.

سكت قليلاً ثم واصل وهو يزفر وقد علق نظره على شيرمينا:

ـ الإشارات التي تأتيني لا تخطئ يا ملاّ!

شعر مجيد بالحرج لوهلة من تسرعه ولبث يلوم نفسه لأيام على قساوته تلك، بينما تحرك پرگه بوهن وهو يعيد لف عصابته حول رأسه. استرجع خرزاته والأحجبة التي ما لبث يردد أنها بلا مفعول، ورغم ذلك أصرعلى أستعادتها دون أن يشرح الأسباب. وقبل أن يخرج قال وهو يعدّل من العباءة النسائية التي عاد ليلقيها على كتفيه بإهمال:

ـ إذا كنتم تريدون نبوءة فخذوا هذه، هذا البلد لن يعيش بسلام بعد اليوم وسيصل غبار خرابه إلى السماء، أما أنتم بالذات فسيضعكم تحت أضراسه فخذوا حذركم.

ونظر إلى مجيد نظرة آلمت الأخير في سره، ثم غادر الدار.

الفصل الخامس

لن يتنبه إلى التغيير من يستمر في حياته برتابة وهو مملوء بالشك والتشاؤم، فمهما بلغ من تطورات فلا شيء في داخله يبعث على المشاعر الجياشة الحادة في فرحها وحزنها وسيصعب عليه أن يشعر بتلك الفرحة التي تأخذ بأنفاسه حين يحدث له حادث سعيد أو تتحقق له أمنية. وفي المقابل فإن الأحزان أيضاً لن تلبث كثيراً وسريعاً ما ستنتهي إلى خانة الذكرى مثل جرح التأم تاركاً ندبة. وبالنسبة لهم، فإن القلق صار علامة فارقة تميَّزت بها أرواحهم التي سمنت على ما كانوا يغذونها به من تشاؤم دائم. هكذا تتخذ ملّة صفاتها العامة اذاً! هكذا يقدّر للأفراد فيها ان تتشابه طباعهم ومصائرهم بعقلهم الجمعي الذي يسيرهم دون أن يعلموا أو يتنبهوا تماماً؟

حين تحول مجيد من حمّال في سوق الشورجة إلى تاجر صغير فيها برأس مال بسيط جمعه من عرق جبينه، لم يشعر بالفرحة الكبيرة التي توازي حجم نجاحه السريع الذي ناله بإرادته الصلبة، فهو لم يشعر من قبل بحاجة إلى الفخر بقدرته على أن يبيت الليالي جائعاً بعد أن يرفض بأدب الطعام الذي تبعثه كل من بدرية وبري بين الحين والآخر. وقد تعود أن يذهب إلى النوم باكراً ليوفر ثمن عشائه آملاً في ان ينسى الجوع ولو لساعات قليلة، لكنه كان يفعل ذلك بتلقائية جُبل عليها، وقد أوحى

لنفسه انه لكي يشعر بالشبع فمن الطبيعي أن يمر بمرحلة الجوع أولاً. حين توسعت تجارته الصغيرة بشكل نسبي وفي وقت قياسي، وجد نفسه قد نسي طعم الفرح فصارت نجاحاته الصغيرة التي تتالت في ما بعد تأتي كأنها تحصيل حاصل لتعبه وإرادته التي لا تنكسر بسهولة، فكأن كل تغيير ايجابي في حياته أمر اعتيادي بالنسبة له وليس بحاجة إلى الكثير من الهرج والتعظيم. أما أهل الدار فهم أيضاً لم يكن نجاح مجيد ليثير انتباههم أو حتى إعجابهم ربما لأنهم غير مبالين ولا يتابعون الفتى وحياته عن كثب ولا يمكن استثارتهم بسهولة، كما أن الثناء والمديح ليس من طباعهم ولا حتى التشجيع المزيف الذي يحترفه البعض. وحدها پري كانت تُبدي حماساً وان لم يكن شديداً، وهي تسمع منه عن عمله الجديد وطموحاته كلما جلس إليها في الحوش مقرفصاً لتصب له الشاي ساعة العصاري قبل أن يخرج إلى عمله من جديد، بعد أن بات وجوده في الدار طبيعياً جداً بل محبباً بالنسب لپري. كما ان مجيد لم يعد يعاني من ذلك الخجل الذي رافقه في البداية فقد صار هو أيضاً يشعر بإن أهل الدار أهله فعلاً ومقربون جداً إلى قلبه. إلا ان ذكاء پري الفطري لم يسعفها للتنبؤ بنجاحاته المحتملة والقريبة، وحدها أمومتها المفرطة دائماً ما كانت تملي عليها تشجيعه والإيمان بما يحكيه لها عن آماله وما حققه في هذه الفترة القصيرة وما يرغب في تحقيقه قريباً. كان يتحدث بثقة، لكن دون أن يبدو عليه شوق متوقد. بشغف، لكن دون حماس ظاهر.

مع الوقت لم تعد پري تستقر في وجدان مجيد كامرأة عادية أو حتى شبيهة بباقي النساء، فهي لم تكن تبدو له ككائنٍ بنفس الصفات البايولوجية التي تتمتع بها كائنات «الصابونجية» مثلاً، تلكم النساء اللواتي عرف طريقه إليهن بعد أن نصحه بهن مامَلي مبدياً قلقاً عليه من

فتوته البهية وحاجاته الذكورية التي لم تكن تلبّى كما يجب بحسب رأي الأخير. غير أن مجيد لم يعد يرى پري مجرد امرأة أيضاً، فمكانتها عنده باتت تتخذ أبعاداً أعمق من ذلك ولدهشته صارت تتخذ ملامح سماوية غير قابلة للوضع موضع المقارنة أو المواجهة مع غيرها من الكائنات الحية في المطلق، فبات يشعر أنها محاطة بهالة من نور مثل ذلك الذي يحيط مريم العذراء في صورها التي رآها في الكنيسة حيث دخلها مرة ليروي فضوله العطش إلى معرفة كل ما هو خفي عنه. كان يرى پري تتنقل بين الغرف بخطواتها الثابتة وعودها المتين النحيل ويحدق في يديها الصلبتين القادرتين على تنفيذ أعقد الأعمال فيخيل إليه ان الملائكة قد خُلقت على شاكلتها القوية، الصارمة والجميلة. وما عزز مكانتها الاستثنائية أن أهل الدار جميعهم كانوا بحاجة إليها وهو ما جعله متنبهاً ويقظاً في كل مرة يسمع فيها اسمها يلفظ للمناداة، فكان ينتظر بلهفة لتأتي پري بوجهها الهادئ الذي لا يعكر صفحته الصافية سوى حاجبيها المعقودين دائماً كأنها تفكر مع نفسها دون أن تشارك أحداً ثم تلقي نظرتها الحادة على الأشياء وترمش بعينيها مرتين وأخيراً تبتسم في ظفر كأنها قد حلّت العقدة، فيتنفس مجيد في راحة واثقاً من أنها لا بد ستحلّها على أكمل وجه فهي تبدو مهووسةً بالإتقان ولا يمكنها ترك الأمور في منتصفها أبداً. الطبخة التي تطبخها شازي بحاجة إلى اللمسة الأخيرة من يد پري لتصبح أزكى طعماً، بينما النظافة وترتيب الدار مما يتم بإشراف قَيَم فلا بد وأن توضع عليه لمسات پري، سيما بعد أن تعرفت على الفروق بين الطهارة والنجاسة، حيث تعلمت أصولها من جارتهم العربية المتدينة والتي شهدت هوس الشابة بالنظافة فوجدت من الحكمة تعليم هذه الأمية الجميلة ولو القليل مما يمكنه التخفيف من هوسها ووسوساتها. وحين اشترى الملاّ غلام علي المروحة الكبيرة

ليصبحوا بذلك أول بيت تدخل إليه مروحة في المنطقة، والتي كان قد نصبها لهم تقني أطلقوا عليه لقب مهندس إكباراً منهم لقدرته على فهم هذه التقنيات المتطورة المثيرة، حتى هذه المروحة تعلمت پري كيف تصلحها بعد عطل مفاجئ أصابها. ويذكر مجيد أنه ابتسم لها أكبر ابتساماته على الأطلاق مذ دخل دارهم ليعيش فيها، حين هزت كتفها بتواضع قائلة:

ـ بسيطة لقد كنت متنبهة لكلام المهندس يوم نصبها ليس إلا.

لكن هذا كله لم يكن السبب وراء إعجاب مجيد پبري على هذا النحو، وحتى هو لم يكن في دواخله يعرف كيف ولماذا تكونت حول پري مثل هذه الهالة التي تشع بهاءً، هذا الشيء الشبيه بالضوء المحيط بمريم العذراء تلك التي يصلي لها جيرانهم المسيح بخشوع جدير بالثناء، غير أن پري ليست عذراء ولها رغم سنوات عمرها الفتية قبيلة من الأطفال، ولا يبدو ان في نيتها التوقف عن انجاب المزيد على الرغم من العناء النفسي الذي كان يلازمها مباشرة بعد ولاداتها جميعاً. لعلها شخصيتها أو لعله قربها وشبهها به. لا يدري. فهي رغم جمالها الطبيعي لا تثير فيه أثراً من شهوة، كما انه لم يجرؤ على التفكير في ذلك إكراماً لإبن عمه رغم انه أحياناً ما تخيل پري في الفراش مع مامَلي من باب الفضول فحسب، فلا يكاد عقله يصدق الصورة. حتى وهي تهبط إلى العالم الدنيوي لتمارس فعلاً حيوانياً بحتاً فإن پري لا تتشابه في ذهنه والعاهرات اللواتي يعرف، رغم ان الفراش هو الفراش والنساء سواسية حين يصرن فوقه، إلا أنه كان ليخيل إليه أنها تعطي الجنس بمناضلة الشهداء الباذلين أنفسهم، المترفعين عن الرغبات المادية، المستشهدين بين يدي العقائد التي تدّعي الحقائق الشاملة. وكانت هذه أول مرة يرى فيها مجيد الجنس بعيداً عن البصاق والعرق والمياه القذرة

التي تذرف وتنقع فيها الأجساد الدنيوية المبتذلة. هكذا هي اذاً الفطرة حين تتناول الأمور الحسية وتلجها من الباب بدل القفز إليها من الشباك؟! حين يقوده عقله ولعلها فطرته إلى التأمل في الممارسات الجنسية الأنيقة، هو القادم من قرية غارقة في الطين وغائرة في أعماق الطبيعة ومنسية بين أحضان الجبال والوديان، لربما ليس سواها الفطرة إذن يمكنها ان تبرر مثل هذه الانعطافة النفسية نحو السمو والترفع فيما يخص الغرائز الإنسانية المَهينة.

كانت قد أخبرته مرة وبشكل عابر أن لديها وسواس نظافة مقلق، ذكرت له ذلك وكأنه أمر اعتيادي وهي تضحك مقلِلة من شأنه. وقد لاحظ مجيد الأمر قبل ذلك، حيث تنبه إلى أنها تغسل كفيها مرات لا تحصى ما يفسر سبب منظر جلد يديها المتقشر دائماً. وحدث أن عاد إلى الدار مرة فرآها واقفة على كرسي تحاول صب الماء فوق باب غرفتها، فسألها باستغراب عمّا تفعل فردت أن برصاً لعيناً كان يقف على بابها فضربته بنعلها ولم تخطئه وهي بحاجة إلى إزالة نجاسته فوراً. ثم توقفت فجأة عن صب الماء مستطردة:

- هل برأيك عليّ تطهير حيطان الغرفة أيضاً، من يدري قد يكون دخل إليها أيضاً.

- لستِ بحاجة إلى كل ذلك، يكفي أن تزيلي قذارته.

- كيف دخل وانا حريصة على إغلاق كل المنافذ.

تمتمت وهي تعود إلى صب المياه بعد أن زالت عنها قشعريرة انتابتها لثواني. حاول مجيد جاهداً ثنيها عن عزمها على إخراج كل ما بالغرفة لتعقيم الحيطان، ثم نجح أخيراً في إقناعها بأن البرص لم يدخل إلى غرفتها نهائياً ما دامت الغرفة مؤمّنة، وأنها قد وجدته في الوقت

المناسب تماماً قبل أن يحط بنجاسته على حيطانها النقية. وشعر أنها هدأت قليلاً مع تطميناته المتواصلة وربما ثقتها فيه دعتها لتصديق ان البرص لم يأت من غرفتها ولم يدخلها أساساً، وقلبت عينيها على الجدران متخيلة الأوساخ والقذارات المصاحبة لهذا الحيوان الكريه وقد انتشرت في غرفتها، فعاودتها القشعريرة لتسري في كامل جسدها. ورغم ذلك بدأ الخوف ينجلي عنها شيئاً فشيئاً حتى حل محله إحساس بالأمان والأطمئنان وان لم يكن ذلك الإحساس راسخاً حقاً لكنه كان مريحاً بالنسبة لها.

في مرة أخرى عاد مجيد إلى الدار وقت الضحى لأمر طارئ فرأى پري في الفناء تعتني بتنظيف إبريق شاي نحاسي فيما جلست شازي على تختة تتشمس تحت أشعة شمس ربيعية، وقد غُسلت أرضية الفناء بطابوقها الأصفر بعناية وبدا كل ما في الدار مرتباً ونظيفاً بعد أن انتهت النسوة جميعهن من الأعمال وإنفردت كل من بدرية وقَيَم بنفسها إما لأجل الصلاة والمناجاة أو لأخذ قيلولة سريعة. حث مجيد خطاه إلى غرفته قبل أن يتوقف لمراقبة پري التي لم تكن قد شعرت بوجوده وهي منهمكة في تلميع الإبريق، فكانت تمسحه بعناية ثم تضعه تحت الشمس وتدور حوله للتأكد من نظافته التامة. نظر إلى عينيها فوجدهما تكادان تخترقان الإبريق من شدة ما تحدق فيه لاهية تماماً عمّا حولها وقد عقفت ملامح وجهها وصلبت يديها وهي تعمل بجد، فعرف ان حالة الهوس قد أصابتها بشكل بالغ وانها لا بدّ مسيطرة عليها كلياً في تلك اللحظة وما من وسيلة سهلة لتستعيد وعيها. ودون أن يتردد تقدم منها ثم حمل الإبريق بكفٍ واحدة وضربه عدة مرات بالأرض الصلبة حتى إنبعج لينا ولها إياه قائلاً

- الآن يمكنك تنظيفه.

ثم عاد يحث خطاه إلى غرفته بينما وقفت پري في ذهول تام وقد فاجأها وجوده في الدار من الأساس. وأحست بدوار خفيف فجلست على الأرض في مكانها والقت الأبريق إلى جانبها بإهمال دون أن تنظر إليه.

أما شازي التي صدمها الصوت المفاجيء لقرقعة الإبريق التي أفسدت عليها تأملاتها وأفكارها فحدجته بنظرة نارية مستاءة ثم ما لبثت ان عادت إلى عالمها الذي انتشلها منه. ولو فتشت شازي في دواخلها لما وجدت أي مشاعر لتأنيب الضمير للكارثة الجديدة التي كانت في نيتها للتو، فدائماً ما يوجد عندها التبرير الذي يقنعها بتصرفاتها. اما المشاحنات التي كانت في السابق تختلقها مع أهل الدار فقد خفّت بعد أن صاروا جميعاً يتجنبونها من أجلها هي قبل أن يكون ذلك من أجل أنفسهم، كي لا تتعرض للضرب والإهانة من رضا الذي لم يكن يجد أي وسيلة للتعامل معها سوى عنفه المتزايد، على الرغم من أن ذلك لم يأت بنتيجة معها، إلا انه بالنسبة لرضا فقد كان مرضياً لبعض الوقت ويخفف من الضغوط الكثيرة التي كان يوضع فيها بسببها. قبل أشهر قليلة كاد رضا في لحظة خرقاء ان يقتل نفسه بعد شجار حامٍ معها حين كان يوبخها على قلة الاحترام والألفاظ المعيبة التي استخدمتها مع الناس والباعة في أثناء تجوالهما في السوق. قال انه يخجل من الظهور معها في أي مكان لأنه يبقى مطأطئ الرأس بسبب تصرفاتها الوقحة ونظراتها المباشرة في أعين الرجال دون حياء. ومن شدة خجله كان رضا يجد نفسه عاجزاً أمامها حيث لا قدرة له على مواجهة الناس أو إيقاف عبثها في وسط الشارع، لكنها ما لبثت تجادله بعناد وترد الكلمة بأكثر منها وتزيد. وكلما كانت شازي تلجّ في عنادها كان يهيج بركان غضبه منها ويشعر برجولته تقف مكبلة أمام جبروتها المغلف بأنوثتها الجارحة، وقد

حدث يومها أن خرج رضا من غرفتهما في محاولة للفرار بنفسه منها فلاحقته إلى الحوش ملحة فما كان منه إلا ان ألقى بنفسه على نقطة الكهرباء وكسرها بلكمة واحدة في محاولة يائسة لكي يُصعق فيستريح من عذابها ومن صوتها الذي ينخر رأسه مثل السوس ويكاد يتلف عقله. غير انه في تلك اللحظة الفارقة رآه ابن أخيه موفق وأبعده بسرعة في الوقت الذي إجتمع فيه أهل الدار جميعاً مستفهمين ليعلو هرج شازي وهي تصرخ:

ـ أرأيتم كيف حاول قتل نفسه ليلقي بذنبه عليّ! إنه مجنون.. إني أعاشر مجنوناً.

صرخ فيها الملأ ليخرسها لكنها لم تكن لتفوت الفرصة، فاستمرت تهمهم بكلمات كثيرة غير مفهومة ومتقطعة. ثم حين وجدت الجميع وقد التفوا حول رضا ليواسوه ويخففوا عنه صدمته في محاولة لانتشاله من حالته السيئة، إفتعلت مسرحية إغماء وانهارت على الأرض مثل شجرة قطعت بمنشار حاد. ودارت حولها كلاً من مريم وبري واحدة تفرك كفها والثانية ترش وجهها بالماء، وبعد دقائق قليلة كانت شازي قد صدقت كذبتها واستسلمت لغيبوبتها في شبه نشوة وقلبها محقون بالغضب والعناد والسخط على حظها التعس الذي أوقعها في زوج تتفنن في عرض مشاكله وعيوبه أمام عينيها وقلبها لتخلق الأعذار ولتشفق على نفسها منه كلما ضاقت بها سبلها عن التنكيل به.

شهور قليلة فقط مرت على تلك الحادثة قضاها رضا في صمت وهدوء. كان عقله قد توقف عند سؤال واحد وهو كيف تمكن من تحمل شازي هذه الفترة الطويلة والثمينة من شبابه وحياته؟ كيف كان يعتاش على أمل ان تتغير؟ ستكبر وتعقل، ستنجب ثم تعقل، وربما كان

هذا الأمل المستمر في التغيير هو الذي جعله يصبر كل تلك السنوات، على الرغم من أن التغيير معها لم يكن إلا إلى الأسوأ. لكنه الأمل ما جعله في حالة انتظار دائمة لم تأت بثمارها أبداً.

بعد هذا كله لم يعد خيار مثل الانفصال عنها بكافٍ بالنسبة له، وبعد ان قرضت من عمره تلك السنوات وهي تنهش قلبه دون ندم يذكر، لم يعد عقله ليحتمل فكرة تواجدهما في الحياة نفسها فقد صارا في نظره متعطبين ولا يصلحان للعيش، وانتهى إلى أنه يوماً ما إما سيقتلها أو سيقتل نفسه. ورغم ما في ذلك التفكير من قسوة وخطورة إلا انه لم يخَف من هذه النهاية كما كان يظن.

* * *

ندمت پري على مشاورتها أختها رغبتها في الجمع بين أختهما الصغرى مريم ومجيد، حين استقبلت فرصت ذلك باستهجان شديد سيما بعد أن اخبرتها پري أن الشاب لم تبدر منه أية رغبة وان كل ما في الأمر هو قناعتها الشخصية بكونه مناسباً. اعتبرت فرصت ان مجرد التفكير في ذلك عيباً فاضحاً يخترق غشاء سمعتهن الطيبة وينكس الرؤوس المتفاخرة بشرفها، وقد تجاوزت عرض أختها بصعوبة فلبثت غير مصدقة ومستهجنة في الوقت نفسه، لكنها سرعان ما تناست ذلك لتنغمس في حياتها ورعاية أولادها وتلبية أوامر زوجها العجوز العبوس. ولم تكن فرصت لتعلم بما يدور في رأس أختها لأنها لم تعطها الفرصة لتدلي بكل ما عندها، لا سيما وقد أحجمت پري عن البوح بكل ما في صدرها بعد ردة فعل الأخيرة. كانت پري خائفة من فكرة ترك مريم ليزوجها الملا بحسب هواه فينتهي بها الحال مثلها هي وفرصت. سيزوجها والدهن من رجل يكبرها بسنوات عدة وستتخذ حياتها قالباً واحداً وتراوح مكانها في أفضل الأحوال هذا إذا كان حظها جيداً بمقارنة

نسبية مع أختيها. وخزات تأنيب الضمير رافقت پري طويلاً فلم يكن من السهل ان تفصح عن أفكارها تلك حتى وان تقبلت فرصت رأيها برحابة صدر. وهي تعلم ان من المعيب التفكير على هذا النحو وبهذه الجرأة فخلف مثل هذه الأفكار تنضوي رغبات غير مشروعة حتى وإن كانت تلميحية وغير واضحة تماماً. لكن الله وحده أعلم بالنيات هكذا كانت تحدث نفسها رغم ما كان يصيبها أحياناً من الخجل بسبب جرأتها الفائقة وهي تتخطى أعرافهم وتقاليدهم في محاولة جريئة لتجنّب أختها مصيراً مثل مصيرها هي وفرصت. كانت لها رغبة جامحة في أن يصبح الشاب الذي دخل إلى بيتهم وصار فرداً منهم، أكثر قرباً وأعز مكانة وفي نفس الوقت تطمئن على أختها الصغرى معه وكان ذلك ما يشجعها على المضي قدماً. إصرارها على إنجاح فكرتها والميانة التي نشأت بينها وبين مجيد حملاها على التلويح له بالفكرة من بعيد في بادئ الأمر دون أن يفهم مجيد الإشارة. وقد قابلت پري قلة اهتمامه بصبر وعملت كي توحي له باتخاذ القرار بنفسه بحيل النساء الساذجة من الاهتمام بهندام مريم إلى ادعاء أن الطعام المطهو بعناية والذي يقدم له بإصرار بين الحين والآخر هو من صنع يدي أختها التي كان الطبخ ولوازمه آخر اهتماماتها. ولم يبدو على مجيد انه قد فهم كل تلك التلميحات ربما لأنه لم يعتبر نفسه يوماً عريساً قد ترغب فيه أسرة إلى حد ان تُنَفذ خطة خفية للأيقاع به، هذا بالإضافة إلى كونه لم يفكر قط في الزواج حتى ذلك الحين. ثم كان يوم ان فاتحته پري في مفاجأة لم تكن تتوقعها هي نفسها، فاهتز صحن الشاي الصغير بين يديه لوهلة ثم عاد بشفته إليه وشرب في ثوان كانت ثقيلة على پري، وندمت خلالها على مفاتحته ثم تراجعت بسرعة وهي ترى أنها أخيراً قد ألقت بحمل الفكرة على عاتقه بعد أن كانت رغبتها تلك تنام وتأكل وتشرب معها لأيام. أما مجيد ففي

لحظات قليلة فقط عصفت به صور عديدة كلها كانت تدور في رأس پري فرأى نفسه محط اهتمام هذه الأسرة ومرتبطاً بها إلى الأبد عبر واصلة النسب. رأى علاقته بالملاّ الذي يحبه ويحترمه كثيراً وقد أصبحت أمتن وأكثر رسوخاً، وأهم ما في ذلك رأى ان ارتباطه النفسي پبري سيستمر ويقوى هو الآخر. ورغم أنه لم يشعر أبداً بالإصرار على شيء مثل إصراره على عمله والنجاح في كسبه المادي، إلا أنه شعر بأن من حقه التركيز على رغبته في أن يتواجد دائماً بالقرب من هذه المرأة التي تنزل في نفسه منزلة خاصة. لا يمكنه أن يتصل روحياً ببشر غيرها وهو إذا ما عاد إلى التفكير بفطرته النقية دون أن يستعين بالدهاء والخبث اللذين بدأ يكتسبهما من الحياة في السوق، فإنه بفطرته قادر على تمييز الفكرة التي تنبثق من عقله والفكرة التي توردها له پري حتى دون أن تتعمد.

رد عليها بهدوء:

- ترى هل سيقبل عمّي الملاّ بمن هو مثلي.

نفخت پري من أنفها ثم همست:

- ألن يرضى بك، وقد رضي بذلك الأعور ذي الخمسين عاماً!

ثم استدركت بحماس قبل أن توجه له إهانة أخرى دون أن تقصد:

- وما له الذي مثلك؟ ها إنك تكسب قوت يومك بجدارة، تكسب أكثر من حاجي زوج فرصت ومن مامَلي، والرجل عندنا يقيّم بجيبه. ولا تنسَ أنك منّا بل أنت أقرب إلينا من غيرك. ثم إنك تتمتع بالشباب والفتوة حتى وإن لم تكن مثل هذه الصفات في حسبان والدي، إلا أنها سترجح كفتك حين نشير إليها.

بهذه الطريقة نُقلت الفكرة التي عاشت عليها پري لأشهر الي عقل مجيد وبات هو في مكانها الآن وقد تمكن منه هذا الحلم وهو يتغذى على تطميناتها المستمرة بألاّ يقلق. وفي خضم هذه الأفكار والرغبة التي تنمو يوماً بعد يوم، لم يفكر مجيد ولو لمرة في مريم. كانت لا تزال تمر أمامه فلا يكاد يراها. هزيلة وضئيلة، شقراء باهتة الملامح والشخصية. لم تكن فيها أي من مواصفات أخواتها فهي أقلهن جمالاً، أما شخصيتها فلربما كانت تذكر أهلها قليلاً بابنتهم الراحلة قسمت فهي تنتقل بين الغرف ببطء وتعمل ما يطلب منها ببطء وعدم إتقان كأنها تتعمد ذلك كي لا يعاودوا طلبها في شيء. لا تتحدث كثيراً لكنها إذا ما تحدثت فإن لها حس فكاهة لاذع، وحين تضحك من النكات التي ترويها بنفسها فإنها لا تتوقف بسهولة. كانت قليلة الأكل ضامرة الجسد وملامحها تبدو كأنها بلا عنوان من النظرة الأولى، لكن بعد التدقيق سيتضح ان لها خدين محمرين دائماً وذؤابات شقراء وعينين عسليتين مائلتين إلى الإخضرار وأنفاً كبيراً مقارنة بباقي ملامحها فكان ليبدو واضحاً وهو يتوسط وجهها النحيل. ولم تكن من هي مثلها وفي مثل سنها لتثير أي شاب للتقرب منها لكن مجيد لم يعد ينظر لها إلا كمشروع زوجة بعد أن أدخلت پري الفكرة في رأسه وبدأت تغذيها بتمليحاتها وايماءاتها كلما مرت مريم اللاهية عن العالم من أمامهما. فكان مجيد يلقي عليها نظرة بلا اهتمام ثم يعود إلى أحلامه، حتى شجعته پري أخيراً وهي تشير إلى مكاسبه المادية التي تتزايد يوماً بعد آخر، وكيف ان ذلك سيعزز من حظوظه لدى والدها الملاّ. وفي الواقع لم يكن ذلك ليثير اهتمام الملاّ كثيراً فهو لم يزوج بناته الأخريات استناداً إلى ما تختزنه جيوب أزواجهن من أموال. أما خوف مجيد فقد كان مبرراً فهو متخوف من فكرة ان يعتبره الملاّ خائناً لأمانة الدار وقد وقع

بعينيه على إحدى بناته، وحدّث پري بمخاوفه مرة فقالت له بحماسة وهي تخفض صوتها:

ـ ما رأيك لو تخبر أمي أولاً، قد يسهل ذلك من أمرك.

تردد مجيد قليلاً ثم قلب الفكرة في رأسه لفترة حتى حسم أمره. وقابلت بدرية طلبه الخجول منها بترحاب عظيم لم تبده وأضمرته في نفسها قائلة بانكسارة خجولة:

ـ هل سنجد من هو أفضل منك يا بني، لكن أمرها وأمرنا في يد والدها.

كانت تلك الجملة مجرد وهم تغازل به ذكورته وهيبة زوجها معاً، فهي قد وافقت في سرّها للتو ولنَ ترجع عن ذلك، عليها فقط بدهائها غير المزخرف والمسلط على الملاّ دون شيئٍ سواه، ان تقنعه بأنه على وشك اتخاذ قرارٍ عظيم بشأن ابنته مريم. ليس ثمة أفضل من تزويج الفتيات بسرعة بالنسبة لبدرية، وهي تعلم ان مريم مختلفة عن باقى بناتها فكلهن كن يتمتعن بدرجات متفاوتة من الجمال إلا هي التي لم تكن فيها ميزة جمالية سوى أنها شقراء بين أقوام من الناس تقدر البياض الباهت والشعر الأشقر. ولم تطق بدرية صبراً ففاتحت الملاّ مباشرة في تلك الليلة دون أن تعنى بعودته متعباً أو باختيار الوقت المناسب. تعجب الرجل لوهلة ثم ألقى بچراويته على الفراش وطلب منها ان تكرر ما قالته للتو، إذ لم يكن ليصدق ان الفتى الذي قدم إليهم صغيراً ومعدماً قد نمى الآن وهو يطلب يد ابنتهم للزواج. وطفق الملاّ يفكر بينما إرتسمت ابتسامة هادئة على محياه، إذاً فهذا سر ارتباك الفتى وتواريه عنه كلما رآه في الأيام السابقة. ولم تكن مهمة بدرية بتلك الصعوبة فقد بان أن الملاّ راضٍ رغم سؤاله لها بشكل مباغت ان كان قد حدث في الدار أمرٌ لن

يرضيه، فسارعت بدرية إلى نفي ذلك وهي تؤكد ان الفتى نادراً ما يُرى في فناء الدار واذا ما جلس إلى أحد فغالباً ما يكون مامَلي أو پري ولم يحدث ان تحدث إلى مريم أو شوهد وهو يطيل النظر إليها حتى. اقتنع الملاّ بسرعة فأخلاق مجيد كانت لتعزز ما سمعه للتو، وسرح بخياله ليراه وقد صار مقرباً منه أكثر من أخيه رضا المشغول بهمومه ومن ولديه مصدق وموفق اللذين لا يبدو أنهما سيكونان عونا له على هذه الدنيا بقدر ما يثيران قلقه وتفكيره. ثم تذكر في خضم هذا ان مجيد الذي قدم إليهم قبل سنوات قليلة بسيطاً ومعدماً قد بات يملك اليوم مشروعاً صغيراً في الشورجة وما يميزه عن نسيبيه وولديه وأخيه أنه رغم صغر سنه يتمتع بذكاء متقد وفتوة ظاهرة وطموح دائم لا يخبو. ونام الملاّ ليلتها وهو يحلم بهذه الفرصة الطيبة التي نبتت له من عقر داره دون أن ينتبه إليها أو يرعاها بنفسه. وعلى الرغم من أن مجيد كان دائماً نصب عينيه إلا إنه هيئ له بأنه لم يتعرف على مكانته في قلبه إلا في تلك اللحظة فقط، فنام سعيداً حاعلى مثل شاكراً الله على مثل هذه الفرص التي تأتي دون تخطيطات مسبقة.

في الأيام القليلة التي تلت ذلك لم يلتقِ الملاّ بمجيد وهو في طريقه إلى الخان كما كان يحدث أحياناً، فقد تعمد الفتى الآ يصطدم به مذ تجرأ على التفكير في الزواج من ابنته. كان يشعر بعارض من الخيانة يخز قلبه، وكانت الأسباب كلها غير وجيهة فهو لم يكن يضمر في سره أمراً مخجلاً، لكن مشاعر الشرف والغيرة لم تكن تفارق كيانه. وعقد العزم على أن يرحل عن الدار دون رجعة ما ان يسمع برفض طلبه حتى يجنب نفسه المهانة. ثم تذكر انه بذلك سيفقد علاقته پبري إلى الأبد، لكنه عاد ليتشجع مؤملاً نفسه بالمكانة والقرب اللذين سيتمتع بهما إذا ما قوبل طلبه بالايجاب. وحين طال تردد الفتى ومرت أيام عدة دون أن

يظهر نياته المباشرة قرر الملاّ ان يفاتحه بنفسه متجاوزاً كل أعرافهم الثقيلة وقوانين العيب، ربما لأنه كان يشعر بأبوته تجاهه، ما لن يدع مجالاً لخدش حيائه الرجولي حين يعرض بنفسه أمر ابنته عليه. ثم إن منزلته وعلو شأنه سيساعدانه على تناسي ذلك سيما وأن النتيجة ستلهيهم جميعاً عن تتبع مثل هذه الصغائر التي يستعظمونها. وحين صارح الملاّ مجيد بحذر لم يفاجأ الأخير لكنه شعر بالخوف والرهبة، وبعد تردده لوهلة فكّر بسرعة أن هذه فرصته الوحيدة وها هو الملا يدفعه إليها دفعاً فحريٌ به ألا يتكاسل عنها. وبما ان مطلبه يعد أمراً فيه ندية واضحة فعليه ان يكون على قدره إذن، فوجد نفسه مضطراً لإستجماع شجاعته وهو يطلب يد ابنة الرجل الماثل أمامه محاولاً تجاوز الرهبة التي شعر بها قبل قليل، فبدا ثابتاً وواثقاً من نفسه. وعلى الرغم مما كان يشاع عن الملاّ من كونه رجلاً حكيماً وله هيبة وتقدير راسخين إلا أن طيبته وبساطته غالباً ما سيطرتا على أفعاله فكان رده بالقبول سريعاً ومباشراً والقى عن كاهل الفتى أحمالاً أثقلته لأسابيع. وهكذا، عمّت الدار فرحة وجرت ترتيبات الزواج أسرع من المعتاد سيما بعد أن زارت قسمت بدرية في المنام ونصحت أمها بالتعجيل. وربما كانت تلك فعلاً دفعة من القدر أو الحظ أو الشياطين أو أياً كان لكي يتجنبوا مصيبة أخرى كانت ستحل بهم وتكون السبب في تأخير الزواج لسنة أو اثنتين.

أيام عدة تلت الزفاف عاشها مجيد كأن لم يطرأ حدث جديد ومهم على حياته، مذ زُفت مريم إلى غرفته الضيقة التي جُددت بأثاث بسيط لاستقبال العروس الصغيرة، وقد تفاجأ من ردة فعل قَيَم التي ضربت على صدرها ما ان فهمت من ردة فعله على تلميحاتها أن مريم كانت ما تزال عذراء.

- لست مستعجلاً، وهي أصغر من أن تفهم ما يحدث لها.

قال وهو يشيح بوجهه عن قَيَم منهياً الحديث. إذ لم يرَ مجيد أي سبب يجعله يسرع لإثبات رجولته على الفتاة الصغيرة التي صارت تسمى زوجته. لا شيء فيها يثير غريزته بل ولا حتى اهتمامه. جسدها النحيل وصدرها الممسوح وملامحها الباهتة كل ذلك كان مدعى لتقفل نفسه عنها. ومع مرور الأيام التي تلت زواجهما بدأ يشعر بالإنزعاج من الإلحاحات والتلميحات التي لاحقته بها كل من قَيَم وبدرية، فقرر أن ينهي الأمر لكي يستريح منهما فقط، سيما وقد تناهى إلى سمعه أنهما على إستعداد للإستعانة ببرگه لإتمام ذلك.

ـ برگه مجدداً. عليه اللعنة!

همس لنفسه، وقد ضايقه أنهما لربما تصورتا أن العارض يكمن في رجولته وعليهما لهذا الاستعانة بالشعوذة لإذكاء جذوة فحولته. لم يكن الأمر صعباً لكنه كان ثقيلاً على قلبه مثل مهمة مقيتة، ولبث يؤجله يوماً تلو آخر حتى واتته الهمّة بشكل مفاجئ فقرر ان يستثمرها مغلقاً أذنيه عن تساؤلات الفتاة الغشيمة التي بين يديه.

الفصل السادس

ليست الرغبة في الموت بل عدم الرغبة في الحياة ما كان يدعوه للتفكير بإيقاف حياته بنفسه، إذ لم يفتأ رضا يفكر في الموت بعد الحادثة التي حاول فيها صعق نفسه، فجرأته في ذلك اليوم على مقاربته بهذا الشكل المباغت صارت محفزاً قوياً له على عدم الاكتراث به. فبين ثانية وأخرى كان سيغيب عن هذا العالم وربما كانت ستنتهي الآلام التي صارت تشتبك في صدره كما ان إحباطاته لا بدّ وانها كانت ستتلاشى ما ان يلج عالماً مختلفاً، ولعله سيعطى فيه فرصة أخرى ليبدأ من جديد، روحاً بيضاء طليقة خالية من العلل، ومتحررة من كل ما كان يكبلها على هذه الأرض. ولم يكن رضا متديناً أو حتى على درجة بسيطة من التفقه ليتذكر ان الانتحار يعد حراماً في شرعهم، رغم ان ذلك لم يكن ليغير شيئاً بالنسبة له فإنعدام شهوته للحياة بات يسيطر عليه إلى درجة أنه كان مستعداً لخلق أعذار عديدة وربما ستكون معقولة أذا ما عاتبه الرب على فعلته. يكفيه ان يصف له خيباته والشعور المقيت الذي يملأ جوفه، فداخله متآكلٌ وفي عقله جحافل من النمل تنهشه وتطن في رأسه في دويٍ مستمرٍ لا يهدأ. وكلما كان يصادفه شبحٌ في أثناء غدوه ورواحه في الدار كلما كان يزداد إيماناً في سره ان موته قد اقترب فيحاول مشاكسة الأشباح التي يصطدم بها إذ لعلها قد قدمت لأخذه. رغم ذلك فقد داوم

على حياته في تلك الأيام بهدوء دون أن يبدو عليه هلع ودون ان تطفح هواجسه من قاع روحه المهزوزة القلقة فلم يكن يبدو عليه ما يريب وواصل تجرع آلامه بصمت واهن.

أصابته بشكل مفاجئ حالة من الهوس بابنة أخيه المنتحرة، ولبث يسترجع ذكراها من غير أن يتوصل إلى أية تفصيلة أو معلومة كانت ستقوده إلى معرفة الأسباب التي دعتها للانتحار. ولأنه لم يعش وإياها ذكريات تفصيلية ولم تكن في حياتها تثير اهتمامه أو متابعته، فقد وجد عند أخته الكبرى قَيَم الحل لإرواء فضوله العطش إلى كل تفاصيل قسمت، تلك التفاصيل التي لم يتنبه لها في حياتها وصارت هوساً له بعد مماتها. وكانت قَيَم تجيب عن تساؤلاته بعدم اكتراث كأن ليس بها رغبة لإستذكار الأموات، في الوقت الذي كان رضا يدير فيه دفة الحوار بذكاء محاولاً عدم دفعها للقلق عليه من الأسئلة الكثيرة التي كان يسألها حول قسمت وحياتها القصيرة وتصرفاتها التي سبقت موتها، ثم الظهور المتكرر لشبحها في الدار. إلا ان قيم لم تشف فضوله وتعمدت ألا تبد اهتماماً ملحوظاً وهي تذكر ان الفتاة كانت غريبة الأطوار بعض الشيء، فقد كانت مهووسة بالتنظيف والترتيب ولها مزاج مبتهج أحياناً، إلا أنها كانت تتراجع عن هذا المزاج في أحايين كثيرة أخرى، فتنزوي لأيام عديدة في كآبة حادة لا تغادر بسببها بيت زوجها إلا لماماً وتنام لساعات طويلة وتهمل نفسها وكل ما حولها ولا سيما الاعتناء بأطفالها. وقد حاول رضا ان يستزيد أخته تفاصيل أكثر لكنها أبدت تبرماً من كثرة اسئلته، ولم تطلعه على أية أسرار ظن أنه سيجدها عندها. مع الوقت لم يتمكن رضا منع نفسه من الإعجاب بما اعتبره شجاعة من قسمت، حتى بات يقر بينه وبين نفسه أنه لا تنقصه شجاعة مشابهة. وحين نضج ألمه كما يجب لم يعد بحاجة سوى إلى جذوة تذكيها مشكلة جديدة لكي يتخلص من حياته بأي طريقة مثالية متاحة.

وكان صباحاً شتوياً آخر. تلقت پري الخبر بينما كانت تشرب الشاي عند إحدى جاراتهم وذهنها مشغول بالطعام الذي ستطهوه حال عودتها إلى البيت وبقية الأعمال المنزلية التي تنتظرها. كانت پري والجارة الآشورية تتحدثان العربية بركاكة بما أنها اللغة الوحيدة المشتركة بينهما، لكنهما مع ذلك تمكنتا من إدارة حوار نسائي شامل. ولم تكن زيارات پري تطول ابداً لأكثر من نصف الساعة لحساسيتها المفرطة من أن تثقل على الجارة العجوز رغم تشبث المرأة بصحبتها ورغبتها الحقيقية في إستبقائها. وحين كانت على وشك المغادرة فعلاً طرق موفق الباب طرقات خجولة ونطق كلمات مترددة من خلفه قبل أن يأتيه النداء الشهير: ـ منو؟

ـ پري، عزيزگم هلاّ عدتِ إلى البيت.

وخزها قلبها مباشرة قبل أن يكمل موفق:

ـ إنه عمّي رضا. يبدو قد أصابه حرقٌ بسيط.

ستتذكر پري لسنوات كيف صار جسدها كله يخزها من الهلع الذي أصابها وهي تركض في الدربونة، وقد بدأ صوت سيارة الإسعاف يعوي قريباً جداً منها دون أن تتمكن من اللحاق بها. جسدها كله كان يخفق لدويّ قلبها الذي صار يطرق صدرها بقوة، وعقلها مشلول لا يمكنه سوى الإيعاز لها بحركات تراجيدية لم تعرف من قبل أنها تجيدها. لم تكن قد شعرت بعباءتها التي طارت مرفرفة لتهوي على مجرى الماء أو فوطتها التي إنحسرت عن رأسها وكادت تكشف شعرها كله، إلا حين جذبها أخوها موفق وأدخلها إلى البيت عنوة، حينها فقط شعرت بنفسها خفيفة من كل الأحمال التي ترتديها، ووجدت الدار في حالة من الوجوم على الرغم من نحيب قَيَم الآتي من المطبخ، بينما استقبلتها أمها وهي تخدش خديها هامسةً من بين أسنانها:

ـ انظري لما حلّ بنا!

كان واضحاً ان عاصفة قد مرت بالدار بشكل خاطف وتركت آثار دمارها جلية ورغم ذلك كان أولاد پري يلعبون مع خالتهم الصغرى سهام في فناء الدار كما تركتهم وكأن شيئاً لم يكن، أما شازي فكانت تدور بين الأغراض المكركبة تعدّل منها وعلى وجهها مسحة من هدوء مصطنع، كأن زوجها لم يقم بحرق نفسه منذ دقائق فقط. لم تسأل پري أحداً كيف ولماذا حدث ذلك، ففيما بدا لها ان المصائب غير قابلة للتأويل أو الشرح، كأنها حدث طبيعي منتَظر. لكنها لم تطق صبراً على المكوث في الدار وأصرت على موفق ان يأخذها إلى المستشفى بعد أن علمت ان عمّها قد نقل إليها برفقة مصدق ووالدها فقط. وكاد قلبها يقع منها وهي تسير في الممر المؤدي إلى الغرفة فقد كان صوته يصلها وهو يئن ويتأوه من شدة آلامه. إستجمعت شجاعتها ودفعت الباب لتطل برأسها مترددة لتجده مستلقياً في الفراش عارياً يحجب نصفه السفلي بغطاء ممسكاً به من طرفيه ليهفو به وهو يتلوى من الألم وقد بانت على جسده آثار حروق ودخان، إلا ان وجهه كان سليماً كما عرفته دائماً. حين وقع نظره على وجهها الذي أطل متردداً من خلف الباب هتف رضا:

ـ قسمت؟ قسمت..

فهرعت إليه وقد صارت تبكي وترتجف: ـ عمّاه هذه أنا پري. خدايا! ما الذي فعلته بنفسك؟

فالتفت عنها كأنه لم يسمعها:

ـ نارا جسدي يشتعل. خذيني اليك يا عزيزة قلبي.

لم تطل مدة بقائه في المستشفى سوى يومين فقط فارق بعدهما

الحياة بعد أن تسمم جسده متأثراً بحروقه. في الساعات التي سبقت موته ردد غير مرة اسم قسمت بينما كان يبقي نظره معلقاً على زاوية محدد من الغرفة التي قضى فيها ساعاته الأخيرة. ومرة أخرى استقبل اهل الدار الواقعة في الدهانة حزناً جديداً ومصيبة جديدة، لكن هذه المرة كان ممكناً تلافي خجل الأسرة من حقيقة اقتحام بعض من أفرادها الموت بهذه البساطة، فبات سهلاً اختلاق قصة عن العم الشاب الذي كان على وشك إشعال «الچولة» فتسرب إليه النفط بالخطأ والتهمت النيران ثيابه في ثوان ولم يتمكن الأطباء من إسعافه فمات. هكذا ببساطة مات فجأة! يا للحزن! يا للفجيعة المباغتة. ورغم ان الناس لم يصدقوا هذه الرواية وتناقلوا بينهم الحادثة الحقيقية همساً مرددين ان انتحاراً جديداً قد وقع بين أبناء هذه الدار التي صاروا يلقبونها بالمشؤومة، إلا ان أحداً لم يجرؤ على قول ذلك في العلن كما في حادثة قسمت. وقد ساعد كثيراً وضع مريم لطفل ذكر وحملها مجدداً بعد أربعين نفاسها مباشرة من تجاوزهم للمحنة باحتراف، فخفف ذلك من بعض أحزانهم، حتى ان مجيد لم يخفِ فرحته العارمة بطفله دون أن ينتبه لزوجته مريم التي كانت تعيش حزناً جارفاً على عمها ووجعاً وقلقاً مؤلمين تشربتهما روحها من أثر الطريقة الموجعة التي رحل بها. وقد تضاعف حزنها بعد ولادتها وأصابتها حالة من الهلع فكانت تبكي وترتجف ليلاً في نومها كالمحمومة، وهي تحلم بالدقائق التي سبقت حرقه لنفسه وتردد مغمضة العينين: «بماذا كان يفكر في تلك اللحظة؟! كيف فعلها بتلك البساطة». ورفضت مريم خلع السواد حتى وان إعتُبر فأل شؤم على رضيعها، فكان حزنها غريباً على براءتها وغير مناسب لشخصيتها الفكاهية المرحة. سألت ذات مرة زوجها وهي تمسح دموعاً صامتة بينما يداها مشغولتان بلف قماط رضيعها:

ـ ترى لماذا قد يقتل أحدهم نفسه؟

رد مجيد وهو يزفر ضيقه وقلة حيلته أمام سؤال كهذا:

ـ لقد اختار وقت وشكل رحيله بنفسه على الأقل. من منا يمتلك مثل هذه الفرصة؟ ترحمي له.

في غضون أيام لم يتبق للعم من أثر في البيت، فتم التخلص من ثيابه وأغراضه القليلة. حتى زوجته شازي تركت الدار وعادت إلى بيت نازارة حاملة أغراضها كلها في «بقچتين» اثنتين وقد تخلت عن زينتها المعتادة وربطت رأسها بقماش الحَبَر وإحتشمت على غير عادتها في عباءة رأس. يوم رحيلها ألقت على الدار نظرة أخيرة من خلف كتفها وغادرت دون أن يمس قلبها الحنين على الأيام الطويلة التي عاشتها فيها، ولن تطأ قدمها هذه الدار إلا للتعزية بوفاة مامَلي وذلك سيحدث بعد سنوات عديدة. ومن الغريب انه لم يبدُ على وجهها حزن وغم بل بان جميلاً صافياً وهادئاً دون الكحل واللون الأحمر الذي تعودت فرك شفتيها وخديها به. واستغرب أهل زوجها من حالها إذ لم يشهدوا حزناً عميقاً من الأرملة الشابة كما هو منتظر، بل إنهم لن يتذكروا دموعها لأنها لم تذرفها أصلاً، كما أنها لم يبدُ عليها التأثر أو حتى الحرج من تلك الحادثة الغريبة التي حصلت معها وأمام أعينهم جميعاً حين وضِع تابوت رضا أمامهم قبل دفنه في النجف وألقت النساء بأنفسهن عليه في نحيب وعويل مستمرين، وقدِمت هي وطرف عباءتها مدلى حول وجهها كأنما لتحتجب بحزنها غير الظاهر للعيان، ثم جلست عند طرف التابوت وقد وضعت يدها عليه كأنها تتمتم قراءة سورة الفاتحة فاهتز التابوت فجأة ودفعها بعيداً عنه ليختلّ توازنها وتقع على ظهرها، حتى ان پري التي كانت تحتضن التابوت أقسمت فيما بعد أنها أحست بشبه ركلة في بطنها حال اهتزازه.

ـ هل كان يكرهها إلى هذه الدرجة يا ميمي؟

قالت مريم لقَيَم وهي تمسح دموعها مستذكرة الحادثة.

فضربت قَيَم على فخذها بعصبية.

ـ لم يكن يطيقها في آخر أيامه، تلك الصلفة اللعوب عجّلت برحيله عن الدنيا دون أن يرف لها جفن. لم تذرف دمعة!

وكانت قَيَم ستستمر في ولولتها لولا أن بدرية أسكتتها برجاء، والواقع ان شازي كانت متبلدة الإحساس مسطحة المشاعر ويصعب استثارة حزنها وفرحها معاً وهو ما لم يستوعبه أي منهم. لكنها لم تكن غير مبالية إلى الحد الذي تصوروه وقد اختفت من حياتهم سريعاً بعد أن رحلا هي ووالدها عن بيت نازارة واستأجرا غرفة في محلة أخرى بعيداً عن آل الملا غلام علي.

* * *

إذا مر عام دون أن تحبل فيه واحدة من بنات الملاّ فهذا يعني أن زوجها لم يقربها لفترة طويلة، فقد كن وكأنهن يحبلن من مجرد نوم أزواجهن إلى جانبهن، فمن المحبذ انهن قد ورثن تلك الجينات الأنثوية النشيطة بشكل كبير والتي كانت تجعل أجساد النساء عندهم تتلقف ما يقذف فيها بسرعة خيالية، لتُصنع في دواخل بطونهن تلك الحيوات المتعاقبة والمعجزات المكررة التي لا تفقد الدهشة في كل مرة تَترى فيها. حتى فرصت التي لم تنجب سوى أربعة أطفال، ثلاثة أولاد وبنتاً واحدة، لم يكن قلة إنجابها عيب في رحمها الولود المستعد دائماً للتناسل والإنتاج، بل في زوجها العجوز الذي أنهكته السنوات سريعاً فلم يعد به رغبة أو قدرة على زوجته. ولحسن حظهن فإن بنات الملاّ بطبعهن لم تكن بهن رغبات جنسية هائجة فعلى عكس الرجال الكرد

الذين عرفوا بشهيتهم الجنسية المفتوحة والرغبة الوحشية المتوقدة دوماً، فإن النساء في المقابل اشتهرن بالبرود وقلة الاهتمام بالإضافة إلى قلة الخبرة حتى وإن مرنتهن السنوات على الفعل ذاته، إلا انهن لم يكن يحسنّ أو يتقنّ أمور الفراش ربما رغبة منهن في تحاشيه. وقد كن وفق عرفهن يعتبرن الجنس من أعباء الحياة الزوجية التي لا مفر منها، وكلما ابتعد عنهن رجالهن لسبب ما كلما تنفسن الصعداء والراحة لتجاوزهن واحدة من أكثر المهمات الثقيلة وغير المحببة. في خلال سنوات قليلة كان فناء دار الدهانة قد امتلأ بالأطفال والمراهقين من مختلف الأعمار. پري التي لم تكن تنوي التوقف أو التقليل من إنتاجها المستمر كانت تتفاخر بكثرة ولاداتها وأطفالها المنتشرين من حولها والصبية الذين بدأوا يشبون وسرعان ما سيقاربونها طولاً. وبعد سنوات من الوسواس والكآبة التي كانت تتفاقم وتتزامن غالباً مع ولاداتها، تعلمت پري مع الوقت كيف تعارك تلك الإرهاصات التي رافقتها طويلاً، وبدأت بمحاولة للشفاء تتناسى كل ما كان يثير ضيقها وحزنها الطويل الذي ما فتأت تشنه على نفسها دون مبرر واضح، فصارت تهمل كل ذلك بقدر استطاعتها مذكرة نفسها بين الحين والآخر بالنعم المحيطة بها على الرغم من كونها لم تتعلم أبداً كيفية أن يكون المرء متفائلاً. حدس فطري دعاها لتذكير نفسها بأولادها أولاً وقبل كل شيء ليتعاظم في داخلها إحساسها بالفخر والاعتزاز، سيما وأنها قضت أعواماً طويلة ببطن منفوخة وولادات متتالية. صارت في تلك الأعوام الأخيرة تتلهى عن ضيقها ووساوسها خاصة كلما ولدت صبياً جديداً، فتجدها تفرح فرحة عارمة وتقدم النذور والهبات وتعيش شهوراً طويلة منتشية بنتاجها الذكوري الممتاز، وفي المقابل كان يعاودها شيء من الغم والهم اللذين تعودت عليهما كلما ولدت بنتاً، كأنها ليس لها من الأولاد نصيب، حتى أن زوجها مامَلي

كان ينهرها لتذمرها من ولادة البنات فهو لم يكن في داخله يهتم كثيراً لجنس المواليد الذين كانوا كلهم بالنسبة له يمثلون العزوة والسند متى ما سيكبرون. وعلى الرغم من عدم رغبة پري في البنات كما هي رغبتها في الأولاد، إلا أنها كانت حنونة على أطفالها جميعاً ولا تفقد مشاعرها الفطرية تجاههم رغم ما كان يبدو للمقابل من استعبادها المفرط للفتيات لصالح الأولاد، إلا أنها لم تكن في داخلها تشعر أنها تقوم بتفرقة تذكر بل كانت ترى نفسها أماً تقوم بواجبها وتربي بناتها كما يفترض أن يربين، فوفق العرف العشائري الذي ورثته پري لا تعتبر الإناث كالذكور مطلقاً، وعليهن السمع والطاعة وخدمة إخوتهن الذكور ليؤهلن في المستقبل إلى بيوت أزواجهن كما هو الحال مع معظم بنات جيلها. وبما أن الأنثى هي المربية فمن واجبها تربية الذكر على فوقيته وقوامته عليها هي شخصياً كي لا ينسى ذلك متى ما كبر، ولغرابة وسخرية القدر فإن رجال هذه الأسرة، وربما امتد الحال ليشمل رجال العشيرة بالإضافة إلى العديد من الأسر الكردية البغدادية أيضاً، لم يُعرفوا بالأبوية المفرطة أو بالمزاج الذكوري الحاد كما هو الحال مع غيرهم في المجتمعات التي ترسخ وتسوغ للسلطة الذكورية المطلقة. بل إن المحافظ الأساسي لهذه البطرياركية كانت النساء أنفسهن، فهن اللواتي أخذن على عاتقهن رعاية هذه الطبقية الأسرية التي لم يحلمن بكسر نمطيتها والتي توارثنها جيلاً بعد جيل. كن راضيات تماماً من كونهن دائماً ما يوضعن في آخر الهرم الأسري فقبلهن يأتي الرجال ثم الصبية من الذكور ثم بعد ذلك بقية الأطفال والرُضّع، وأخيراً تحل ذواتهن التي لم يكنّ شخصياً يعرنها أهمية لافتة. الشيء الوحيد الذي تغير بالنسبة للجيل الجديد من أحفاد الملاّ هو أن الأطفال جميعاً قد أدخلوا المدارس بنات وأولاد، فقد كانت الرغبة في التعليم جامحة هذه المرة ربما لأنها اجتاحت المجتمع

مثل موضة جديدة لا بدّ منها. وقد فرح كلٌ من مامَلي وحاجي بأطفالهما الذين تعلموا اللغة العربية بسرعة خارقة وبسلاسة ولفظ سليم، بينما ابدت كل من پري وفرصت شيئاً من التحفظ على تعليم الفتيات معتقدات أنهن ما يلبث بهن الحال ان يقرن في البيوت، إلا انه لا ضير من الذهاب والإياب إلى هذه المدارس التي حرمن هن منها إذ لربما ستستعين بناتهن بشيء من العلم على مرارة الدنيا التي تتغير بشكل لا يمكنهن استيعابه، فها هي أختهن الصغرى سهام والتي كانت في عمر أولادهن قد لحق بها التطور وحظيت بنفس الفرصة الذهبية التي نالتها بناتهن، فكانت تلك مجرد انعطافة قِيمية وثقافية في المجتمع لم تستوجب سوى سنوات قليلة، استفادت منها سهام ولم تلحق بها الأختان الأكبر سناً لسوء الحظ. أما بالنسبة لمريم فكان أطفالها ما يزالون صغاراً وكان ينتظرها تطورٌ حياتي من نوع مختلف. حتى ذلك الحين كانت مريم أماً لثلاثة من الذكور، وكانت بطنها منفوخة كأنها على وشك أن تنفجر حين مازحت قَيَم پرگه في واحدة من زياراته الدورية التي تعود ان يقوم بها في ساعات العصاري فسألته إن كانت مريم ستلد ولداً آخر، وتوقعت أن يرد بطريقة مسرحية مزركشة كعادته، أو ان يبسبس لنيرمينا فتأتيه على جناح السرعة وتموء وتتغنج مثل فتاة مدللة في حضنه فيصرّح إليهم جميعاً بالنبؤة المرتجاة. إلا أنه هذه المرة غمس قطعة الكعك في الشاي الساخن ودون أن يبيّن استعانته بشياطينه الظاهرة أو الباطنة أدلى بقول كان غريباً على مسامعهم:

- ليته لا يكون.

وقد إرتعبت قَيَم في حينها من نظرته التي حدجها بها من طارف عينه وهو يلوك قطعة الكعك، ولم تنتبه لجملته الغريبة التي مرت على مسامعها دون أن تدرك معناها للوهلة الأولى حتى ولدت مريم ولداً

أصيب بحمى شديدة وهو رضيع جعلت إحدى ساقيه ترتخي وتصاب عضلاتها بضمور، فلازمته تلك الإعاقة لباقي عمره فكانت ساقه اليمنى أقصر من الأخرى.

بعد حين تذكرت قَيَم مقولة پرگه وضربت على فخذها قائلة بحسرة:

ـ أوف! ليته كان بنتاً بدل أن يكون ولداً باعاقة. اذاً هذا ما قصده العزيز پرگه.

* * *

خلال هذه السنوات القليلة كان مجيد قد انتقل بأسرته الصغيرة إلى بيت صغير في «حي جميلة»، ثم منه إلى بيت أكبر في منطقة «شارع فلسطين»، وكان انتقاله قد خالف عرفاً شبه مقدس فيما بينهم كأسرة بالخروج من الدهانة حيث بغداد القديمة والدرابين والأزقة الشعبية التي عرفوا بسكناها والتطبع بروحها البغدادية العتيقة، ولا سيما أن هذا الإنسلاخ عن المكان تأكد بالانتقال إلى مناطق أقل شعبية وعراقة مما عرفوا وتعودوا. وكانت منطقة شارع فلسطين في بداية السبعينيات من القرن العشرين حين انتقل إليها مجيد تعد مشروعاً لحي يحاكي الأحياء البغدادية الراقية، إذ لم تكن قبل ذلك تعرف سوى بشوارع ترابية غير مبلطة ومساحات من القصب والزرع العالي حيث كان يستتر بعض المجرمين وقطّاع الطرق، وساحة صغيرة كانت حتى ذلك الحين مليئة بالحصى متفرع منها شوارع عدة، أطلق عليها اسم «ساحة بيروت» والتي صارت علماً أساسياً للمنطقة فيما بعد. وبالنسبة لمجيد فإن توسعه التجاري كان ليؤهله الانتقال إلى مناطق أرقى من هذه لكنه ورغم رغبته الملحة في الانتقال إلى مكان أكثر رقياً من الأحياء الشعبية القديمة، إلا انه فضّل أن يكون بقرب قومه وأبناء ملته حتى وهو يصعد درجات السلم الاجتماعي بهذه السرعة، إذ أن المنطقة ومنذ نهاية الستينيات

باتت تعد الوجهة الأرقى لكرد بغداد حيث بدأوا تدريجياً يتمركزون فيها كما فعلوا سابقاً في المناطق الشعبية مثل عكد الأكراد وشارع الملك غازي الذي تغير اسمه منذ ثورة الرابع عشر من تموز إلى شارع الكفاح، ذلك بالإضافة إلى الدرابين والأزقة المحيطة بسوق الشورجة.

كان نجاح مجيد اللافت قد تأكد بمحل لصياغة الذهب ابتاعه في شارع النهر المحاذي لشارع الرشيد، والذي لم يكن سوى واجهته التجارية لتجارات أخرى، لأنه لم يكن صائغاً بالمعني الحقيقي كما هم الصيّاغ الذين توارثوا المهنة وعركوها. ولأن مجيد لم يكن ذا خبرة في هذا المجال بل خاضه كمشروع تجاري مربح ليس إلا، فقد قرر أخيراً ان يوظف لديه صائغاً من طائفة الصابئة المندائيين الذين عرفوا في العراق بحبهم وتوارثهم لهذه المهنة عن آبائهم وأجدادهم. وكان من حظ مجيد ان تعرف بالصدفة على خبير في صياغة الذهب، شاب مندائي في منتصف الثلاثينيات من عمره يدعى «عباس»، ابن لأسرة خسرت خسارات فادحة في سوق الذهب فكانت رغبة مجيد في أن يشاركه محله «النص بالنص» كما أخبره مفاجأة سارّة وغير متوقعة بالنسبة له. وقد كانت تلك صفقة راحة البال بالنسبة لمجيد الذي بدأت أعماله التجارية شيئاً فشيئاً تشمل الكثيرغيرها، من صفقات قطع غيار السيارات التي نقلته نقلة نوعية من تاجر متوسط في سوق الشورجة إلى تاجر ذائع الصيت بين التجار في بغداد، وحتى صفقة التلفزيونات الشهيرة، إذ يعد مجيد من أوائل الوكلاء المستوردين للتلفزيونات الملونة إلى العراق في ذلك الحين. ولعله ومع تغير حاله على هذا النحو العظيم، قد اختلفت شخصيته مع الوقت، فتسطحت تارة وتبلورت أخرى بينما هو يواجه التطورات الهائلة التي تعصره عصراً ثم تلفظه عارياً من نفسه ومن ماضيه وحتى من فقره وعوزه اللذين كان خبرهما جيداً وبات فجأة لا يكاد

يعرف نفسه من دونهما. إلا أنه حاول التأقلم بعناد وقوة حتى انقلبت معركته على عقبيها فبدل أن تتخذ طريقها في مواجهة العالم صار يعارك ذاته دون أن يفهم كيف بدأ مع الوقت في التحول إلى هذا الرجل الذي له صفات التاجر المحنك العنيد. هذا الرجل المهاب الذي أصبح يمتلك سلطة الأموال النافذة، وقد صارت أوراق براءته التي قدم ملفوفاً بها تتساقط عنه شيئاً فشيئاً مذ جاء فتىً غراً إلى بغداد حاملاً «بقچته» الخفيفة قبل سنوات. لكنه ورغم الفوضى التي كانت تعتمل في دواخله، إلا أنه تعامل مع واقعه الجديد بهدوئه السابق ولم يفقد اتزانه بشكل بيّن. شغفه المعهود بالنظافة وحب الترتيب انتقل معه إلى عمله ومظهره الخارجي حيث ساعده المال بلا شك على اكتساب مظهرٍ أفضل وأكثر أناقة. حتى كلامه وألفاظه اتخذت منحىً جديداً وصارت لغته العربية ليست مجرد لغة سوق اكتسبها بفضل ذكائه وقابليته اللغوية الخام، بل أصبح يتحدث اللهجة البغدادية بأصالة أبنائها القدامى، حتى تلك الألف الكردية الثقيلة تَخفَّف من حِملها مع الوقت حتى اختفت تماماً، وبات لصوته رخامة نادرة وللفظه العربية لمحة بعيدة من لكنة دخيلة. أما كرديته الجبلية فكانت قد طيّعت منذ زمن وتحولت مع الوقت أكثر قرباً إلى الكردية البغدادية التي لو استمرت على حالها دون تدخلات القدر التي كانت في انتظار هذه الفئة من الناس لكانت اتخذت شكلاً شبيهاً ومقارباً جداً للغات المولدة والهجينة. حتى هذه اللكنة الكردية الجديدة عليه نسبياً أتقنها مجيد في رغبة محمومة منه للذوبان في هذه المدينة التي عشقها بكل المشاعر والأحاسيس التي لم يوفق للتعبير عنها أبداً. وتبين هذا الذوبان من أسماء أبنائه التي اختارها مجيد عراقية صرفة بدلاً من التأكيد على قوميته باختيار أسماء كردية مثلاً. فجاءت أسماء أولاده الذين صاروا خمسة في خضم سنوات قليلة، وفق الموضة السائدة في ذلك الحين،

سرمد، لؤي، مؤيد، ليث وأكرم. حتى أن جدتهم بدرية استاءت من صعوبة لفظ تلك الأسماء بالشكل الصحيح، فكانت تهمس لنفسها:

ـ «لَعي» و«معيد». ما هذه الأسماء بخاطر خدا؟!

كانت تظن ان كل همزة عربية هي حرف عين مستتر عنها هي المرأة التي تخلو لغتها منه، ولأنها كانت تحب ان تتباهى بقدرتها على لفظ الحروف السامية التي لا تتمتع بها لغتها الإندو أوربية فقد كانت تضخم لفظ هذه الأسماء ظانة أنها تعطيها حقها المطلوب. فقط حين كانت تتلكأ في ذكر الاسم وقد أعيتها شقاوة الصبية وحركتهم المستمرة التي لا تهدأ تجدها تقول متبرمة، موجهة كلامها إلى مجيد:

ـ أحببت أن تسمي أولادك أسماء عربية، سمهم أسماء بشر! لما لم تسمهم على أسماء الإمام علي، فداءً له ولاسمه أنت وأولادك الخمسة.

فيقهقه مجيد بصوت عالٍ هازاً قبضته كأنه يستعرض القوة:

ـ ليث من أسمائه، يعني أسد بالعربية.

فتمد بدرية يمناها عالياً وتخوط بكفها في الهواء وهي تشهق مرددة من قلبها:

ـ حصنتكم بحصن داوود عليه السلام، ألاّ يصيبكم مكروه ولا تمر عليكم ليلة ظلماء، بجاه آل بيته الأطهار.

إذا ما قُسّمت حياة مجيد إلى فترات فإن تلك الفترة هي الذهبية بالنسبة له، ولم يكن من شيءٍ لينغص عليه حياته سوى حالة ولده ليث الذي أصابته تلك الإعاقة المؤسفة سيما وأنه لم يولد بها بل ضربته مثل حادث كان من الممكن تفاديه لو لا القدر. هذا اللوم الذي ما لبث مجيد يوجهه إلى نفسه وإلى زوجته مريم التي كثيراً ما ردد أنها باردة غير واعية وغير متفتحة الذهن في ما يخص حياتها وحياة أبنائها، فهي مختلفة حتى

عن أختيها الأكبر سناً إذ ليس لها سرعة الخاطر التي لدى پري أو الإخلاص والتفاني اللذين تمتلكهما فرصت. ميزتها الوحيدة هي لغتها العربية الجيدة التي التقطتها من الأطفال والجيران وحس فكاهتها اللاذع الذي ينقلب أحياناً إلى كآبة مرة وصمت يطول أياماً دون مبرر، وكلها أمور لم يكن مجيد ليعتبرها صفات زوجة عملية أو معينة. كثيراً ما فكر في احتمالية أن يكون الله يعاقبه على خطأٍ ما بدر منه في السابق أو ربما كان يعاقبه على نجاحه وإمكانيته المادية التي تنطلق وتتصاعد بشكل مطرد في بيئة متوسطة، ربما لهذا يعطيه باليمين ما يأخذه باليسار، أو ربما كان السبب هو تلك التأويلات الشعبية من أن الحسد والعين يلاحقان ماله وعياله. لكنه أخيراً، وبدل أن يستسلم لأفكاره حاول جاهداً معاندة هذه القسمة السيئة التي نالت من إبنه فدار به على الأطباء في العراق وسافر به إلى أوربا وبذل الكثير من الجهد والمال لأجله لكن عبثاً، بعد أن أجمعوا كلهم على شلل رجله اليمنى وعجزه الذي سيلازمه طوال حياته. وربما كانت تلك الصدمة أشد ما وقع على مجيد في حياته حتى ذلك الحين لكنها لن تكون أشد ما سيتلقاه من صدمات ستغير دواخله كلياً في المستقبل القريب. وأصابه تدريجياً شيء من الكبر والتعالي على عكس ما كان عليه من تواضع وبساطة، ولعل ذلك كان رد فعل منه على القدر الذي امتحنه في ولده، وقد يكون كل ذلك هو السبب المباشر للفتور المفاجئ الذي نال من علاقته بآل الملاّ غلام علي، حتى أنه كف عن زيارتهم لشهور طويلة فلم يلتق الملاّ إلاّ في فترات متباعدة برغم ما كان يصله من تلميحات الأخير المتكررة برغبته في رؤية الشاب الذي كان يعتبره الإبن الذي تمنى أن يكون من صلبه، إذ لم يحقق أي من ولديه أو حتى أخوه الراحل رضا طموحات تبعث على الفخر كما فعل مجيد. غير أن مثل هذه المشاعر لا يعبر عنها

بسهولة في بيت الملاّ، لا أحد يظهر الفرح على التوفيقات والظفر بالأحلام كما يظهرون اللوم والعتاب على التقاعس والفشل. وربما يكون مجيد قد أضمر ذلك وشعر بشيء ضايقه فسّره على أنه غيرة منه بسبب ما ظنه لامبالاة قوبلت بها نجاحاته، حتى من پري التي هيئ له أنها باتت تستقبله بنظرة فيها شيء من البرود لم يستطع تفسيرها وبدل أن يستفسر أو يتأكد منها اختار أن يظهر عدوانيته بعدم إظهار المودّة. وكان أن فسرت پري تغيره المفاجئ غروراً وعنجهية فارغة متحسرة على تلك الأيام التي كان يجلس فيها القرفصاء في الفناء ليشرب الشاي وهو يسرها أسراره وأحلامه. مع الوقت امتد بينهما حبل من الفتور كأنه سطح بارد من الجليد الصلد.

* * *

بعد أن توقفت دار الملاّ غلام علي منذ سنوات عن استقبال النزل للاستئجار فيها، وبعد ان تركها مجيد وأسرته بقيت الدار بشكل أساسي لپري وأولادها الذين ستنجب آخرهم في العام ١٩٧٨. أما الأخوان مصدق وموفق فلم يعودا يتواجدان فيها كثيراً بعد أن استهوتهما الحياة خارجها، بين سوق الشورجة الذي احتوى موفق بأحلامه التي كانت تقتصر على دكانٍ صغيرٍ لبيع المكسرات وقد تزوج وانعزل بزوجه في بيت جديد، وشارع المتنبي الذي صار يتردد عليه مصدق طمعاً في موضة المعرفة والقراءة التي اجتاحت بغداد في تلك السنوات حيث كان العراقيون يلجون عقد السبعينيات بكثير من الرغبات الثقافية والمعرفية التي ستُكبل ثم تُنحر في القريب العاجل، ولا سيما تبادل الكتب الوجودية ومناقشة المفاهيم الماركسية التي كانت لتستهوي شاباً كردي الأصل مثل مصدق. ولم يكن أي من الشابين قد استهواه طريق الدراسة رغم أن مصدق كان قد استمر فيها لمدة أطول من أخيه الذي تركها بعد

دراسة المتوسطة مباشرة. فبعد أن أتم مصدق الثانوية بنجاح متوسط تخبط بين المهن دون أن تكون به رغبة لمواصلة الدراسة الجامعية، وقد حاولت بدرية بتوقيرها وتبجيلها المعتادين للذكور أن تنفش من ريشه وتبث شيئاً من الروح في أحلامه بأن تردد عليه موشحاً طويلاً أرادت منه أن يرث موقع والده في الخان، ظانة أن مجرد تعليمه كافٍ لأن يحل محل الملاّ الذي كبر في السن وقد ضعف بصره فلم يعد قادراً على رسم الحروف والأرقام كما كان يفعل في السابق. غير أن مصدق لم يعر الرغبات الساذجة لأمه اهتماماً سيما وأن الخان وما فيه لم يعد كما كان في السابق، كما أن مدينة كبيرة مثل بغداد بدأت تستقطب أشكالاً أخرى للتجارة أكثر عصرية من ذلك الخان الذي سيتحول مع الزمن إلى نفق كبير مهجور سيقال عنه بعد حين أنه مليء بالعفاريت والأشباح ولا سيما روح منتحرة تطوف فيه هي لابنة الملاّ غلام علي آخر ملاّ مرّ على ذلك الخان.

في تلك الأيام التي كانت تعبر بآل الملاّ من راحة البال وبساطة الأحلام والرغبات إلى الأعوام التي لن تتركهم بسلام أبداً، صار يحلو للملاّ التربع في صدر فناء الدار وقد فُرشت من تحته بسط خفيفة فوق الحصيرة الخشنة خوفاً من أن تضايق جلده الذي نَعُم متأثراً بالزمن. كان يجلس متأملاً لساعات طويلة دون أن يبدي تبرماً أو ضيقاً من أصوات أحفاده التي تعلو مع لعبهم وشجاراتهم التي لم تكن تهدأ، ودخول الصبية وخروجهم المتكرر وقرعهم الباب باليد الضخمة المعلقة عليه من الخارج مرات عدة حتى أن قَيَم علّقت ستارة تسترهم من أعين الناس وشرعت الباب على مصراعيه لكي تتخلص من الطرقات المستمرة له. شعر الملاّ في أثناء تأملاته بدنو النهايات المحتملة المرافقة دائماً للبدايات الجديدة، وتأكد له ذلك وهو يدور بعينيه بين أحفاده الذين

كثروا وكبروا بسرعة، وأيضاً من صورته الجديدة التي صارت تطالعه في المرآة، بجسده الذي بات هزيلاً ورأسه الذي يصبح صغيراً جداً دون «چراوية» فيبدو كأنه أصلع تماماً رغم ما يحف جانبيه من شعر قد غزاه الشيب بأكمله، وبعينيه اللتين تلمعان لمعة تختلف عن تلك الملأى بالحياة لدى الشباب، بل هي لمعة تظهر فيها العينان وكأنهما مغرورقتان في الدموع، كأنها الدموع التي سيودع بها حياته الواحدة. ولم يكن رجلاً بسيط المنشأ مثله ليفلسف الحياة رغم ما كان يشاع عنه من حكمة، إلاّ أنه في داخله بقي يتمتع ببساطة الرجل الأعجمي المزروع وسط تربة مختلفة عنه، والذي ابتلي بأن أضفت عليه الشيخوخة أطناناً من وقار وهيبة لم يكن لينالهما لولا طيبته وكرمه مع الناس. وكان لمّا يتعب من استرجاع الذكريات، ينادي على ابنته الصغرى سهام التي كانت تحل في قلبه محل أحفاده تماماً، ويطلب منها بلطف ان تشغل الراديو:

ـ هلا شغلتِ الراديو يا عزيزة قلبي. لعلهم يذيعون زهوري اليوم.

وكان يقصد بـ زهوري المطربة العراقية «زهور حسين» التي كانت رحلت قبل ذلك بأعوام في حادث مؤسف، فكان يدلل اسمها تحبباً واعتزازاً بصوتها الذي يشجيه ويطربه فيردد معها أغانيها وبستاتها بلكنته الغريبة كل ما صدح صوتها مالئاً الفناء:

«أخاف أحچي وعليه الناس يقلون
شيقولون؟
توّلع بالمحبة وصار مجنون
يقولون»

حتى أنه في أواخر تلك الأيام الربيعية حيث بات خريف شيخوخته ينهش جسده بضراوة، صار يلقي عنه وقاره المعتاد ويهز رأسه طرباً بمنة

ويسرة، وأحياناً ما كان يستبد به الشجن فيرفع ذراعه عالياً ويلوح بها، ثم دون سبب واضح كان ينخرط الملاّ غلام علي في بكاء مرّ، كأنه يبكي حياته التي تأفل عنه وأحبابه ممن فقد، والذكريات العزيزة التي لن تعود.

* * *

ستمر سنوات على هذه الأسرة البغدادية دون جديد يذكر، وحدهم أطفال الأسرة يتطورون، يكبرون بسرعة وهذه الأعوام ستمر كما الحلم دون أن يعلموا أنها آخر الأعوام في «زمن الخير» بالنسبة للكرد الفيليين تحديداً في العراق، فأزمان الخير مطاطة وكل فئة أو طائفة عراقية لها عمر افتراضي تبدأ من بعده سنوات من التعاسة والضنك مقسمة بين العوز والحروب والقتل والتهجير.

بعد سنوات من حمل هذه الدار لكل تلك الأنفس المثقلة بالحياة وتلك الأرواح والأشباح الهائمة فيها، بدأت أخيراً تتخذ شكل الدور العتيقة التي تتنفس مهابة الماضي وروائحه العابقة بالتأريخ، ولو قدّر لها استرجاع ذلك الماضي لفعلت بمنتهى الحنين، مذ رصت بنيانها أيادي البنائين اليهود في نهايات القرن التاسع عشر، مروراً بمن سكنها من أسرهم ووصولاً بأسرة الملاّ غلام علي وكل نفر من «النِزِل» الذين استأجروا غرفها. لا عجب ان أغلب من سكنها لم يرحل عنها بسهولة وغالباً ما كان يعود حتى ولو للمرور على ذكرياته فيها كما سيفعل ذلك مجيد في فترات متباعدة وكما ستفعل شازي بعد ذلك بسنوات وإن كان الحنين وتوابعه لا يطبعان على قلب امرأة مثلها آثاراً بيّنة. حتى تلك الأشباح الهائمة لم تكن لتتركها وكانت تتنقل بين الغرف عبر ولوج الحيطان والطواف في السقف العالي والتدلي من «المحجّر» المطل على فناء الدار والتنعم بأشعة الشمس الربيعية التي تسقط على الطابوق

الأصفر الذي يفرش أرضية الفناء المغسولة والنظيفة دائماً. وكانت الأشباح تحترم طقوس قَيَم وبدرية الدينية فتبتعد كلما جلست المرأتان للصلاة والمناجاة رغم أن بدرية لم تصلِ قط صلاة صحيحة لجهلها بها، إلا أن أشباح الدار كانت تكن احتراماً بالغاً لمجرد النية.

آخر مرة مر فيها پرگه من عند دار الملاّ غلام علي في الدهانة كانت في صيف العام ١٩٧٥، كان الوقت ظهراً وقد خلت المحلة من أبنائها الذين انصرف كل منهم إلى قيلولته أو اختبأ في الغرف احتجاباً من حرارة ظهيرة تموز القاتلة. شاهد پرگه في أثناء مروره شبح الرجل ذي الچراوية والصاية ذات اللون السكري جالساً عند عتبة الباب فالتفت إليه قائلاً بعربيته الركيكة:

- عيني أنت ما يمل ما يتعب، شعندك هنا هيچي وقت؟

لم يجبه الشبح ورفع كفه إلى شفتيه فتبين أن بين إصبعيه سيجارة ملفوفة يدخنها، كأنه قد تعب أخيراً من اللف والدوران طوال الوقت ويفضل أخذ استراحة دون منغص. طفرت شيرمينا من بين قدمي پرگه متقدمة نحو الشبح وهي تموء بعصبية لكنه لم يعرها اهتماماً وواصل تدخينه بهدوء. هز پرگه رأسه بأسف وقال كأنه يوجه كلاماً إلى الرجل دون قصد:

- أي ما يكلّون ما يملّون، ليل ونهار يفترون. آني عمري ما يشوف جنّي هم بالليل هم بالنهار يطلع!

وحين أراد أن يواصل طريقه عائداً إلى بيت نازارة ليرتاح هو الآخر من دورانه المستمر بين الدرابين والأزقة، رأى شبح قسمت يطل من عند زاوية الجدار وقد بدت على ملامحها علامات الحزن والكآبة فقال:

- عزيزگم فارقي. فارقي لترتاحي وتريحي.

طالعته قسمت بعينيها الزيتونيتين اللتين بدتا كأنهما ناعستان من شدة الحزن:

ـ لم يحدث أي مما أخبرتني به حتى الآن. أكاد أندم على فعلتي.

زفر پرگه ثم رد وهو يتمايل بدلال باحثاً بعينه عن نيرمينا التي كانت اختفت عنه منذ دقائق:

ـ المكتوب نفذ يا بنيتي!

لمعت عينا قسمت كأنهما تدمعان وولجت إلى الدار من زاوية جدار المطبخ، بينما شيعها پرگه بنظرته متنهداً ثم عاد ليسير في الدربونة التي اصطبغت بألوان الشمس الفاقعة وكأنها لوحة لرسام مهووس بتدرجات اللون الأصفر والبرتقالي المحمر ثم لحقته شيرمينا بهدوء، بينما ركضت إليهما نيرمينا التي ظهرت فجأة متأخرة عن الركب لتنضم إليهما. سار الثلاثة في موكب كئيب كأنهم يودعون المكان والدار وأهلها وأشباحها، كأنهم يعرفون أنها المرة الأخيرة التي يشهد المكان تواجدهم فيه.

القسم الثاني

الأحداث

بين ١٩٨٠ و٢٠٠٩م

لؤي

١٥، فروردين/ ١٣٧٢

الموافق

٤، أبريل/ ١٩٩٣م

المحترم سالار.

ابن الخالة العزيز.

أعرض تحيتي وسلامي وخدمتي عليكم. واعتذر لكم ان رسالتي هذه ورسائلي التي ستصل مستقبلاً كلها ستكون بالفارسية، رغم انه سيكون من دواعي سروري تلقي رسائلكم باللغة العربية التي أحب. كان رائعاً ان أسمع صوتكم عبر الهاتف بعد أن غاب عن سمعي كل تلك السنوات. وجودكم في دمشق سيسهل على كلينا التواصل، وسوف أخبركم بالتفصيل عن الطريقة التى وصلت بها إلى هنا والمهرّب الذي ساعدني وجهز لي جواز السفر. لا تقلقوا، فهذه الطريقة آمنة وكانت أسهل بكثير مما ظننت. ما زلت في نفس المعسكر الذي اخبرتكم عنه يدعى «كارل سلوند» وهو قريب من العاصمة ستوكهولم، ليس بالمكان السيء أبداً. ورغم الربيع الذي لا بدّ وانه يزهر في الجانب الآخر من

العالم إلا ان الدنيا هنا ما تزال متلحفة بثلوج تشعرني أنني حتى هذه اللحظة في إيلام.

هل لغتي الفارسية صعبة عليكم؟ هل أخفف منها قليلاً؟

أعود لعرض تحيتي وأمنياتي الطيبة لكم.

ابن خالتكم المحب،

لؤي.

* * *

لم تكن المرة التي أرى فيها خالتي قسمت هي الأولى في المخيم في شتاء العام ١٩٨٠، لكنني دائماً ما اتذكرها كأنها المرة الأولى. لاحت لي بضع مرات من بعيد، وكنتُ أُكذب نفسي معللاً ان يكون الليل المطبق علينا هو السبب في ما ظننته خيالاتٍ تظهر وتأفل، حتى بان فجر اليوم التاسع منذ القوا بنا على الحدود وتهنا بين الجبال ثم تكدسنا في المخيم ذاك الذي آوانا لأيام قبل أن نجد فرصة للخلاص. ظهرت لي هذه المرة وقد ألقى عليها ضوء الصباح الباكر وضوحاً فبدت واقعية جداً. كنت عائداً إلى الخيمة بعد قضاء حاجتي فرأيتها. لم تكن لها هلامية الجن أو شفافية الأرواح لكنني عرفتها مباشرة، فقد سبق ان لمحتها في بيت جدي الملا غلام علي في بغداد، وكان قد نال سمعي أنها تظهر لأهل الدار بين الحين والآخر وقد تختفي لشهور طويلة، ومرة حدث واختفت لأكثر من عام كامل حتى ظنت ميمي قَيَم أنها لن تعاود الظهور مجدداً، وهي التي كانت معروفة بقلقها الدائم منها حرصت على أن تبخر البيت قبل اذان المغرب في كل ليلة وعقدت جلسات قرآن بين الحين والآخر لنساء الدربونة لكن يبدو ان ذلك كله لم يكن لينفع مع شبح الخالة المنتحرة قسمت.

في المرة الأولى التي رأيتها فيها لم أكن قد تجاوزت السابعة إلا بقليل، وكنت قد شعرت بالملل ساعات الظهيرة حيث يخلد الجميع إلى قيلولتهم النهارية المعتادة في بيت جدي القديم الواقع في إحدى درابين الدهانة العتيقة. قادتني قدماي إلى المطبخ الواسع وقادني فضولي إلى المخزن المظلم في نهاية المطبخ حيث تخزن «نانه بدرية» مونتها، فتحت الباب الخشبي الثقيل مستكشفاً فسُحب بدوره من الجانب الآخر كأن أحدهم يأبى ان يدع الباب، لكنني ألححت وجذبته بقوة أكثر فصار وجهها أمامي مباشرة وخلفها المخزن بظلمته فبدا وجهها مشرقاً وواضحاً جداً حتى انني لم انسَ ملامحها تلك طيلة حياتي. والغريب انه رغم قصر قامتي حينها إلا انني اتذكر وجهها يطالعني مقابل وجهي بالضبط عيناها في عيني تنظر إلي نظرة صارمة كأنها تأمرني بالكف عن العبث ومغادرة المكان. ومباشرة وجدت نفسي أهرع إلى أمي لاهثاً لأوقظها من قيلولتها وأخبرها بالأمر متردداً وانا أرتجف واصفاً المرأة الشابة لها فابتسمت في راحة واحتضنتني قائلة:

- إنها خالتك، «ميمي قسمت»، يبدو أنها أحبت أن تحييك. ما من داع للخوف!

وفي الحقيقة لم يكن في الأمر ما يفزع رغم انه من السهل خلق قصة مرعبة عن شبح الخالة الميتة الذي يزور بيت الدهانة القديم. لكننا تعودنا على تلقي ذلك برحابة صدر لا سيما من «ميمي پري» و«نانه بدرية» التي كانت دائماً ما تشير إلى ان تلك الزيارات الغيبية رحمة بنا جميعاً رغم الامتعاض الصارم الذي كان يرتسم على وجه «ميمي قَيَم» علامة على عدم موافقتها الفكرة. قصص كثيرة كانت تروى عن شبح الخالة الذي كان يمد لنا يد العون كلما كانت الأقدار العمياء تكاد ان تودي بنا. حين وقع اخي مؤيد من «المحجّر» الذي يسيج الطابق العلوي إلى فناء الدار

وهرع إليه الجميع معتقدين ان لا بدّ قد أصابه مكروه، أو على الأقل تكون إحدى عظامه الرقيقة قد كُسرت، وجدناه لدهشتنا سليماً تماماً وقام مثل القرد وهو يضحك بهستيريا. فعزا الجميع الأمر إلى ان يد ميمي قسمت من المؤكد قد تلقفته قبل أن يرتطم جسده بالأرض الصلدة. ومثل هذه الحوادث الكثير مما كان يصادفنا كلما زرنا بيت جدي الملاّ غلام علي. وحدها ميمي قَيَم كانت مترددة وتلتزم الصمت إزاء ذلك، غير أنها نطقت يوم هجّرنا، سمعتها تنوح نواحاً هادراً أثناء الهرج الذي عمّ البيت تلقفت منه اسم خالتي قسمت فكانت تعاتبها على عدم تركها إيانا وتطلب من روحها ان ترحل عنا إلى الأبد. رددت كلمات بدت لي حينها بلا معنى مثل:

ـ قسمت، أرضيتِ الآن؟ هل رضيتِ؟ ها قد حلّ فراقهم وخرابنا جميعاً!

في ذلك الصباح البارد وانا ألملم اطراف الجاكيت العسكري الذي وزعوا منه علينا جميعاً ليقينا برد ذلك الشتاء الذي لم أكن قد رأيتُ له مثيلاً في حياتي، سرتُ عائداً إلى الخيمة متحسساً مواطن رجولتي التي صارت تلح عليّ كثيراً في اليومين الأخيرين وأشعر بقدمي متعرقتين حيث هما محشورتان في جوارب صوفية ثقيلة. انتابتني رعدة قوية لشدة وضوح شبحها، ما ان رأيتها واقفة عند ثاني خيمة مرتكزة بأطراف أصابعها على الحبال. توقفت لأطالعها متردداً فابتسمت لي. كانت شابة الهيئة تبدو أصغر من أمي بكثير رغم أنها ولدت قبلها بأعوام عدة، ملامحها جميلة وخصرها نحيل ترتدي زيّاً كردياً لونه أحمر قاتماً عليه صديري أسود مطرز بخيوط ذهبية وتلف حول رأسها عمامة من تلك التي رأيت نساءنا يرتدينها في المناسبات، تلك العمامة الضخمة الثقيلة ذات اللون الأسود الذي تتخلله نقوش بيضاء. ذكّرتُ نفسي وأنا أتردد

في تقدمي منها بأن ما من سبب يدعو إلى الذعر بعد كل الخوف الذي كابدناه في الأيام القليلة السابقة، فليس من الحكمة اذاً ان ارتعد هكذا من شبح خالتي المسالم. تقدمت نحوها متردداً ووجدت نفسي أناديها بصوت خافت: - ميمي.

اتسعت ابتسامتها، فقلت لها دون تفكير:

- ميمي أرجوك. أود العودة إلى العراق. أرجوك ساعديني. ساعدينا جميعاً.

نظرت اليّ نظرة فيها عتاب ممزوج بحزن ثم انتقلت ببصرها إلى الخيمة حيث تنام أسرتي. تبعت نظرتها وحين عدت ألتفت إليها لم أجدها. لماذا تراها ظهرت لي؟ ماذا كانت تعني بظهورها لي تحديداً دون غيري سيما بعد أن لمّحتُ لإخوتي فوجدتهم متململين من وضعهم التعس في المخيم وليسوا أبداً في حالة جيدة لسماع قصص تبدو خارقة عن الخالة الميتة التي ظننا جميعاً أننا قد خلّفنا شبحها في العراق.

* * *

- آقای کاکه زاده!

كان صوته حاداً وبارداً، إذ يبدو انه ناداني أكثر من مرة قبل أن يلكزني الطالب الجالس بجانبي لأنتبه. نظرتُ إلى استاذي كأنني أستفيق من سبات، وادعيتُ عدم فهم كلامه ليتركني وشأني، فتجاوزني منتقلاً بسؤاله لطالب آخر بعد أن فقد صبره علي. لم أكن قد اعتدتُ على اسمي الجديد بعد، رغم أنه كان قد مر أكثر من عامين. كنا ما نزال أنا وإخوتي ننادي بعضنا باسمائنا القديمة، حيث اننا لم نحظَ بفرصة الاختيار هذه المرة أيضاً للأسف. فجأة صار إسمي «أُميد كاكه زاده». من لؤي مجيد حسين الصائغ إلى أُميد كاكه زاده. وحيث أذهب لا يناديني

الناس إلاّ باسم العائلة، ويتجاهلون اسمي الأول رغم انه جديد ولامع ولم يُستهلك بعد. «آقاى كاكه زاده.. آقاى كاكه زاده». مثل حلم يعاند إفاقتي يستمرون بمناداتي هكذا، مثل السجن الكبير الذي أُلقينا فيه يحاصرونني بهذا الاسم الذي ألغى هويتي وماضيي وسنوات عمري الفتية بين ليلة وضحاها. وتحول إخوتي جميعهم من أسمائهم العربية إلى أسماء أخرى متوافقة مع بيئتنا وحياتنا الجديدة. سرمد تحول اسمه إلى فرزين، ومؤيد إلى دلشاد، وليث أصبح فرهاد وأكرم صار كامران رغم ان أمي ترجّت أبي أن يبقي على اسم أكرم بالذات معللة ذلك أن اسمه مشترك بين الثقافتين لكن ابي صاح قائلاً:

ـ أكرم هنا اسم انثى. هل تريدين له العيش بين الناس باسم انثى! انّي افعل ذلك لأجلكم وأجل مستقبلكم يا امرأة!

وذلك على الرغم من انه قد اختار لي إسماً معناه في النسخة العربية منه يستخدم للإناث أيضاً ويا للسخرية. فاسمي الجديد معناه «أمل. أُميد! بعد سنوات طويلة سأشغف بصوت عذب لمطربٍ إيراني اسمه على إسمي، لا أحد يناديه باسم عائلته كما يفعلون معي، بل هو أُميد فقط. لفترة ستصلني بعض أغانيه على أشرطة تسجيل خلسة، كأنها أفيون مهرب. وبعد سنوات أطول ستغض الجمهورية الإسلامية الطرف عن الغناء وسيسمح بحفلات غنائية ستقام على «الطريقة الإسلامية» لن أحضرها لأنني حينها أكون قد غادرت المكان والشغف معاً. لكنني لم أكن لأعرف ذلك وأنا بعد مراهقاً شغوفاً بالفن وتوابعه، القي على حدود هذه الدولة عارياً من ماضيه غير مدرك لطبيعة هذا الحاضر الذي يطبخه على مهلٍ لينضج مستسلماً لمستقبلٍ سيطحنه بين أضراسه بضراوة. حينها لم أفهم كيف أمكن لأبي التفكير في هذه الأسماء الجديدة بهذه السرعة الفائقة حيث خلع عنه فكرة العراق متحولاً إلى إيراني أصيل أسماء

أولاده لها دلالات قومية تضرب في عمق إيران. «ما من عودة، لا تأملوا في عودة، نحمد الله أنهم كانوا كرماء معنا فأبقوا على حياتنا»، هكذا كان يردد. لكن ما الذي كنا فعلناه أصلاً لكي يسرقوا منّا حياتنا؟! كان يطلق تصريحاته القاسية هذه محطماً حتى أضعف آمالنا. محطماً تساؤلاتنا التي ضلت عالقة. هل حدث خطأ؟ هل سيندمون ويدركون أننا بلا ذنب فيطلبون عودتنا؟

كنت أتساءل متعجباً كيف لأبي ان ينسى كل ما خلفه وراءه في العراق بهذه السرعة والبساطة كأن حياةً لم تكن.

إننا عراقيون، لنا بيت كبير في واحد من الأحياء الجميلة في بغداد. بيتنا يا أبي! البيت الذي بذلتَ الكثير من أجل شرائه وبذلت الوقت والجهد ليبدو مرتباً وأنيقاً، بحديقته المطلة على الشارع العام بطابقيه وغرفه الواسعة ومطبخه الذي احضرت لأجله مهندساً يصممه من أجل راحة أمي خصيصاً. وأشرفت على الحديقة بنفسك، مبدياً اهتماماً فائقاً بنخلتين ناضجتين حتى انني أذكرك تماماً قائلاً بفخر وأنت ترفع رأسك إليهما عالياً بانك ستزرع غيرهما، قلتَ ان النخيل في حدائق البيوت تعطي لها مظهراً عراقياً خالصاً. ترى لماذا إذن تستسلم دون مقاومة كأن من الطبيعي أن تصنع لنفسك حياةً ضخمة فقط لترحل عنها بهذه البساطة!

كنتُ أعيش بتساؤلات مضطربة لا تهدأ. من تراه سكن بيتنا من بعدنا؟ وهل يا ترى قد سأل رفاقي وزملاء دراستي عني، هل افتقدوني فجأة بعد أن اختفيت من فوق رحلتي المدرسية؟ كنت اتساءل دون الرحمة بنفسي، لماذا أنا جالسٌ هنا مرتدياً هذا الزي مع هؤلاء القوم الذين بالكاد أفهم ما يقولون؟ لماذا يتحول أبي مع الأيام إلى هذا الرجل القاسي الذي ينهرنا ما ان يسمعنا ننادي بعضنا بأسمائنا القديمة، أو ما ان

يجدنا نتحدث بالعربية فيما بيننا. ثم ما هذه اللكنة الغريبة! أين اختفت لكتك الكردية البغدادية المحببة التي تتخللها الكثير من الكلمات العربية. أين ذهبت؟ كيف اكتسب لسانك هذه اللكنة الجبلية الثقيلة، وما سر هذا الخزين الذي ظهر لديك فجأة من الكلمات التي لم أسمعها منك من قبل؟

* * *

كنت أسير في الطريق المؤدي إلى البيت عائداً من المدرسة ولا أنتظر إخوتي. حولي فضاءات من طرقات غير معبّدة مبللة وغارقة في الطين رغم ان الربيع كان حينها يشارف على الانتهاء، وقد بدت من بعيد قمم الجبال التي كان الثلج ما يزال يكسوها والتي كلما وقع بصري عليها تذكرت كيف سرنا على الأقدام حين ألقوا بنا على الحدود، حتى بدأ يفاجئنا الجو المختلف ووقعنا فريسة الثلوج نغوص فيها بأقدامنا. كانت تلك المرة الأولى التي نرى فيها الثلوج وبادر مؤيد إلى صنع كرة من الثلج ثم ألقى بها على أحدنا فأخطأته واصطدمت بأبي الذي نظر إليه نظرة أرعدته وأوقفته عن عبثه. هل كان ساعتها يفكر في كل ما جردوه منه بعد أن ألقوه وأسرته على الحدود بثيابه التي عليه؟ قالوا إنهم سيصادرون أمواله المنقولة وغير المنقولة وان بيته ومحاله والعمارة التي في شارع السعدون وباقي أملاكه كلها أصبحت ملكاً للدولة العراقية. أما هو فلا حق له في ثروته التي جمعها بعرق جبينه. هل كان عقله مشغولاً بهذه التفاصيل في تلك الأثناء؟

سرنا ليومين وليلة ونمنا في العراء حتى وجدتنا السلطات الإيرانية، وكنا محظوظين لأنها وجدتنا قبل أن يصل إلينا قُطّاع الطرق الذين سمعنا فيما بعد قصصاً شديدة الخطورة عنهم في المخيم الذي نقلونا إليه. وضعونا في خيمة تكدسنا فيها جميعاً، ووزعوا علينا جوارب صوفية

وستر عسكرية لتقينا البرد القارس. حين ألقيت جسدي المتعب على الفرش التي صنعت حاجزاً بين أجسادنا والأرض المبللة ونظرت إلى سقف الخيمة، اجتاحني إحساس بأني لا بد أحلم أو أتخيل. خيالي الجامح أوجدني في هذه البقعة القصية الباردة محاطاً بالجبال ومتماهياً مع الليل، مستنشقاً الهواء البارد الذي يدخل إلى صدري كأنه أقماع ثلجية تلقى في جوفي واحدة تلو الأخرى فتصدر رنيناً يثير الوحشة، ودوني ودون العراق وبغداد حيث بيتي وسكني، أودية ومسافات وقفار، من الغريب أن أكون قد قطعتها بنفسي خلال أيام قليلة فقط، وانني سأغمض عينيّ وافتحهما في الغد لأجد جسدي هذا في بيتنا، هناك في بغداد. وسقطت فريسة نوم عميق من شدة التعب انتشلت نفسي منه بصعوبة كبيرة في اليوم التالي، لأجدني ما أزال ممدداً في خيمة ينام فيها إخوتي وأمي متكدسين بينما يجلس أبي بظهره المستقيم شاخصاً ببصره في الفراغ.

قبل ذلك بأيام قليلة فقط لم تتجاوز الأسبوع، نشبت مشاجرة بين اخي مؤيد وفتى من صفي وعلى الرغم من كون الفتى زميلي إلا أنني وجدت نفسي مضطراً لاتخاذ جانب غير محايد من الشجار، فما ان رأيتهما يتصارعان حتى طرحت حقيبتي المدرسية على الأرض وركضت لأمد مؤيد بمساعدة كان في غني عنها، فقد كان الطرف المعتدي ومتفوق بشكل واضح على خصمه في معركته الصغيرة تلك. كان مجرد عبث صبياني يفتعله مؤيد بين الحين والآخر فعراك نهاية اليوم الدراسي أصبح تقليداً لديه، ولسبب خفي عاونته هذه المرة على الفتى فأوسعناه ضرباً ربما لأننا كنا خارج أسوار المدرسة، وربما يكون السبب هذا الفيض من هرمونات الذكورة الذي لم أعرف كيفية تصريفه قد سيطر عليّ لحظة رأيت مؤيد يمارس عنفه وهو يكيل للفتى بلكمة تلو الأخرى

بينما الأخير يحاول الصد والرد تارة بقبضته وأخرى بالشتائم والسباب. ولسوء الحظ كان أستاذ الرياضيات يغادر المدرسة حين رأى الشجار بالصدفة ولعله كان بإمكانه التغاضي عنها لكنه آثر لحظتها ان يمد رأسه من سيارته الرينو الصغيرة وينادينا بأسمائنا آمراً ان نعود أدراجنا إلى المدرسة فوراً، وان نلاقيه في غرفة الإدارة تحديداً، وهناك بالطبع وبخنا على فعلتنا وطُلب منا حضور ولي الأمر. تمنيت من قلبي ونحن في طريقنا إلى البيت، بعد أن عدلت من هيئتي وغسلت وجهي بالماء، ان يحدث أي شيء فلا يعلم أبي بما جرى وكان ذلك مستحيلاً حسب الظروف الراهنة، إلا انني لم أكن أعلم أن أمنيتي ستتحق بسرعة فائقة، فقد وصلنا إلى البيت لنجد سيارتين واحدة «بيك آب» كبيرة وأخرى حكومية ورجالاً يدخلون ويخرجون من باب بيتنا المشرع.

- شكو.. شصاير؟

ورأيت أخواي سرمد وليث، حيث سبقانا في العودة إلى البيت، وأمي يقابلوننا أنا ومؤيد بعيون متسعة ونظرات فارغة، بينما ارتسمت لمحة هلع على وجه أخي الصغير أكرم. تجاهلت أمي تساؤلاتنا وقالت مخاطبة شاباً طويلاً كث الشارب يرتدي ثياب الضباط وتلمع على كتفيه نجوم لم أقدر ما تعنيه من رتبة.

- ذولة ولدي.

- ذولي كلهم لو أكو غيرهم؟

- لا، ذولي كلهم.

- ما عندج غيرهم؟

- لا.

- ما عندج بنات؟

ـ لا.

ـ أكبرهم وين يداوم؟ كلية؟

ردت امي على أسئلته بصبر.

ـ لا بعدله بس هالسنة.

وضع كفيه حول خصره كأنه ديك ينفش ريشه.

ـ ها، زين. شسمك إنت؟

سأل مشيراً برأسه إلى أخي الأكبر.

ـ سرمد.

ـ بيا صف؟

ـ رابع عام.

ـ وإنت؟

وأشار إليّ.

ـ لؤي.

ـ بيا صف؟

ـ ثاني متوسط.

ثم نظر الينا نظرات متفحصة وهو يحرك يديه إلى تحت خصره وأطال النظر إلى رِجل أخي ليث المصابة بالشلل والذي كان يعرج بشكل واضح وكأني لمحت في عينيه نظرة أسف أو هكذا خيل لي. أخيراً قال لرجلين كانا يقفان بالجوار:

ـ فتشتوا السطح؟

ـ نعم سيدي.

نظر إلى بوز حذائه اللامع ثم قال بسرعة وهو يخفف من نبرته العالية:

ـ يالله بابا، لموا أغراضكم الضرورية، وراكم طريق. هو ممنوع فديروا بالكم لا تثقلون.

هنا بكت امي وهي تهشنا وتتناول بسرعة شرشفاً تفرشه وتضع فيه لوازم ظنت أننا سنحتاجها. أما نحن فوقفنا في البداية مذهولين دون حراك! في هذه الأثناء دخل كل من والدي وجدي وجدتي وميمي قَيَم، ما الذي أتى بهم وكيف علموا بما يحدث؟ لم أكن أدري، لكن جدتي وقَيَم صارتا تحتضناننا وتنشجان بصوت عال. بينما بانت ملامح الألم واضحة على جدي الملاّ غلام علي، فانحنى ظهره وقد بدا عجوزاً جداً وعاجزاً جداً ففهمت ان أمراً جللاً قد قُضي وما من رجعة فيه. أما أبي فكان ساكتاً لكنني لمحت في وجهه خطوطاً عميقة لم أكن قد رأيتها حتى صباح ذلك اليوم وكأن جبينه قد اصطبغ فجأة بسمرة غريبة. دارت أمي في البيت بحركات هستيرية مثل دجاجة تفر من ذبحها، تجمع أغراضاً أغلبها غير مناسبة للطريق الذي سنوضع فيه وتخلصنا من معضمها حين صار الحمل ثقيلاً علينا ونحن نوغل السير بين الجبال. حين انتقلت إلى الطابق العلوي حيث غرفتها أسرعتُ ومؤيد خلفها لنلازمها ما أن رأينا رجل الأمن يرافقها إلى الأعلى، وبعد دقائق قليلة دخل الضابط الشاب ودار بعينيه في المكان دون أن يأبه للنظرات الشرسة التي قابلناه بها أنا ومؤيد. في أثناء بحث أمي المحموم وتفتيش رجال الأمن والهرج الذي صرنا نسمعه في البيت دفع الضابط دولاب الملابس فسقطت من خلفه رزمة نقود أجنبية ملفوفة بكيس بلاستيك معقودٌ بداخلها كيس آخر فيه قطع صغيرة وغالية من الذهب. كانت أمي قد وقفت عند الدولاب وهي تبكي مع كل قطعة ثياب تسحبها تدفن

رأسها فيها وتنشج لثوان ثم تواصل التنقيب. حمل الضابط الكيس ولم تبدُ عليه ملامح دهشة، بل مال على والدتي المشغولة بحزنها وصدمتها قائلاً باهتمام:

ـ حطيه بين هدومچ. انتبهيله زين لا يأخذوه منچ.

تناولت أمي الكيس وفي عينيها شهقة. كان من عادة والدي ان يأتي أحياناً بنقود ويرميها في دولاب الملابس ثم يتذكرها بعد ذلك بأيام فيأخذها ليودعها في البنك. لم يكن يمتلك خزنة داخل البيت فقد كان معجباً جداً بفكرة البنوك، ومثل رجال الأعمال الكبار أودع أمواله وممتلكاته الثمينة فيها ما سهل بعد ذلك مصادرتها كلها. وكانت هذه الرزمة الملفوفة هي من الرزم المنسية التي لم يكن ليتذكرها وحتى ان فعل لم يكن ليظن ان ضابط الأمن الذي جاء لترحيله سيكون السبب في أنه لن يُلقى على الحدود معدماً تماماً. خرج الضابط من الغرفة فرفعت أمي ثيابها ووضعت الحزمة على بطنها وحرصت على الاّ تبدو منفوخة فضربت عليها بكفها لتساويها قبل أن تناديني لأساعد في ربطها على خصرها النحيل بإحكام. قالت لنا وهي تجمع بعض الأشياء غير الضرورية وتضعها بين الملابس كأنها تقوم بكل ذلك دون تركيز، أن نحضر حاجياتنا من غرفتنا ثم تناولت عباءة عراقية كانت ترتديها في الزيارات الدينية فقط ووضعتها على رأسها السافر. فعلت كل ذلك دون أن تتوقف عن البكاء للحظة. وقفتُ ومؤيد مشدوهَين في وسط الغرفة التي نتشاركها، كنت أنظر أمامي بعيون غائمة إذ لم أقوَ على جمع أي من أشيائي العزيزة إلى قلبي، فليس في مقدوري ان أحدد موقفي تجاه ذكرياتي خلال دقائق قليلة أخبروني فيها أنني سأهاجر ربما دون رجعة! مثل شلل مؤقت لم ترتفع ذراعي لنبش شيء، ووقعت ببصري على صور «سعاد حسني» الكثيرة المعلقة فوق سريري، ففكرت في نفسي

لوهلة أن كيف وأين سأشاهد أفلامها الجديدة هناك حيث سأذهب؟ وبحركة لم أتوقعها خطوت نحو إحدى بوستراتها متوسطة الحجم وجذبتها. تلك الصورة التي تبتسم فيها ابتسامة جميلة تلقي بها للناس من خلف كتفها وعلى رأسها قبعة كبيرة. طبقتها بعناية حريصاً على ألاّ تقسم الطيات ملامح وجهها ثم دسست الصورة في جيب بنطلوني. كنت أتحرك وكأني لست من يرسل الإيعازات إلى يدي وأصابعي، وكأن أحدهم يحركني مثل دمية بلا روح.

حين استقلينا السيارة البيك آب أخيراً، كان آخر ما رأيته وجه جدي المعروق الذي تغضنت ملامحه وهو يحاول منع نانه بدرية عن اللحاق بنا فسقطت على الأرض باكية بينما السيارة تبتعد بنا فتتصاغر معالم الشارع وتتحول نانه شيئاً فشيئاً إلى نقطة سوداء بعيدة مثلها مثل هذا الماضي الذي تباعد فجأة وصار قاتماً جداً وبعيداً جداً. ما أن اختفى والداها عن ناظرها حتى انهارت أمي ودخلت في نوبة بكاءٍ عالية فنهرها أحد رجال الأمن ومنعها عن حزنها صارخاً:

- بس.. بس إنچبي، بنت الكلب.

ربما تذكرت أمي وهي تبتعد راحلة إلى المجهول أنها لم تُعطَ الوقت الكافي لكي تودع أحداً، هكذا كان التسفير مفاجئاً مثل موتة مباغتة. مثل شخص خرج من منزله ولم يعد إثر كارثة حلت به في ثوان معدودة ومفاجئة. تعطل عقلي تماماً ولم يعمل إلا بعد ذلك بأيام وكان أول ما أدركته هو انني لا أعيش حلماً، بل هذه حقيقتي الجديدة التي اختيرت لي.

* * *

ساهياً تعودت السير في طرقات القرية الجبلية التي يظن أهلها أنها مدينة، وأنا أتابع بملل هذه السعة العجيبة والآفاق الرحبة للمناظر التي

تقابلني. لا شيء يشبه العاصمة الكبيرة التي كانت شوارعها الضخمة تبتلعني بسهولة، فكل ما في الطبيعة هنا غير محدود مثل الأفق فهو بعيد وواسع وكئيب ولا يرسم لي أي حدٍ أقف عنده فيترك روحي القلقة تنطلق دون لجام. كنت قد بدأت أعتاد هذه المناظر الريفية، هذه القرى الصغيرة المتكونة من بضع بيوت مبنية عند سفح الجبل، أو هذه الطريق الدقيقة المؤدية إلى الناحية المرتفعة من التل والتي رسمتها أقدام السائرين وحوافر الحمير ودواليب العربات كلها غريبة عليّ لكنها كانت قد فقدت صفة الدهشة وصارت اعتيادية ومملة حتى أنها صارت سهلة التقبل. في المقابل، فإن البيت الجديد الذي يقع على ناصية الشارع الرئيسي في القرية ما يزال غريباً ولم أجد فيه بعد مسكني وراحتي. بفنائه الواسع وغرفه الكبيرة لا يبدو محبباً وقد بُني بطريقة تحفظ داخله من برودة شتائهم الذي ينهش العظام ويجعلها ترتعد. وأكثر ما أزعجني فيه هو حمّامه الذي يقع خارج الدار هناك في نهاية الفناء الذي يغرق في الثلج شتاءً وكثيراً ما شعرت بالانزعاج والتململ كلما كان عليّ قضاء حاجتي، إذ لم أشعر من قبل أنني بحاجة إلى كل هذه الإستعدادات من ارتداء الجاكيت والجوارب الثقيلة فقط لأتبول! ولبثت أياماً طويلة عازفاً عن الطعام رغم أن طعامهم في تلك البقعة من الدنيا تحديداً يعد في مجمله جيد لكنني كنت ما أزال مصاباً بالصدمة وكانت المذاقات المفاجئة لحياتي الجديدة تشبه كثيراً مذاق طعامهم الذي بدا بعضه غريباً ولم أستسغه مباشرة، فأغلب ما كان يقدم من لحم ولبن وجبن يكون عضوياً بشكل منفر بالنسبة لي. اللبن الذي كانت النساء ترجّه في كيس من جلد الماعز مشدود إلى عصي مثبتة في الأرض والذي كانوا يسمونه «دوغ»، يحتفظ بطعم الزناخة والزفارة وله مذاق حاد وثقيل، وهو يثبت في سقف حلقي فلا أكاد أقوى على بلعه. أما اللحم فقدمته لنا مرة راعية

أغنام تسكن وأولادها عند سفح الجبل خارج القرية، كان والدي قد أجّر الراعية بغية الاعتناء بماشية وأغنام اشتراها بالغنيمة التي هربتها أمي، كانت تدر عليه ربحاً وفيراً دون عناء يذكر من جانبه وبكثير من الحرص والمتابعة من جانب راعية الأغنام الأربعينية الشقراء. يوم زرناها جميعاً ليدلنا والدي على «حلالنا» كما وصفه قدّمت المرأة ذات العينين الزرقاوين واللكنة الغريبة لنا لحم الماعز مسلوقاً دون أن تضيف إليه شيء في أثناء طبخه فاحتفظ بزناخته كاملة حتى اني شعرت بغثيان هائل من رائحته الممزوجة برائحة الجبن واللبن المخثرين التي ملأت دارها الواسعة حيث استقبلتنا. ولكي تزيد الطين بلة جاءت حاملة قدراً صغيراً فيه دهن حر ممزوج بدهن حيواني له رائحة نفاذة، غرفت منه بكفها ولطمت به اللحم الذي كانت قد سكبته في طبق كبير. عبثاً حاولتُ ان أخفي اشمئزازي لكن علاماته كانت مرسومة على وجوه إخوتي أيضاً الذين كانوا يتابعون المنظر بعدم ارتياح. رددت المرأة بصوتها الرفيع وقد حزرت سبب عدم إقبالنا على الطعام:

- هيا عزيزگم! هلم يا عزيز قلبي مد يدك. هذا الطعام يَصنع الرجال.

وأمّن والدي على كلامها مشيراً بيده ان هلمّوا، ثم لما أحجمنا جميعاً عن مدّ أيدينا أمرنا بنبرة قوية فصار الجميع يزدردون الطعام مرغمين. كنت أكثر إخوتي هدوءاً وانا أحرك وأقلب اللحم بيدي كلما واجهت نظرات والدي مفتعلاً حركة بفكي كأنني ألوك لقمة في فمي. في حين كان بقية إخوتي يأكلون بصمت دون أن يرفعوا رؤوسهم، ولم يفطنوا لحركتي الخبيثة حتى ان أخي مؤيد إضطر تحت وقع نظرات والدي الحازمة ان يبتلع لُقيمات سريعة واحدة تلو الأخرى قام على إثرها راكضاً إلى فناء الدار وبصقها عند مجرى الماء ثم افتعل التقيؤ وبالغ في إظهار إعيائه كي لا يطاله تقريع.

ـ انه غير معتاد على الأكل الدسم.

قالت أمي مبتسمة بخجل للمرأة التي صارت تضحك دون أن يعلق في قلبها الريفي شيء، بينما هز أبي رأسه بأسف وهو يدفع بلقمة إلى فمه. في طريق عودتنا إلى البيت ضرب على مقود السيارة القديمة مستمراً في وصلة من التوبيخ لا يود لها ان تنتهي، مذكراً إيانا بطريقة قاسية ان هذه هي بيئتنا الأصلية واننا لو لم نولد في بغداد لكنا سنكرع الدهن الحر صباحاً على الريق مثلما كان يفعل أجدادنا في صباهم بحسب قوله.

* * *

كان العام ١٩٨٠ هو أكثر عام يشهد تسفيرات منذ بدأت بشكل طفيف في العام ١٩٧٥ أي منذ عهد الرئيس «أحمد حسن البكر»، لكنه لن يبقى كذلك طويلاً لأن أعواماً أخرى ستتلوه ستعد الذروة في تسفير المئات من الأسر العراقية وترحيلها إلى إيران بحجة أنها من التبعية الإيرانية. في حالتنا فإن موطن عشائرنا الأصلي يقع بالفعل ضمن الأراضي الإيرانية، لكنني لم أكن أفهم لما قد يعني ذلك أننا إيرانيون فنحن بالأحرى من الكرد، فإذا لم نكن مواطنين عراقيين رغم أننا عشنا حياتنا كلها كذلك فما الدلالة إذن على إيرانيتنا ونحن لم نرَ إيران هذه إلا قبل أن يضعونا على حدودها ويدحرجوننا نحوها ذات يوم شتوي بارد.

في خضم الساعات الأليمة التي عشناها ونحن ننتقل بين البلدين لم تكن تدور في عقلي أسئلة ربما من أثر الصدمة، لم أكن لأعلم بأنني سأعيش عمري كله بعدها على هيئة علامة استفهام كبيرة متسائلاً: لماذا يوجد من يقرر لي شكل وروح وطني؟ وكيف تأتت له السلطة التي تخوله لتجريدي منه لأن جَدّاً لي لا أعرفه ـ حدث أن سقط رأسه سهواً

في موقع جغرافي بعيد؟ حين رسموا الحدود واقتطعوا البلاد وقرروا اسم الوطن الجديد وصفة المواطن الجديدة، حين قرروا أي جزءٍ محددٍ من التأريخ سيُعظم ويُتبع، لأن الجزء الآخر منه يؤرخ للبلد المجاور. حين بلوروا المشاعر المثيرة للفخر وقولبوا أشكال الانتماء لم يحدث أن سألوني، ولو فعلوا بالذات حين اقتطعتُ من جذري ورميت على قارعة غربة هائلة مجرداً من هويتي وعمري، لكنت كفرت بكل تأريخهم، حدودهم، فخرهم وانتماءاتهم الهشة فهؤلاء الجبابرة القساة أهملوا تماماً حقيقة أنني أنا الوطن بذاته ماشياً على قدمين تحملان عود مراهق نحيل في الثالثة عشرة اسمه لؤي مجيد حسين الصائغ، مواليد العام ١٩٦٧ الديانة مسلم، لون العينين نرجسي، لون الشعر أشقر، لون البشرة ابيض لولا أنها مالت إلى شيء من السمرة تحت أشعة شمس هذه الأرض التي تلهب كأنها دوماً على شفى بركان، تاركة بصمتها المميزة عليه. ذلك المراهق المعزول والمستَبدل هو الموطن، أنا ذلك الوطن غير أنهم أصروا على تجاهلي والكفر بي يوم أخذونا من بيتنا بثيابنا التي علينا وأوصلونا إلى مقر حزبي في مكان مجهول خارج العاصمة بغداد حيث أدخلونا إلى قاعة رياضية كبيرة جداً لنفاجأ بحشودٍ هائلة من الناس والأُسر متجمعين فيها، كلهم كانوا مثلنا على وشك التسفير. أطفال، نساء ورجال من كل الأعمار. أطفال ينوحون ونساء مشدوهات ورجال يبدو اليأس والتسليم بالأمر واضحاً على محياهم بينما بعضهم الآخر يبدون وكأنهم يعيشون أملاً مرتبكاً من نظرات أعينهم المترقبة ولفتاتهم السريعة المستفهمة. تكدسنا أنا وإخوتي وأمي التي لم تجف دموعها في بقعة، بينما دار أبي بين الجموع يسير ببطء لا يلوي على شيء، رافعاً يده بحذر بين الحين والآخر كأنه يرد على تحية أحدٍ ما. أصوات الناس المرتعبين من مصيرهم كانت تموج في القاعة الكبيرة، بينما رجال الأمن

يدورون بيننا بثيابهم الزيتونية وبيرياتهم، وبالعلامة الفارقة التي يشتركون فيها جميعاً، الشوارب السوداء الكثيفة، وملامحهم القاسية وعيونهم التي ينطلق منها الشرر كانت تنبئ بأنهم على إستعداد لتنفيذ أبشع الأوامر إذا ما وجهت لهم، وبين الحين والآخر كان أحدهم يصرخ:

ـ تفرقوا.. يا الله كل واحد يلفي يم أهله. ما نريد تجمعات.

كان آخر عهدنا بالتعامل الجيد نسبياً هو ذلك الضابط الذي خلفناه في بيتنا ليصادره بعد أن طردنا منه. لكنه برغم ما جاء لينفذه فينا، سيُستذكر دائماً بيننا بدعوة من أمي على مساعدته إياها في تهريب شيء ولو بسيط من ثروتها. أما في ذلك المكان الكئيب الذي كان محطتنا الأولى في التهجير، فكان يجتمع فيه ضباط أجلاف وقوات الأمن القساة الذين كان أبسط ما قد يفعلونه هو أن يرفقوا سيلاً من الشتائم ولا سيما العنصرية بكلامهم الموجه الينا. كان واضحاً أن كل من اقتادوه إلى ذلك المكان قد جلبوه بثيابه التي عليه وفي الوضع الذي كان فيه، دون أن يُعطى ولو فرصة التأهب للسفر. بعض الأسر كانت بكاملها ترتدي ثياب البيت أو النوم ومن المحبذ أنهم قد جلبوا إلى المقر في المساء وربما قد أوقضوا من نومهم. أسرٌ أخرى كانت تسأل عبثاً عن أبنائها أو بعض من أفرادها الذين لم يتواجدوا في المنزل أثناء قرار التسفير الذي فاجأهم. إحدى النساء كانت تبكي متوسلة وهي تحاول استعطاف واحداً من رجال الأمن ويبدو أنها لم تكن تفرّق بين رتبهم:

- خالة سفروني وين ما تريدون ودوني. بس بشاربك آني أريد ولدي. اثنين بالسليمانية نصير وأمير.

واستمرت في نواحها وتوسلاتها حتى نهرها ضابط آخر دون أن يقترب منها:

ـ دكافي عاد مو ثبرتينا. وين يرحون يعني؟ مو إيرانيين مثلج يلحقوج لا تخافين. يا الله ولّي قعدي هناك حسّج ما أسمعه.

ثم التفت إلى الناس وصاح بصوت جهوري:

ـ اقطع كلام. ولا نفس!

أذكر أيضاً تلك الفتاة التي دخلت إلى المكان مع مجموعة جديدة من الناس أحضروهم بعد منتصف الليل، دخلت مشدوهة عيناها مفتوحتان على آخرهما ترتدي ثوباً شتوياً قصيراً جداً بياقة مزركشة وحذاء ذا رقبة طويلة وكعب عال، وقد بان جسدها الغض الناصع البياض بكامل إثارته. كانت ترتجف وفي حالة صدمة تامة حتى أن أهلها الذين كانوا قد جيء بهم قبلها صاحوا من الفرحة حال رؤيتها لكنها ظلت ترتجف بين أحضانهم ثم انخرطت في بكاء مرّ. تُراها كانت تعلم أن يومها الذي بدأته ربما في الصباح وقت اختارت أن ترتدي ثوبها المثير ذاك سينتهي بهذه الطريقة الأكثر إثارة، حين اقتيدت من قبل رجال الأمن، كما قصت هي القصة دون أن يهدأ نشيجها، من وسط صديقاتها في نادي الصيد العائلي حيث تعودت التواجد هي ابنة الأسرة الثرية كما هو واضح، لعلها لم تكن لتحلم بما ينغص حياتها ولاسيما هذا الحدث المفاجئ الذي سيقلبها رأساً على عقب. تبرعت لها إحدى النساء بعباءة رأس لكي تلف بها جسدها الذي نهشته العيون، ولا بد أن ذلك كان آخر عهد الفتاة بالثياب الأنيقة المثيرة والكعوب العالية فتلك العباءة ستكون مفيدة جداً لها حال ما تطأ قدمها إيران. سرتُ بين الجموع مراقباً وجوههم وسحناتهم، وبسبب حالة الهلع التي كانوا يعيشونها لم يهدأ ضجيجهم وضوضاؤهم وهو ما كان يزعج رجال الأمن والضباط فينهرونهم بين الحين والآخر. يصل إلى أذني كلام وهمهمات الناس، بعضهم يخلق قصصاً وأسباباً لعودتهم إلى بيوتهم بعد ساعات قليلة،

وبعضهم يبدون وكأنهم يغالبون صمتهم ترقباً، وآخرون مصابون بهلع لا يمكن تهدأته. مررتُ بشابين كأنهما غرابين يتناقران.

ـ شراح يسوون بينا؟ راح يذبحونا؟ راح يموتونا؟

فيرد الآخر محاولاً التهدئة بنبرة متوترة:

ـ هاي شبيك. شنو يموتونا؟ ليش شسوينا حتى يموتونا؟

ثم مررت بامرأة خمسينية تناجي أخرى:

ـ الله وكيلچ الصبح جيرانا تريقوا ويانا والعصر من إجوا علينا الأمن الجيران نفسهم يصفقون فرحانين ويصيحون ورانا «عجم، خمينيين، طلعوا يالمقطمين»، وفاتوا قدام عيونا للبيت فرهدوه ما خلوا على حاله حال، الله اليعلم هسه شصار بيه.

وتمسح دمعة بفوطتها. مررت برجل يحاول أن يستميل ضابطاً:

ـ دخيل قندرتك سيدي، أحلفلك بمنو آني عربي. آني مو منهم والله العظيم مو منهم آني مو إيراني، عربي ابن عربي.

مررت بالأطفال اللاهين منهم والباكين والنائمين، دون أن أفكر بالمصير الذي ينتظرهم، دون أن أفكر في شيء بتاتاً كأنني آلة معطلة. لكنني كنت أعرف أن هذه الساعات لن تمحى من ذاكرتي ما حييت فحاولت أن أخزن ما يمكنني منها في الذاكرة التي ستتعفن بعد حين. وكانت قد حملتْ ساعات الفجر الأولى شيئاً من السكون إلى المكان العاج بالناس لكنه لم يدم طويلاً، فقد أفاق من إستسلم للغفو على أصوات رجال الأمن وهم ينتشرون بيننا فجأة ويأمروننا بالنهوض، وقفت جموع الناس كلها متأهبة لكن طال الانتظار ربما قرابة الساعة والنصف، حتى بدأوا يخرجوننا عائلة إثر الأخرى ثم أمرونا بركوب سيارات «پيك آب» كانت معدة مسبقاً. تكومنا مع أسرتين أخريين في

إحدى السيارات ثم سارت جميعها في موكب طويل تتجه بنا الطريق الذي تغيرت معالمه شيئاً فشيئاً حتى صار جبلياً ووعراً. مع نهاية ساعات الصباح كانوا قد وصلوا بنا إلى المنطقة التي يريدون فهبط رجال الأمن من السيارات وبحركات سريعة ومدربة انتشروا بيننا يدفعوننا يجروننا نحن جراً إلى مصيرهم الجديد بينما اصطف عدد منهم يطوقوننا وقد شهروا أسلحتهم موجهينها نحونا. خلال دقائق قليلة كانت حشود المنفيين جاهزة للعبور وصاح أحد الضباط مشيراً بيده:

- دا تشوفون ذاك الجبل، إعبروه حتلقون الخميني وراه منتظركم.

ثم أكمل وهو يصرخ بنبرة حاسمة:

- يا الله ما أشوف خلقكم. تمشون ووجوهكم ليقدام. اللي يلتفت بيكم أرميه!

لم نكن نعلم في أي بقعة من العراق نحن، وأي جزء من إيران الحدودي تراه هذا الذي سيستلم أجسادنا المتعبة وأرواحنا المنهكة الهلوعة. ولو قدّر لهذه الرحلة الإجبارية أن تصوّر لكان أفضل طريقة هي تصويرنا من فوق في لقطة بانورامية تُظهرنا ونحن ننتشر كالجراد هابطين من جبل وصاعدين آخر، نسير على غير هدى وقد تركنا العراق الذي نبذنا دون أن نعلم إذا ما كان الأمل في العودة حق لنا أم لا. بعض الأسر كانت تتخلف عن ركب القوافل المسترسلة في مسيرها بسبب كبار السن فيها أو بسبب الأطفال والمرضى وغيرهم من المحتاجين للعون. وكان أخي الصغير أكرم يلح في طلب الطعام أكثر من غيره رغم اننا كنا جميعاً نشعر بالجوع وقد تعاون الناس فيما بينهم على توزيع بعض ما يحملونه من طعام يكاد ينفد لقلته. واصلت الجموع مسيرها على أمل أن يجدنا أحد أو أن نجد نحن قرية في طريقنا أو أي عمران وشكل من

أشكال الحياة وذلك كان أملنا الوحيد في حينها. أحياناً كانت أمي تستوقفنا لتساعد امرأة أو شيخاً، غير هذا فقد واصلنا المسير رغم التعب ورغم وعورة الطريق التي أنهكتنا. بطرف عيني كنت أراقب أبي الذي كسر جذع شجرة وتوكأ عليه ماشياً دون تعجل وهو ينظر أسفل قدميه فقط دون أن يرفع رأسه إلا قليلاً. ثم بدأ البرد القارس يداهمنا كلما توغلنا أكثر ولم نتفاجأ منه للوهلة الأولى حتى صرنا نغوص في الثلوج. وأذكر أن أحد الشبان تطوع محذراً بصوت عال أن علينا الانتباه من حقول الألغام ولا سيما الأطفال الذين قد لا يميزونها بسبب الثلوج التي كانت تصبح أعمق فأعمق كلما توغلنا أكثر. وأبرز ما علق في رأسي من تلك التجربة هو موت رجلٍ مسن في حضن واحدٍ من أبنائه وكان على ولده دفنه بيده في نفس البقعة التي قضى فيها، ولا أتذكره لأنه الوحيد الذي مات بل لأنه الأول ولأن ابنه صرخ صرخة جعلتني أتعلم ماهية الإحساس بالشفقة. وأيضاً أذكر تلك الفتاة التي تلطخت ثيابها بالبقع الحمراء وظلت تسير بخجل وهي تنزف من بين ساقيها إذ لم تكن تحمل خرقة تواري بها مثل تلك السوءة الأنثوية البائنة، ولا حتى ما تغطي به جسدها وثيابها الملوثة. بعض الأسر اضطرت لمواصلة السير كي لا تضيع الحشود رغم أنها كانت قد دفنت أحد أفرادها للتو في بقعة صعبة التعريف ويستحيل العودة إليها بعد حين لأجل المواساة. سرنا ليومين وبتنا ليلة في العراء شديد البرودة نستمد الدفء من بعضنا بعضاً، حتى وجدتنا السلطات الإيرانية التي وضعتنا بعد عناء طويل في معسكر نصبت خيامه في العراء، ووزعوا علينا ستراً عسكرية وجوارب صوفية وبعض المساعدات البسيطة. هكذا حللنا ونزلنا في هذه البلاد التي كانت على وشك ان تشهد مستقبلنا المبهم كما شهدت تلك ماضينا العزيز. غير انني في خضم تلك الساعات لم أكن أعلم اننا بعد سنوات قليلة

وبعدما هدأت حمى التسفير العشوائي، سيتذكر ابناء ملتنا ان موجة المسفرين الذين ابعدوا في بداية الثمانينات تعد الأكثر حظاً مقارنة بمن سيأتي بعدها. سنُحسد لمأساة أخف وطأة، فقط لأننا هُجرنا اسراً كاملة دون أن تحتفظ الحكومة العراقية بالرجال والصبية من الذكور كما ستفعل فيما بعد لتغيبهم في سجون ومقابر جماعية ستظهر فيها بعد سنوات عديدة بعض من رفاتهم هذا لو كانت أسرهم محظوظة للتعرف إلى مصيرهم الأخير، بينما هُجّرت في تلك الفترة الأشلاء المتبقية من تلك الأسر، الآلاف من النساء والأطفال والشيوخ الذين قضى العديد منهم في أثناء الطريق دون ذنب اقترفوه، إلا اللهم ذنب تلك الصدفة البايولوجية اللعينة التي ولدوا على إثرها كرداً فيلية.

* * *

بعد قرابة الثلاث سنوات من استقرارنا في مدينة إيلام أستدعي أبي ليُسأل إن كان بالفعل يعرف رجلاً اسمه موفق معه زوجة وطفلان وبصحبته رجلٌ وامرأة مسنان. بالإضافة إلى امرأة خمسينية تدعى قَيَم وفتاة في مطلع العشرينيات اسمها سهام. وكان أن صرخ أبي:

- يا أخي ماذا تقول هؤلاء أهلي.

كنا خلال تلك الفترة نعيش مترقبين، فقوافل المسفرين والمهجرين من العراق لم تكف عن التدفق وازدادت بشكل مطرد. كانت التسفيرات تتم بشكل عشوائي، غالباً بوشاية من شخص يود التخلص من أحدهم أو بمعرفة مسبقة من الحكومة العراقية بجناسي التبعية الايرانية من التجار الأغنياء لأجل مصادرة أموالهم وثرواتهم كما حدث معنا، ولهذا فإن المسفرين لم يكونوا كلهم من الفيلية بل أن الكثير منهم لم يكونوا حتى من ذوي الأصول الإيرانية كما ادعت الحكومة العراقية فكان من بينهم

العديد من الأسر العربية الأصل التي أراد النظام البعثي التخلص منها لسبب أو لآخر. وقد انتظرنا ثلاثة أعوام قبل أن يلتحق بنا جزء من أسرتنا الكبيرة التي خلّفناها في العراق حيث كنا حتى ذلك الحين مقطوعين تماماً عن أخبارهم، فلم نكن نعلم أن خالي مصدق الذي لم يتزوج قد غادر العراق مهاجراً إلى روسيا مباشرة بعد تسفيرنا، خفيفاً دون أن تتعلق برقبته زوجة أو ولد، وأن زوج «ميمي پري» العم اللطيف المُحب «مامَلي»، قد توفي منذ أشهر قليلة بسرطان البروستاتا. كانت فرحة أمي هيستيرية وهي تلتقي أهلها الذين أوصلتهم إلينا سيارة شرطة جاءت بهم من المخيم الذي ألحقوا فيه، حيث حزر جدي أن أبي سيكون مستقراً في إقليم لورستان فلم يطل بحثه طويلاً. بدا جدي من النظرة الأولى وكأن عقداً من الزمن قد مرّ عليه لا مجرد ثلاثة أعوام ثقيلة، أما نانّة بدرية فقد هزلت كثيراً وتجعدت ملامحها بشكل بيّن ربماً من أثر هزالها المفاجئ. ركض أخي الأصغر أكرم إلى ميمي قَيَم ما أن رآهم يطأون الدار وهو يصيح كأنه يتذكرها جيداً:

- «ميمي ميمي ميمي».

فاطلقت بصقة قائلة بوجه مكفهر كأنه لا يعرف الابتسام:

- ماذا أصابك يا فتى؟ أسعيد أنت وقد أحضروني إليك بسيارة شرطة؟

وبعد أن هدأت فرحة أمي بهم انخرطت في البكاء شوقاً لأختيها پري وفرصت وأخيها مصدق، ثم صارت تضرب على فخذها بألم وهي تنوح إثر خبر موت العم مامَلي الذي فجعها، سيما وان البُعد ضاعف من حزنها على أختها التي ترملت دون أن تقدر على مواساتها في زوجها.

لبثوا عندنا في البيت لشهور قبل أن يتمكن خالي من استئجار مكان

لهم منذ أن وفد إليه والدي عملاً بسيطاً، فعلى غير عادته بعد التسفير كان والدي كريماً جداً معهم حتى أنني لم أستوعب كرمه المفاجيء ذاك ولم أحسن تفسيره. إلا أن وضعهم كان عسيراً ومربكاً مقارنة بنا فلم يكن لجدتي ثري نسب يمكن تتبعه على الرغم من اسم عشيرته الكبيرة، أي أنه لا يوجد إثبات لذلك في داخل إيران كدولة، فهو من أسرة تعد عراقية منذ أكثر من مائة عام وليس له أبناء عمومة مباشرون يمكن أن يشهدوا بأنه منهم. وقد حاول والدي كثيراً أن يساعدهم حتى أن الأمر تطلب أن يسافر أكثر من مرة إلى العاصمة طهران، التي تبعد أكثر من خمس عشرة ساعة بالسيارة، ليتابع بنفسه الشؤون القانونية لكن دون جدوى. وظل جدي وأسرته دون أوراق ثبوتية بعد أن أسقطت جنسيته العراقية ولم تعترف به إيران بل لم يعد العالم بأسره يعترف بوجوده في الدنيا منذ تنكر له البلدان معاً. ولكي لا تلقى خالتي الصغرى سهام مصيراً معلقاً ومبهماً زوّجها جدي الملاّ لأول رجل إيراني طلب يدها. كان وجهها في ذلك الحين يتمتع بملامح هادئة وصافية، طويلة القامة رشيقة العود، شعرها البني يصل حتى خصرها، رفعوه لها ليلة زفافها ما تطلّب مجهوداً مضاعفاً لتصفيفه من شدة كثافته حتى أن النساء اللواتي اهتممن بزينتها خرجن من عندها وهن يتحسسن أيديهن وزنودهن وقد تعرقن من شدة التعب. حين طرقتُ عليها باب الغرفة لأعلمها أنهم بانتظارها لعقد القران، سحبتني إلى الداخل لتغمرني باكية بشدة حتى سالت الأصباغ التي صبغوا بها وجهها مسببة فوضى من الدموع والألوان. كانت ميمي سهام تلك الفتاة التي نشأت مدللة دلالاً مضاعفاً، فهي الصغرى في أسرة من الكبار حيث سنها قريبة من سننا نحن أبناء اخواتها، وبحسب ما أذكر عنها قبل مغادرتي للعراق فقد كانت تعيش منافسة قوية بين بنات خالتي پري اللواتي كن متفوقات في الدراسة بينما

لم تكن هي بمثل تفوقهن، إلا أنها نجحت أخيراً بالدخول إلى الجامعة ودرست في كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية وسُفِّرت قبل التخرج بشهور معدودة. ومن يدري ما نوع التغيير الذي كان سيطرأ على حياتها لو أنها بقيت هناك وأكملت دراستها لتتخرج، لعلها كانت لتوفق إلى العمل أيضاً، على الرغم من أن حلماً كهذا كان سيلاقيه الرفض التام من جدي الملاّ وخالي موفق، لكن ولسوء القدر معها انتهت أحلامها في إيلام مثلنا تماماً، فتزوجت رغماً عنها رجلاً لم يكن ليتجرأ على التفكير فيها لو أنه التقاها في مكان وزمان مختلفين،كما أنني لست بحاجة لكي أحزر بأن أمثاله لا يمكن أن يكونوا فتيان أحلام نساء صغيرات مثل خالتي الجميلة المدللة. كان رجلاً كردياً من عشيرة لم تكن تقربنا ولم يحدث أن ناسبنا أحداً منها قبل ذلك، تقع قريته في الأصل خارج إيلام المدينة، يكبر خالتي سهام بخمسة عشر عاماً ولم يكن وسيماً أو حتى لطيفاً بل كئيباً جلفاً على الرغم من عمله الذي يتطلب احتكاكاً مباشراً بالناس فقد كان يعمل كموظفٍ حكومي حيث يقطن في «كرمان شاه»، وقد تزوجها ورحل بها إلى هناك مباشرة. تابعتُ زفافها الخالي من البهجة بإحساس الشفقة الذي تدربتُ عليه جيداً مع الوقت، وفكرت في سري بالحالة التي ستكون عليها وهي تجد نفسها فجأة وخلال أيام معدودة في بلد غريب مع رجل غريب في مدينة أكثر غرابة، ويبدو انني لم أكن وحدي من فكر في ذلك إذ قال أخي مؤيد بعد انتهاء الحفل وهو ينظر أسفل قدميه في حيرة:

- هم زين آني مو بنية. كان هسه زوجتوني واحد سرسري مثل هذا وخلصتوا مني.

- عيب ماماني حبيبي.

قالت أمي وهي تخزره بلين. لكنه واصل جاداً:

ـ يعني شلون عفتوها تروح وياه؟ شو ما مبين ما قابلة بيه؟

وردت أمي بلامبالاة كأنها لن تشغل بالها بمثل هذه التفاهات:

ـ تتعود مامان. يصير هذا رجلها، وذاك بيتها وتتعود.

لم يمض على جدي في منفاه سوى عام ونصف العام فقد توفي بعد أن هزل هزالاً شديداً وصار هيكلاً عظمياً مجرداً يكسوه جلد مجعد، سيما وانه في أواخر أيامه لم يكن يذوق الطعام إلا لماماً. كانت أمي قد طلبت ان يبقى عندها مذ أحسسنا جميعاً بدنو أجله إذ بات يهذي باسم ابنته الراحلة قسمت ويذكرها كثيراً كأنها لم تفارقه لحظة. في اليوم الذي توفي فيه كنت قد دخلتُ إلى غرفته صباحاً حاملاً حساء الدجاج الذي اعدته له امي، حيث تعود ان يقضي معظم وقته على فراش طلب بنفسه ان يُرتب من أجله على الأرض الصلبة بجانب الحائط. وجدته يبكي ويسعل بقوة كلما اشتد بكاؤه، فوضعت الصينية على الأرض وجلست بالقرب منه محاولاً مواساته وحمله على التوقف عن البكاء وربما إطعامه. كنتُ غراً لا أعرف كيفية التعامل مع مشاعر رجل عجوز تشتت اسرته وتمزقت بين الدول لتواجه مستقبلاً تبدو ملامحه مخيفة بينما يوشك هو على مغادرتهم إلى الأبد دون أن تسعفه الأيام وقتاً أضافياً ليطمئن فيه على حالهم. ناديته واضعاً كفي على كتفه وأنا أهزه برفق:

ـ باپيره، باپيره.

لكنه لم يجبني، لم يبدُ انه قد شعر بوجودي من الأساس وواصل حزنه فارتأيتُ ان من المستحسن تركه ليهدأ من تلقاء نفسه. تركته لعزلته ودموعه وأغلقتُ الباب خلفي. بعد ساعات قليلة تحلقنا حول فراشه وكان هو يهذي كلماته الأخيرة ثم يتوقف بين الحين والآخر فتصرخ أمي ظانة انه قد مات كلما كان يسكَن. سمعناه يهذي باسم ابنته الراحلة

قسمت وباسم بغداد كثيراً، بل انه كان يهذي باللغتين العربية والكردية معاً. كان قد طلب أن يدفن في العراق رغم معرفته ان ذلك أمراً مستحيلاً، لكنه ذكر رغبته تلك ربما على سبيل التعبير عن الأمنيات الأخيرة. مات مع نهاية ذلك اليوم ولحقته نانه بدرية بعد شهور قليلة. كانت أمي تقول ان الحزن يقتل، وإذ أنهما لم يصمدا أمام الحزن والفراق فقتلهما. دَفنّا جدتي بالقرب من جدي الملاّ غلام علي في مقبرة «خاص علي» التي كانت على مشارف مدينة إيلام. ويبدو أنه لم تكن لأسرة جدي نصيب في هذه البلاد فبعد أن يأس خالي موفق من تيسير أموره اختار الهجرة هو واسرته الصغيرة فغادر إيران في العام ١٩٨٧ دون أن يقصد بلداً بعينه حتى انتهى به المطاف في «النرويج». وقد حاول اقناع «ميمي قيم» بمرافقته لكنها رفضت بشدة، إذ لم تكن لتتخيل نفسها تعيش في بلد غير مسلم كما وصفته، وبقيت عندنا لتواصل شيخوختها بمكابرة نادرة على من في سنها ووحدتها ووضعها المربك. سمعتها مرة تقول دون أن يسمع لصوتها رنة أسف:

- وماذا سيفرق بالنسبة لي لو عشتُ هنا أو هناك، أو لو كنتُ بأوراق ثبوتية أو من دونها، من حسن الحظ أنني «بلا ولد أو تَلد» لكي يرث كل هذه الخيبات المتعاقبة عني.

* * *

- فوق ما شمرنا على الحدود وفرهدنا ونهب حالنا ومالنا هالنوب لاحقنا بصواريخه. ما متنا من البرد والجوع والألغام يريد يموتنا بالقصف.

هذا ما قالته أمي في أثناء احتمائنا من إحدى الغارات التي شنها الجيش العراقي على مدينة إيلام التي لم تكن تبعد كثيراً عن الحدود

الشرقية للعراق وكانت لهذا السبب بالذات منالاً سهلاً وقريباً. لم يعلق أحد على كلامها. كانت تصرّ على الحديث بالعربية كأنها تعاند أبي الذي تحول عن تأريخه ببساطة تبدو شديدة فلم نعد نسمعه يلفظ كلمة واحدة باللغة العربية، حتى تلك الكلمات المشتركة بدا كأنه قد كنسها عن لسانه وصار يضع محلّها إذا ما اضطر كلمة بالفارسية بما أنها أقرب للغته من العربية التي لفظه ابناؤها بعد أن سرقوا منه حياته. ولم يكن أبي يعبر عن مشاعر مثل تلك لكن اعتزازه المفاجئ بقوميته حد التعنصر لها أتضح مع طريقته الجديدة في تنمره على الدنيا بأسرها، على عكس أمي التي واجهت انقلاب حياتها بالأمل، فكانت ترفض تأثيث بيتها الجديد ولبثت سنوات دون أن تشتري خزانة ملابس لغرفة نومها على أمل العودة إلى العراق، ففكرة إستقرارها تفرض معها قرار إجتثاث كامل للآمال من حياتها، فعاشت دون طمأنينة الإستقرار في محاولة منها لتغذية آمالها كما ينبغي. من زوجة تاجر كبير، مرفهة ومدللة تسكن بيتاً أنيقاً في حي شارع فلسطين وترتدي الثياب المستوردة، إلى امرأة تلبس جبة كحلية وتضع حجاباً بني اللون حول شعرها الأشقر الذي بهت وتجعد وقد خلا وجهها من الأصباغ وسيبقى كذلك لما تبقى من حياتها. تكنس وتشطف بنفسها فناء بيت على الطراز الإيراني بعد أن كان لها في بغداد خادمة تعينها. فكانت تغسل وتنشر ملابس أولادها الذين تغيرت قيافتهم من البنطلونات ذات الألوان الزاهية إلى سراويل جبلية عريضة لم تكن تتنوع كثيراً في ألوانها وتبقى قاتمة أو شاحبة على قدر الإمكان كي لا يبان بها وعثاء الجبل أو طين الشوارع غير المعبدة.

يبدو الفارق كبيراً في واحدة من صورنا القليلة التي نظهر فيها جميعاً حيث سيصبح من النادر أن نجتمع كلنا في صورة لا سيما مع والدنا، وكانت هذه قد التقطت لنا بعد قرابة العامين من وجودنا في إيران أثناء

هروبنا من القصف الذي اشتد علينا إلى حدود «كرمان شاه» حيث توغلنا شرقاً ولبثنا لأيام. كانت الصورة لنا في العراء خلفنا جبال لا منتهية وفي المنتصف نقف أنا وسرمد ومؤيد مصطفين حسب تسلسل أعمارنا وإن لم نتعمد ذلك. أمامنا يقف كلاً من ليث وأكرم بينما بانت أمي في طارف الصورة جالسة على صخرة ضخمة حيث يقف أبي بالقرب منها على صخرة أصغر حجماً. أمي، مريم غلام علي رحيم اختيرت لها كنية زوجها فأصبحت مريم كاكه زاده على الرغم من كون اسمها الأصلي ربما لم يكن ليستفز أحداً، تظهر في الصورة بزيها الجديد كأنها واحدة من نساء منظمة «مجاهدي خلق»، بجبة بنية وإيشارب أزرق تعقصه تحت ذقنها بإهمال وقد أخفت تحته شعرها كله حيث كانت تعليمات الالتزام بالحجاب الإجباري بعد طازجة في تلك السنوات، ولم تكن النساء قد تجرأن على كشف جزءٍ من شعرهن كما سيحدث في ما بعد إعلاناً منهن التمرد والعصيان على أحكام وفروض الجمهورية الإسلامية. أما أبي فكان حليق الذقن بشارب خفيف وشعر أسود فيه خليط مكثف من البياض الذي كان قد بدأ يغزو رأسه الأربعيني في ذلك الحين، مرتدياً قميصاً أبيض اللون يبدو ضيقاً حول كرشه الذي تضخم بعد أن إزداد وزنه بشكل ملحوظ، ويضع قبضته اليمنى عند خصره بينما تتدلى يده الثانية عند منبت فخذه كأنه على وشك أن يرفعها، مبتسماً ابتسامة شبه فخورة لا يمكن لي أن أحزر سرها ونحن في تلك الظروف. نقف نحن الخمسة في منتصف الصورة كأننا أعمدة من شمع متسخ، بوجوهنا التي علاها شيء شبيه بالغبار أو السخام الذي لا أذكر من أين وكيف تلطخت به وجناتنا، ومن المحبذ أننا كنا نلعب ونركض على مساحات العشب الشاسعة ونمرغ أجسادنا عليها متناسين الصواريخ والحرب والإقصاء الذي منينا به ولو لدقائق معدودة من الزمن. سرمد يبدو في

الصورة أطول مني ولعلها كانت المرحلة الأخيرة التي كان يفوقني فيها طولاً لأنني بعدها بفترة قليلة كنت قد تعديته كثيراً. يبدو سرمد شاباً غراً ذا بنيانٍ معتدل مرتدياً بنطلوناً أسود وبلوزاً أحمر قاتماً على قميص كانت ياقته الصغيرة تظهر مجعدة حيث تطل منها رقبته الطويلة، كان عاقصاً ذراعيه وهو ينظر إلى الكاميرا من تحت حاجبيه الكثيفين بشيء من الارتياح الممزوج بالضيق دون أن يبتسم، بينما أقف أنا إلى جانبه مبتسماً ابتسامة كبيرة دون أن تظهر أسناني، ومثل سرمد كنت مرتدياً قميصاً فوقه بلوز أزرق عليه رسم لسيارة فورد قديمة وسروالاً كردياً عريضاً بني اللون، أضع يداً حول خصري واحتضن بالثانية مؤيد الذي كان يرتدي سروالاً مثل سروالي ويفتح فاه الكبير عن آخره في ما يبدو شبه صرخة. أما ليث فيقف في الصورة متخصراً أمامنا ينظر إلى خارج كادر الكاميرا متأملاً ومبتسماً ابتسامة راضية وقد بدت رجله المشلولة كأنها غير مرتخية في حركة ذكية كان يجيدها حين أخذ الصور. وأخيراً أكرم الذي وقف بجانب ليث برأس أجبروه على حلاقته في المدرسة الابتدائية حيث سمحوا له الالتحاق بالدراسة أسرع منّا جميعاً فقد كان صغيراً والتقط اللغة الجديدة دون عناء. كان يبدو في الصورة ماداً بوزه إلى الأمام في حركة صبيانية تدل على «وكاحة» لا تطاق، مرتدياً سروالاً كردياً كحلي اللون وبلوزاً عليه رسمة لحذاء مهتريء كنت كلما طالعت الصورة أمازحه قائلاً:

- دشوف الحذاء اللي على صدرك، بوزه بالضبط نفس بوزك!

لا شيء! لا شيء في هذه الصورة التي اصطبغت بألوان الثمانينات العتيقة المائلة إلى الإصفرار يشبه صورتنا الأخرى التي كنا إجتمعنا فيها في بغداد. ما زلت أحمل تلك الأخيرة في ذهني طوال هذه السنوات فبقيت حيةً في ذاكرتي ومخيلتي معاً، إذ لم نكن قد استطعنا جلب

صورنا وذكرياتنا معنا كأنه كان مفروض علينا أن نُقتَلع من كل شيء لكي نبدأ هذه الولادة الجديدة التي من المفترض ألاّ نسترجع معها ذكريات حيوات سابقة. تستقر هذه الصورة في رأسي كواحدة من الأشياء القليلة التي تدلل على ماضينا السعيد، فقد كانت في احتفال لعيد ميلاد ليث الذي تعودت أمي أن تبالغ في الاعتناء بتفاصيله كل سنة. أذكر أننا كنا نظهر جميعنا في الصورة ببدل وقمصان بيضاء وأربطة عنق وقد فرقنا الشعر إلى الجانب كأننا فرقة «البيتلز» متوزعين على كنبة كبيرة في غرفة الاستقبال في بيتنا البغدادي وقد إرتسمت على وجوهنا آثار النعمة والراحة. بينما يظهر أبي «ابو الخنافس»، الخنفس الكبير ذو البدلة السوداء وربطة العنق الإنكليزية عند طرف الصورة، هنا أيضاً أذكره يبتسم بفخر وقد وقفت إلى جانبه أمي في ثوب فاخر الصنع زيتوني اللون يكشف عن جزءٍ كبير من صدرها الذي زينته بعقد من اللؤلؤ وهي تنظر إلى الكاميرا وكأنها شبه متفاجئة أو غير متحضرة لالتقاط الصور. لا شيء يدل على أن الأشخاص في الصورة الأولى هم ذاتهم الذين في الصورة الثانية، وأن الفاصل الزمني بين الصورتين هو شهور معدودة فقط. ما الذي تغير يا ترى؟ وبهذه السرعة العجيبة؟ ربما هي الآثار التي تتضح على من سُلبت حياتهم منهم فقط ليس إلا. غير أننا وبرغم كل ما كنا نعانيه وبالرغم من مصائرنا التي التوت بين ليلة وضحاها إلا اننا كنا نُعتبر أكثر المتعوسين حظاً، إذ كانت أسرتنا هي الأسرة الوحيدة التي تمكن راعيها في زمن قياسي من إثبات نسبه لعشيرة كردية إيرانية بعد أن استعان بأخويه اللذين عاشا عمرهما يتنقلان بين حدود البلدين دون الشعور بالانتماء المطلق لأي منهما على حساب الآخر حتى فُرض ذلك عليهما فرضاً. وأيضاً كان والدي قد استعان بأولاد عمومته ليؤكدوا نسبه، وببعض الرشى والإغداق على هذا وذاك تمكن من الاستحصال

لنا على أوراق ثبوتية إيرانية بسرعة فائقة غيّر على إثرها أسماءنا العربية إلى تلك الجديدة. ثم تمكن من تجاوز صدمة التهجير ومصادرة أمواله مستعيناً بما هربته زوجته التي خاطرت في لف تلك الرزمة على بطنها حيث جعلته يشهق حال إظهارها له بعد أن عبرت بها بأمان معمية عنها عيون رجال الأمن الذين كانوا مشغولين بكيل الركلات والشتائم للمسفَّرين. أمي التي لطالما اعتبرها والدي دون نفع يذكر جازفت من أجل مساعدتنا جميعاً وقد وفقت لتفاجئه بكونه ليس معدماً تماماً كما كان يظن، وبتلك الغنيمة تمكن من شراء منزل بثمن بخس في مدينة البسطاء تلك، حتى انه لم يبدأ من الصفر في هذه المرة كما في السابق واختار ان يستقر في مدينة إيلام دون سائر المدن الكبيرة في إيران متعمداً، بعد أن صار حذراً كي لا يلدغ من الجحر مرتين كما كان يردد، وذلك قبل أن تتوه الكلمات والأمثال العربية عن لسانه تدريجياً. هذه المدينة التي كانت في ما مضى عاصمة پشت كوه أي ما وراء الجبل - هي الموطن الأصلي للكرد الفيليين بحسب ما كان يقص علينا جدي الملاّ منذ نعومة أظفارنا، إلا انه لم تغرني القصص البطولية عن أجدادنا الذين عاشوا في پشت كوه منذ سنوات عديدة لكي أرغب بزيارتها بل لم يكن عندي حتى فضول بسيط، لكن ها نحن ذا قد أجبرنا قسراً على التعرف إلى تلك الأصول التي بدت لنا وكأنها ما تزال بدائية مقارنة ببغداد المدينة الوحيدة التي كنا نعرف. ولمّا لم يعد لأبي الثقة في الأوطان ولا سيما حكوماتها قرر أن يبتعد قدر الإمكان عن كل ما كان يعتبره مصدراً للمشاكل، فكان مهماً بالنسبة له البقاء قريباً من أبناء عشيرته وحيث موطنه الأصلي بدل التوغل في إيران إلى المدن الكبرى والفرص المعيشية التي قد تكون أفضل. كما أنه بعقليته التجارية الفذة عرف كيف يستغل هذه المدينة المكونة من شارعين يتقاطعان عند

«ميدان كشوري» وهي ساحة صغيرة تمتد من بعدها بضعة محال تجارية بسيطة ومركز للشرطة ثم «صدا وسيما» وهو مبنى صغير تابع لإذاعة وتلفزيون الجمهورية الإسلامية في إيران، ولا أذكر ما هو أكثر أهمية من ذلك حين وصلنا إلى تلك المدينة الريفية في بداية الثمانينات. من النظرة الأولى عرف أبي ان هذه المدينة ينقصها الكثير ولا سيما مطبعة، فأنشأ واحدة مبدئياً ثم اشترى أغناماً أوكلها لراعية ترعاها تدر عليه ربحاً وفيراً، ثم بعد فترة عرف أن الأهالي يضطرون للسفر إلى أماكن بعيدة من أجل التقاط الصور في ستوديو تصوير احترافي، فكان أن إفتتح ستوديو في مركز المدينة الصغير وجاء بمصورٍ من أصفهان ليعمل فيه. وهكذا، وشيئاً فشيئاً عاد يعمل على جمع الأموال بشتى الطرق وبشكل دؤوب، لكن هذه المرة بتصميم أكبر ومعرفة مسبقة بما تبدو عليه حياة الرغد التي لم يعد أبي ينشدها كما في السابق، وقد تحول مع الوقت من ذلك التاجر الباذخ الكرم ذي البدل الإنكليزية والكاريزما العالية، إلى قروي جشع لا هم له سوى جمع الأموال التي لا يرغب في صرفها، مرتدياً القميص والبنطلون نفسيهما أيام الأسبوع كلها دون أن يفكر في تغييرهما ويركب سيارة قديمة قد تآكلت بيبانها من الصدأ على الرغم من قدرته على شراء أخرى أفضل وأحدث.

تعلمنا انا وإخوتي أنه ليست بالأموال وحدها تقدّر الحظوظ على الرغم من الحسد الذي كانت تلاحقنا به نظرات الناس، ولا سيما من المهجرين أمثالنا الذين لم يستقر بهم الحال، فبعد أن تتعكر النفوس وتُجتث الأحلام وتُقلب الحيوات رأساً على عقب تصبح الماديات بلا جدوى أو نفع كأنها هباء منثور. فمهما صرفت من أموال لن يمكنني العودة إلى رحلتي المدرسية التي تركتها دون وداع ولا يمكنني شراء أحلام أعيش من أجلها بعد أن فقدت حياتي طعمها كلياً، والأهم من

ذلك ان المال لن يمكنني من شراء أبي القديم، الأب الذي كان صارماً، حازماً ومهاباً لكنه في الوقت ذاته كان حنوناً جداً ومحباً، ليس بالإمكان شراء عطفه وكرمه أو إلغاء الصفات البغيضة التي تمكنت منه وشكلت شخصيته الجديدة. ولعل هؤلاء الحاسدين لم يعلموا أبداً أنني وإخوتي عشنا بعد العز والترف ضنكاً وعوزاً قد يصعب تصديقهما بسبب ثراء والدنا المعروف، ولو علموا لربما كانوا كفّوا عنّا شر أعينهم، فمن ذا سيصدّق أن أولاد «مجيد كاكه زاده» الرجل الذي جاء مسفراً إلى مدينة إيلام وصار في وقت قياسي يمتلك نصفها، كانوا يقضون شهوراً طويلة بقميص مدرسيٍّ واحد، بل أن والدي كان يعتبر مسألة أن يكون لكل منّا قميص بمفرده ترفاً وتبذيراً بدل مشاركة الألبسة بحسب رأيه. ولا أدري إن كانت الحظوظ والأرزاق وامتحانات الصبر توزع حسب طاقات البشر، لأنني كنت كلما ألتقي بأحد أقل حظاً منّي أحمد الله على ما آل إليه حالي وأتعجب من صبري المحدود وضيق صدري الذي يلازمني بسبب الانقلاب الكبير الذي شهدته حياتي. ذات مرة وقفت عند بائع إفترش الأرض جاعلاً منها بسطية صغيرة وحقيرة يمكن لأي ريح من رياح الشتاء الباردة أن تقتلعها بمن يجلس عليها لأشتري منه علبة كلينكس وموس حلاقة، وحين رفع ذلك الرجل الرث الهيئة رأسه إلي ليدلي بالمبلغ المطلوب وجدته يحدثني بعراقية مميزة. يا الله من كم الحنين الذي صفع قلبي! قرفصت بجانبه وجاذبته أطراف الحديث فقط رغبة مني في الاستزادة من الحديث بالمحكية العراقية مع شخص لا أعرفه، فعلمت منه أنه يعرفني وإن لم يخمن أياً أكون من أبناء مجيد كاكه زاده كما بات والدي معروفاً بين الناس. كان واضحاً من حالته أنه شاب مسفر وقصته مأساوية مقارنة بالترف النسبي الذي أعيشه أنا. فقد قضى نفر من أسرته أثناء التسفير حيث ألقوا على الحدود المحفوفة

بالألغام مباشرة وماتت والدته وأخوه في انفجار لواحدة منها بينما فقدت إحدى أخواته البنات ساقها. وما تعجبت له حينها هو رضاه بما اسماه القضاء والقدر، بل إنه لم يضمر في دواخله حقداً حتى على الناس الذين لم يمدوا له يد العون والمساعدة بعد أن رفضت الحكومة الإيرانية إعطاءه أي وثيقة تثبت وجوده. فلا هو له نسب يمكن أن يتتبع أو يُعرف بعد حين ولا هو لديه أموال يمكن أن يرشي بها موظفي الحكومة ليستحصل بها أوراقاً ثبوتية كما فعل والدي مثلاً.

- «يعني شيريدون يسوولي همه ما دزوا عليه آني جيتهم. حكومتنا شالتني وشمرتني عليهم. وآني بالمناسبة عربي، وحلفتلهم بمحمد وبالأيمة انه آني عربي. محد يصدقني. يقلولي جنسيتك مكتوب بيها تبعية إيرانية. يابة هذا الحچي قديم واحد من أجدادي الله لا يرحمه حطنا بالجنسية تبعية إيرانية علمود لا يخدمون عسكرية بذاك الوقت، يعني هالحچي من زمن العصملي».

ثم تأفف وتنهد مسترسلاً:

- بس شتسوي. هذا مصيرنا وهاي قسمتنا. إذا بقينا أو طلعنا ترى نفس المصير. الحرب ممكن تأخذنا كلنا. على الأقل هنا بس أمي وأخوية انطوك عمرهم.

* * *

مع كل يوم يمر كان يتعمق في داخلي الإحساس البشع بالإقتلاع، بالخواء واللا جدوى. كان من الممكن لهذه القرية الجبلية ذات الطبيعة الخلابة والهواء النقي ان تكون مكاناً رائعاً للاستجمام بدل ان تمثل في داخلي ولسنين قادمة كابوس الإقصاء والقسوة المطلقة. هذه الاختلافات الصغيرة التي تذكرني كل يوم بما كانت عليه حياتي الماضية المملؤة

بالترف والنعم والاختلاف المفاجئ بينها وبين بساطة الحياة الجديدة، تفاصيل صغيرة كأنها شرر متطاير من جحيم أبدي يشعل دواخلي بنيران لا تخمد. أذكر كيف ان مجرد تلبية طلب من والدتي لشراء الخبز في الصباح الباكر كان يعد بالنسبة لي مهمة ثقيلة تؤكد على تعاستي ومع الوقت صارت المواقف الصغيرة المشابهة لها فأساً تحفر أكثر في الهوة العميقة بين ما كنت وما أصبحت عليه. أقراص الخبز التي تخرج من التنور هي نفسها أقراص الخبز العراقي الذي كانت ترسلني أمي في طلبها من المخبز الواقع في الشارع الخدمي المطل على الشارع العام خلف بيتنا هناك في بغداد. في ذلك الحين كانت هذه تعد من أسهل المهمات لكنني في إيلام كنت أطلب بكرديتي الخجولة عشر قرص فيبتسم الخباز النحيل ذو الحاجبين اللذين يشبهان شاربين ضخمين إرتفعا إلى أعلى جبهته بدل ان يستقرا تحت أنفه ويقول بدعابة:

- لديكم ضيوف؟

وحين لا أحير جواباً يكمل ضاحكاً:

- أنتم العرب تأكلون كثيراً.

لم أشعر بحاجة إلى توضيح اننا نشتري الخبز الذي يكفينا النهار بأكمله ولسنا مثلهم نخرج لشرائه مع كل وجبة لأنهم يفضلونه ساخناً و«تازة» كما يردد وهو يصف الأقراص فوق بعضها. ولم أشعر أيضاً بحاجة إلى الإشارة لكوني لست بعربي، بل انا كردي صميم من جانب الأم والأب معاً، وان نسبي لا يختلف عن أنسابهم ولعلي وإياه نتشارك جداً بعيداً. غير انه من الصعب التعريف بكل ذلك وتغيير فكرة أناس قرويين كانوا يشيرون إلى بيتنا ببساطة بأنه بيت العرب، الأغراب الجدد على المنطقة والذين إقتحموا قريتهم المسالمة والناطقة بالكردية الجبلية

التي لم أكن أفهم بعد الكثير من مفرداتها. كانوا يضحكون ببراءة من كرديتنا المعرّبة ويحاولون بخبثهم القروي أن يجعلونا نتلفظ الكلمات التي تثير سخريتهم.

ـ ماذا تريد أن تشتري؟

ـ طماطة.

ـ تماتا.. تماتا. كم كيلو من التماتا تريد؟

هكذا أصبحنا انا وإخوتي محط سخرية هؤلاء القرويين الذين لم يحدث أن تعدى نظرهم في الحياة أرنبة أنوفهم.

ـ أريد من التفاح الأصفر.

ـ أسفر؟ أسفر السافرين؟

و ينفجر فى ضحكة أنتظر ان ينتهى منها بصبر وطولة بال.

- زرد وليس أصفر!

نعم، بالتأكيد سيعلمني هذا الجاهل الأمي كيف أتحدث الكردية دون أن أطعمها بالكلمات العربية، وله الحق في أن يضحك ويسخر من كلماتي المرتبكة، فحياتي كلها صارت تشبه نكتة تافهة فلماذا تراني أوقف سخافة هذا الرجل كأنه وحده ما يزعجني ويثير ضيقي؟

وكبرت. خلال وقت مر علي طويلاً وعددته في داخلي قصيراً وجدتني ألج العشرينيات من عمري، فكبرت ولم تكبر معي دنياي، ظلت صغيرة تتغذى على فتات الذكريات التي كنت أتناساها لبعض الوقت حتى تعود فتصفعني لأنتبه إلى أن السنوات تركض بي دون أن تُهيء لي فرصة العودة إلى العراق فكنت مع كل مرة أعي فيها ذلك أصاب بسبات يقعدني في غرفتي لأيام أسدل فيها ستائر الغرفة التي

اتشاركها مع مؤيد وأنام لأحلم بالعراق. فأرى بيتنا ومدرستي وشوارع بغداد وفناء دار جدي العتيقة في الدهانة، وشبح خالتي قسمت. ومرة واحدة فتحت عيني بعد واحد من سباتاتي الطويلة فوجدتني أحمل عمراً جديداً وهيئة جديدة ولساناً معوجاً، لكن قلبي ما يزال قلب ذلك الفتى ذي الثلاثة عشرة ربيعاً الذي أجبر قسراً على حياة أخرى غير حياته. ما زلت الطالب في المتوسطة في شارع فلسطين، حتى انني بقيت لسنوات كما كنت أفعل في بغداد ـ أستمع إلى «فرقة آبا» و«البي جيز» عبر اشرطة الكاسيت التي كنت أتبادلها في فترة ما مع زملاء المدرسة من الإيرانيين الذين كانوا قد خبروا العناد والتحدي فكانوا يعرفون تماماً كيفية التحايل على القوانين العديدة التي فرضتها السلطة الدينية المطلقة في البلاد، ورغم ذلك كانت الكثير من الأشياء الظاهرة قد أعيت حيلهم، مثل حلاقة الشعر الذي فرضوا علينا التخلص منه تماماً مع بدء الدراسة، والزي المدرسي الكئيب والنظام الفاصل تماماً بين الشبان والفتيات، والصلاة الجماعية الواجبة والهتافات الصباحية بالموت لأمريكا وغيرها، كل هذه الأمور الظاهرة لم تكن تسعفهم الحيل في التملص منها، عدا عن ذلك فإن معظمهم، برغم قرويتهم، كانوا في بيوتهم ما يزالون يعيشون إيران العصرية التي سبقت الثورة، فيخلع الحجاب عن رؤوس النساء وتصب كؤوس من مشروبات روحية تُصنع بطرق بدائية في مخابئ سرية رغم ما كانت ستجلبه من متاعب مخاطرة كهذه، لا سيما في تلك السنوات الأولى حيث حمى الحرب والانفعالات الحماسية للثورة الوليدة لم تزل قائمة. وهكذا فتحنا عيوننا على دنيا خالية من المتع، خالية من البهجة والألوان، خالية من النساء والفتيات والإحساس المترع بالحياة والانطلاق، وكنا نلتحق رغماً عنّا بأمة تُجبر على العيش عجوزة على الرغم من شبابها. أمة متخمة بشعارات الحرب تصطبغ بكل ما هو

فاتم وكئيب، وشيئاً فشيئاً كانت تُمتص منها الحياة كي تترك جافة وهامدة من دون روح. متعتان وحيدتان كانتا متاحتين وكنا نحرص عليهما في ذلك الحين هما الرياضة ومتابعة التلفزيون، حتى اننا جميعاً انخرطنا في ممارسة الرياضة بكافة أنواعها وقد تفوق أخي الأصغر أكرم في رياضة التايكوندو بشكل لافت حتى أصبح بطلاً فيها، بينما عدنا نحن في النهاية وبعد ان جربنا العديد من الرياضات إلى كرة القدم. وبحكم وجودنا القريب نسبياً من الحدود العراقية تمكن أخي مؤيد من التقاط تلفزيون العراق وإن كان مشوشاً، وبالرغم من اختفاء الشاشة بين الحين والآخر إلا أن ذلك لم يفقدنا الحرص على المتابعة فنشأنا ونحن نستمع إلى خطابات حرب البلدين معاً وكانت طبول الحرب تقرع في بيتنا من الجانبين، عبر أغاني مثل «يا گاع ترابچ كافوري» إلى «ايران، خون ومرگ وعصيان». من النشيد الوطني العراقي «وطن مد على الأفق جناحا» إلى «شد جمهورى إسلامى به پا»، النشيد الوطني الأول بعد الثورة والذي تغير بعد ذلك بسنوات. وكان رائعاً أن أتابع مرة أخرى أعمال «سعاد حسني» التي كنتُ أعشقها حتى أنني شغفت بشدة بمسلسلها الجديد آنذاك «هو وهي»، وقد احتفظت بالبوستر الذي سربته معي لسنوات على الجدار فوق سريري الموحش حيث كنت أنام. كما صرت مولعاً بالاستماع إلى الأغاني الإيرانية التي سبقت الثورة لمطربين من أمثال «هايدة» و«مهستي» و«گوگوش» و«ستار»، حتى وإن منع التلفزيون الإيراني أغانيهم تلك كنت أتدبر طريقة للحصول عليها مسجلة. ولم أكن في البدء استسيغ كثيراً فنون ما بعد الثورة ولا سيما الأفلام الإيرانية التي كانت تختلف كثيراً في مضمونها عن المصرية التي كان يعرضها التلفزيون العراقي مرة كل أسبوع، إلا انني تعودت عليها هي الأخرى بعد حين، إذ لم يكن سهلاً عليّ هضم الثقافة الإيرانية

بتلك السرعة، فسنوات الحرب والثورة التي انتقلت بالعاصمة طهران التي كانت تكنى بباريس الشرق إلى مدينة محجبة بالدين والتعصب كانت قد أضفت لوناً شاحباً على ثقافتهم في وجداني، ورغم انخراطي في الدراسة وتعلمي الفارسية في فترة قياسية لكونها قريبة إلى حد كبير من لهجتنا الفيلية إلا أنني لم أكن قد تعرفت بعد على وجه إيران الثقافي الحقيقي، ربما ببعض التقصير مني لكن بكثير من التشويش الذي مارسته الدولة حيث غيّرت المناهج وحاولت بشتى الطرق ستر ما عدّته عورات الأدب التأريخية، من حذفها للخمريات الشهيرة لكل من شاعري إيران الكبيرين حافظ وسعدي، إلى نبذها الغناء والموسيقى وتحجيمها للكثير من الفنون والآداب. وكان ذلك التشدد العنيف مثل قبضة قوية أطبقت على عنق الشعب الإيراني ارتخت شيئاً قليلاً بعد سنوات الحرب تحديداً، قد ساعد في عدم معرفتي بالوجه الحقيقي للبلاد ولا سيما أنني لفترة طويلة لبثت محصوراً في قرية شبه نائية دون أن أزور مدينة كبيرة من مدنها لأتعرف إلى وجهها الحضاري كما ينبغي بعد أن انعزلنا عن العالم في إيلام القصيّة.

كانت تلك أصعب سنوات مرت علي في مجمل حياتي، لكنني دائماً ما استذكرها بكثير من النوستالجيا المضاف إليها الكثير من العقد التي تكورت في داخلي تجاهها، رغم ان بعض تلك الذكريات المغرقة في بساطتها وحنينها قادرة على أن تلين من عقدي وتفككها وان حدث ذلك بصعوبة. تحملني الذكرى أحياناً إلى المكان والزمان مجردين من روحهما التي طالما كانت مختنقة بالعجز والفتور فأغمض عيني وأنا أتخيل طعم الـ «پفك نمكى» أو «بسكويت مادر» الذي كان رفيقي شبه الوحيد في اول سفرة لي إلى طهران في «الاوتوبوس» الذي سار بي لخمس عشرة ساعة في رحلة ليلية باردة قطع خلالها طرقاً جبلية خطرة

روعرة. كنت وحيداً وخفيفاً دون متاع وببضع تومنات فقط في جيبي. كنت فاراً من أبي وظلمه ومن كنيتي واسمي الجديدين وما فرضاه عليّ من مصير، مؤملاً نفسي بفرصة عمل في العاصمة الكبيرة لأعود بعدها بشهرين فقط، بعد أن لبثت لأيامٍ متسكعاً في أزقة طهران دون أن اوفق لإيجاد عمل. وقد قرصني الجوع غير مرة فحاولت المكابرة غير مرة إلا انني عدتُ في النهاية محملاً بفشل ثقيل وجيبين فارغين وصدر تخففّ من أحلامه جميعاً ليحل محلها ظلام أسود لا يعينني على تلمس المشاعر التي تعتمل فيه فصرت بالكاد أعرف ماهيتها على قلتها.

أسترجع أحياناً في ذهني الموسيقى والأغنية المصاحبة لمسلسل الأطفال «افتح يا سمسم» الذي كان أخي أكرم يحرص على مشاهدته دون أن يفوت حلقة، فتخنقني الذكرى حنيناً غير أنني أعاقرها ممزوجة هذه المرة بروحي الثملة باللهفة إلى الماضي الذي لم يكن جميلاً أو سعيداً لكن يكفي أنه كان وأنني كنتُ. يطعنني إحساس شبيه بالحنين في صدري كلما استذكرت في ذهني الأوقات الحميمة التي كنا نقضيها كأُسرة في متابعة مسلسل «چراغ خانه» الذي كان متخماً بممثلين وممثلات ما قبل الثورة وقد تلفعن بالحجاب في مفارقة عجيبة بعدما اشتهرن بمشاهدهن الجريئة في أفلامهن القديمة، وقد استمر ذلك المسلسل لسنوات حتى خيل إلينا أننا سنموت قبل أن ينتهي. ولعل الذكريات هي وحدها القادرة على خلق الأوطان فينا فمتى ما صُنعت ربطتنا بالمكان حتى ذلك الذي نجبر عليه ونظن انه لن يخلف سوى ذكريات تالفة غير صالحة للاستعمال. لم أكن في ذلك الحين قد اعتدتُ مثلاً على الشتاءات شديدة البرودة التي تغرق المدينة كلها بالثلج، لكن أمي كانت قد تلقفت بعض العادات الجديدة رغم عراقيتنا التي ثبتت على مر أيامنا هناك إلا انه لا بأس من بعض التأقلم، إذ باتت تهيء

«السماور» طوال الأيام الشتوية الباردة واضعة فوقه شاياً جاهزاً للاحتساء عكس ما اعتدنا في العراق حيث كنا نخدره كلما احتجنا لذلك، الفرق أن شاينا الجديد ما يزال عراقي الطعم حيث لا يمكن لإيراني أن يطيق طعمه الثقيل، على عكس شايهم الذي يميل إلى اللون الأصفر بدل الأسود وإلى الطعم الباهت بدل الطعم المرير. أيضاً بات في بيتنا كما في البيوت الإيرانية كلها طبق الفاكهة الذي يوضع على «البوفيه» القديم تحته مفرش مثلث دون أن يقربه أحد وقد أضفنا الخيار كصنف من صنوف الفواكه مثلهم تماماً، والذي كان وجوده يضايق أبي بشدة كأن تبذير ثمرتي الفاكهة تلك سيخلّ بميزانيته كلّها. لكننا لم نعتد أبداً على شرب الشاي وأكل الجبن الأبيض مع الجوز المبلل والخضروات وخبز التنور قبل وجبة الطعام الأساسية، بل كنا نستهجن ونسخر من هذا الترتيب العجيب، وفي النهاية وفقنا إلى أخذ ونبذ ما يلائمنا من الثقافتين والعالمين اللذين بقدر ما كانا يقتربان أحياناً كانا يتباعدان في أحايين أخرى كثيرة.

برتابةٍ وتكرارٍ مضجرين سارت الحياة بنا كئيبة ومضنية، وكلما كنت أنفض عن رأسي غبار تراكم الأيام التي لا تحمل جديداً كنت أتذكر بشاعة الأقصاء الذي غير حياتي وأعود مرغماً لمتابعة العيش متناسياً ظرفي وقسوة حاضري. وكلما نهش قبح الظروف الجديدة دواخلي كنت أجدني أحاول أن أركن إلى جمال من نوع آخر، إلى الموسيقى والفنون وإن لم تكن متاحة بأنواعها كافة، ثم إلى الطبيعة فتلك البقعة التي صارت ملاذنا الجديد كانت من أجمل ما خُلق وكان يحلو لي كثيراً الابتعاد عن الدنيا بأسرها للاختلاء هناك فوق جبل أو تحت سهل أو عند نهر أو شلّال. ذات يوم وقفتُ على قمة جبل لم أكن قد وصلته من قبل ورأيت المدينة بأسرها من تحتي، حيث ثعبان ضخم يتلوى أسفل

الوادي كان هو الطريق المؤدي إلى المدينة والمحاط بالجبال الضخمة بينما يظهر من بعيد جبل «قلاقيران» الشهير بشكله المميز الذي كان يهيئ لي أنه يشبه تنورة صبية خلعتها على حين غرّة وتركتها معلّقة في السماء. على قمة الجبل حيث أقف بُني مسجد صغير ولدهشتي كان عدد لا بأس به من الناس يحومون حوله كأنهم على وشك الوضوء والصلاة، ولا أدري ما الذي أوصلهم إلى هذا المكان القصيّ لأجل التعبّد والمناجاة إذ لم أدخل إلى المسجد فلم أكن متديناً، لكن لفتت نظري القبور القليلة المنتشرة عند باحته وبعضها المتناثر على قمة الجبل، وكان أحدها عند منحدرٍ صخري وجدت نفسي أهبط إليه وأنا متعجبٌ من الكيفية التي تمكن بها أهل الميت من دفنه في بقعة خطرة كتلك، أما السبب في دفنه على هذا النحو فربما لأجل ألا يشعر ميتهم بالوحشة وهو مسجى عند الجرف مطلاً على ذلك المنظر البديع. أكتشفت من النظرة الأولى للقبر أنه قبر قديم، وتبين ذلك من السنة الفارسية التي خطّت بخط دقيق على واجهته من دون الإستعانة بالسنة الهجرية أيضاً كما هو متعارف عليه، كانت تلك سنة ١٢٨٣ فارسية أي أنها تقريباً سنة ١٩٠٤ ميلادية، وأكثر ما أثار استغرابي في حينها هو الآية القرآنية المخطوطة على القبر «والعصر إن الإنسان».

هكذا كانت، نصف آية دون التكملة. وربما عُدّ ذلك مجرد خطأ من القوم غير الناطقين بالعربية، ولعلهم لم يعرفوا أبداً أنهم قد وضعوا على قبر ميتهم نصف الآية فقط. لكن تفسيراً آخر ضربني فجأة، إذ شعرتُ أن نصف الآية المتبقي يشبهني كثيراً وأنني لم آت إلى هذا المكان إلاّ لأكتشف سره.

«لفي خُسر». إنه أنا! أنا ذلك النصف الخاسر، النصف المنبوذ. نصف حلمٍ ونصف حقيقة، نصف رجل لم يلج سنوات الرجولة بعد،

نصف عراقي لن يعوّل على عراقيته أحد، نصف إنسان وما تبقّى منه لفي خسر. أنا، نصف آية خُطّت على قبرٍ منسيٍّ وقديم عند جرف جبلٍ يطل على وادٍ سحيق. قرفصتُ عند القبر وصرتُ أتأمله لدقائق لم أعدّها لعلها طالت أو قصرت لم أكن أدري، ثم لمّا رفعت رأسي الذي صار ثقيلاً كأنه يود التخفّف بالبكاءِ رأيتُها. هناك عند المسجد تتهادى بزيّها الكردي الفاقع، فكانت مميزة بين جموع الناس بشعرها المتطاير من تحت عمامتها كأنه لا يعنيها أن تلتزم بالحجاب الإجباري وهي تقتحم بشبحها حدود البلد الغريب. لم تبادلني النظر وصارت تسير إلى الخلف ثم إلى الأمام دون أن تلتفت، تارة تدور بين الناس الذين كانوا قد انتهوا من صلاتهم ويهمون بمغادرة المسجد، وتارة أخرى تبتعد عنهم وتتقدم من الجرف حتى صارت قريبة مني شيئاً ما، ثم فجأة طالعتني وابتسمت. ولا يمكن ان أنسى أو ان أمحو ابتسامتها تلك من ذاكرتي ما حييت.
ميمى قسمت!

* * *

٣، اردیبهشت/ ١٣٧٢
الموافق
٢٣، أبريل/ ١٩٩٣

عزيزي المحترم، سالار.

أعرض بخدمتك مجدداً واعتذر لك مرة أخرى عن لغتي التي وصفتها في رسالتك بالفخمة. اللغة الفارسية ما تزال تقترح الاحترامات والكثير من المجاملات التي ذكرت بأنها كلاسيكية وبعيدة، لكنها للناطقين بها أليفة ومتزنة، إذ ينتابني بعض الإحراج وانا أجد نفسي

مخاطباً إياك بصيغة المفرد، ربما لم أكن لأشعر بمثله لو انني كاتبتك بالعربية مثلاً، لكن ما باليد حيلة، فنحن يا ابن خالتي العزيز تعودنا على ألا نتمتع بما نمتلك، فحتى لغتنا تجدنا لا نملك حروفها ولا أحقية التصرف بها، وها نحن مثلاً مضطران إما للمكاتبة بالفارسية أو العربية كأن ما من لغة تجمعنا غيرهما. ولك ان تسخر من ذلك أو ان تأسف.

سأخبرك بكل التفاصيل كما وعدتك، فالمكالمات الهاتفية مصاريفها ثقيلة على كلينا ونحن بعد لاجئين غرّين.

قال لي المحقق عبر المترجم المصري الذي أخبرتك عنه، ذلك الذي لم يكن يفهم نصف ما أقول ولعله ترجم بشكل خاطئ ما قصصته عليهم، قال لي في البداية ان وضعي محير وعسير على الفهم. واقترح المترجم ان انقل قصتي باللغة الفصحى فلهجتي العراقية التي وصفها بـ «الخليجية» صعبة عليه ولابد أن الكثير من التفاصيل قد ضاعت بسبب اختلاف اللهجات. أخبرته انني أنا أيضاً أجد شيئاً من الصعوبة في فهم مراده، غير أن عربيتي الفصحى رديئة جداً وقد أصابها الصدأ منذ زمن، ورغم فهمي لها إلا أنني بالكاد أقدر على التخاطب بها. كانوا سيوفرون مترجماً إلى الفارسية من تلقاء أنفسهم لو أنني لم امزق جواز السفر الإيراني واتخلص منه بعد دقائق قليلة من مغادرتي الطائرة. وحين سلمت نفسي لأمن مطار «أرلاندا» وانا أقول بهدوء الكلمة التي تدربت عليها كثيراً: «رفيوجي!» سألوني من أي جحيم أتيت فأجبت دون تفكير انني عراقي. وهنا كان سوء الفهم. تلقائياً أتوا لي بهذا المترجم للغة العربية والذي لا يفهم حتى «الله بالخير» التي ألقيتها عليه.

- اسم حضرتك إيه؟

أجبت متردداً.

ـ لؤي.. أميد.

وفهمت انه ترجم للمحقق ان اسمي هو لؤي أميد.

فقلت بسرعة مصححاً:

ـ لا، اسمي لؤي. يعني بالعراق اسمي لؤي بس من سفروني لأيران صار اسمي أميد. ثنينهم إسمي.

ـ حضرتك إيراني ولا عراقي؟

ـ عراقي مسفر إلى إيران منذ الثمانينات.

ـ يعني مواطن إيراني؟

فاصررت قائلاً بحدة:

ـ آني عراقي! طلعت من إيران لأني عراقي الأصل ومستحيل أقدر أعيش هناك.

ألا تجده أمراً باعثاً للسخرية أنني منذ سلبت مني هويتي العراقية وعشت على أمل استرجاعها لم يتسنَ لي ذلك إلا هنا، في هذا المهجر البعيد جداً، فكنت أقسم بعراقيتي رغم قدومي إليهم بجواز سفر إيراني واسم إيراني وحتى ملامح قد تبدو إيرانية دمغتني بها السنوات التي عشتها هناك. لا بدّ وانك لا تتذكر ملامحي جيداً؟! أرفقت لك صورتي مع هذه الرسالة تمعن فيها وستجد أنني قد تغيرتُ ربما عن لؤي الذي تعرف. نحلتُ كثيراً وها هو وجهي قد تحول من مدور إلى طويل ومعظمّ، صرت مثل «القلم ابو المساحة». ولون شعري الأشقر تحول بقدرة قادر إلى أسود فاحم وعيناي خبتا منذ زمن ولم تعد لهما تلك اللمعة التي المحها في صوري القديمة. أظن السبب يكمن في العمر الذي يمضي بسرعة مذهلة وهذا النضوج الذي يفاجئ المرء فيجعله في حيرة من حياته وهو يودع سني شبابه فيشعر بكهولة مباغتة. أو ان السبب

ببساطة هو كما كانت تردد خالتك مريم بسخريتها اللاذعة دوماً: الولد الحلو يكبر يصير شاب مجعمر، والعكس».

المهم، بعد يومين جاؤوا بمترجم إيراني وأعيد التحقيق معي من جديد، كان رجلاً يبدو في نهاية الأربعينيات من عمره بشعر أشعث ونظارات طبية وملامح مكتئبة بعض الشيء مثل فيلسوف تقاعد عن الفلسفة منذ زمن، غير أن هندامه بسيط ونظيف ويدعو للارتياح. سألني وهو يشبك كفيه ويحني رأسه بتواضع مصطنع:

ـ ما اسمك يا سيد؟

اجبته بسرعة وانا ارتب الكلمات بعضها فوق بعض، مختصراً الكثير من التفاصيل:

ـ اسمي الذي ولدت به هو لؤي مجيد، انا عراقي مسفر. اسمي في إيران هو أميد كاكه زاده، تغير اسمي حين حصلت على الجنسية الإيرانية بعد أن أثبت والدي ان لنا نسباً وأبناء عمومة بين عشائر لورستان.

نظر الي نظرة لم أفهمها من تحت نظارته ثم التفتَ إلى المحقق ورطن بالسويدية، وعاد بعدها ليلتفت الي وهو يحك أذنه قائلاً بنبرة هادئة:

ـ أنت عراقي مسفر إلى إيران لكنك لم تحصل على الجنسية، إذا أصررت على ذكر ان لديك جنسية إيرانية فسيعرقل ذلك قضيتك لفترة. أحك قصتك الآن.

حكيت له قصتي وهو يترجم كلامي دون أن يتوقف لأخذ نفسه، اتضح فيما بعد انه كان يؤلف ويختلق قصصاً خلال حديثه. بهارات قليلة تهوّل من وضعي وتجعل مني الضحية التي بلا أمل في الدنيا سوى هذه

الأرض رغم انني كنتُ كذلك بالفعل دونما حاجة لمبالغاته. أخيراً وضع أمامي أوراقاً وعلى سبيل انه يشرح لي بعض القوانين قال دون أن يفارقه هدوؤه:

ـ اسمع، حاول ان تقاطعني وانا أتحدث كأنك تستفسر عن شيء واحفظ قصتك مني جيداً. أنت عراقي سفر إلى إيران ورفضت إيران استقبالك والاعتراف بك كمواطن إيراني لأن ما من إثبات على ذلك. لا تذكر انك كردي فقد تعقدت قضيتك قليلاً والأفضل هو أن تخبرهم أن عائلتك قد حصلت على جنسية التبعية الإيرانية في العراق رغبة منها في التملص من الخدمة العسكرية كما هو معروف، وانك عراقي من أصول عربية صميمة. أما إيران فدولة لا تعترف بحقوقك الإنسانية لأنك لا تملك فيها أوراقاً ثبوتية.

قاطعته:

ـ ولما كل هذا؟

قال بسرعة وكلماته تقفز فوق بعضها كأنها ستتشابك الواحدة بالأخرى:

ـ لم يعد لجوء الإيرانيين مرحباً به منذ انتهت حرب الثماني سنوات، أما العراقيين فها هي نذر حربهم الجديدة قد أتت بآلاف اللاجئين منهم وأغلبهم مقبولون هنا. إذا ما اكتشفوا ان جنسيتك إيرانية فسيعيدونك إلى إيران في أقرب فرصة متاحة. اللجوء السياسي ما زال مقبولاً لكن بصعوبة. اما بالنسبة لك فإذا أصررت على ذكر إيران في قضيتك فيمكنك تقديم لجوء جنسي مثلاً، وإن كنتُ لا أظنك ترغب في تغيير جنسك أو إدّعاء المثلية.

فكرت للحظات ثم قلت:

ـ ألم يكن ممكناً ادعاء انني قدمت من العراق مباشرة.

رد بسرعة:

ـ لا، لأنك كنت قد ذكرتَ للمترجم السابق شيئاً عن إيران، وإلا لكان وضعك أبسط وأكثر سهولة.

وحين سألوه عن اسم أميد الذي ذكرته لهم بغباء أجابهم بأنه الاسم الذي كانوا ينادونني الناس به في «كوچه مروى» حيث كنتُ أعمل لسنوات بحسب ادّعائه، هذا على الرغم من انني في الحقيقة لم أمر في «كوچه مروى» هذه إلا مروراً عابراً حين اضطرتني ظروفٌ عصيبة منذ سنوات المرور بطهران. سألوني ان كنت أود الاحتفاظ بالاسم الإيراني ربما من باب التعود عليه، لكنني شكرت لهم إنسانيتهم هذه وثبّتُ إسمي الذي كان قد ضاع مني منذ زمن. لؤي مجيد حسين الصائغ.

لولا هذا الرجل يا ابن خالتي لكانوا أعادوني إلى طهران باكراً وكنت سأجد نفسي بلا مأوى أو عمل بعد أن سلبني اسم كاكه زاده حتى ابسط آمالي. حين تصل إلى هنا أخبرهم انك عراقي، كردي فيلي، فقوميتك هذه ستجعلهم يستقبلونك بترحاب ودون نقاش، لكن لا تذكر ان لك ابن خالة تعيساً يقبع في كامب «كارلس لوند»، لأننا وبحسب القانون هنا لن نعود أقرباء. لك التحيات في الختام عزيزي سالار ولتدم بخير.

ابن خالتك المحب،

لؤي مجيد حسين الصائغ

سالار

وضع الشاي أمامي وصاح بصوته الجهوري:

ـ أنت ابن پري مو؟

أومأت برأسي دون اكتراث وانا أمد يدي «لإستكان الشاي»، فواصل وهو يهز رأسه مكملاً:

ـ جدك الملاّ غلام الله يخلد ذكره بألف خير كان اله شنة ورنة هنا بالمنطقة. كان اله أفضال على هاي العالم كلها. ها؟ ماكو أحد من الدهانة لو بشارع الكفاح لو اللي بالشورجة إذا ما يعرفه، والكل كانت تحترمه وتحسبله ألف حساب.

ـ «لا أحد يناديك باسم أبيك في هذا المكان الذي يعجّ بالرجال، فهنا يعرفون تاريخك وتاريخ أُسرتك بواسطة المرأة التي أنجبتك، شأنك شأن البقية من أقرانك من أبناء المنطقة ولا سيما أبناء ملّتك. فها انك تُعرف بها وسوف تُعرف هي بك بعد عمر طويل. أنت هنا ابن نون النسوة، تلكم اللواتي يحكمن من خلف ظهور الرجال، ويدّعين الاستكانة والانكسارة أمام ذكورتك التي يغذينك بها منذ نعومة أظفارك، لكنهن يسيرن حياتك بحسبما يشأن. بقوتهن وحكمتهن يقصمن ظهرك الذكر، فتحاول التمرد بأي طريقة، وسرعان ما ستمارس تمردك عليهن كأول محاولة للخلاص. أنت بين ناسك وأحبابك ابن فلانة. وهذا ليس

عيباً! ما دام دور أبيك مقتصراً على التلقيح فقط فلماذا إذن تُحرم هذه المرأة المسيطرة على مجريات حياتك وحياة البقية من أسرتك مثل هذا الشرف، فأمك هي ببساطة النحلة الملكة وأبوك هو المخصب ووفق قانون مملكة النحل فإن حياته تنتهي بعد التخصيب ووفق قانوننا تنتهي قوامته كرجل وتفنى معه خصاله الذكورية لكي تُهيأ أنت لتحل محله في حياته. أنت الذكر الجديد الذي ستتغذى من سلطته الأُسرة، ولاحقاً ستذبح ذكورتك لصالح قادم جديد غالباً ما يكون من صلبك. فإن كنت تريد الآ تفنى، تمرد. استغل كهن هذه المرأة العجوز التي هي امك، استغل ضعف أبيك وطيبته وتخليه عن دوره برحابة صدر لأجلك. استغل كل ذلك لصالحك، وافهم اللعبة جيداً فزمنك وشخصك مختلفان، لذلك كن يقظاً كي لا يحاولوا استبدالك في المستقبل، أو يحاولوا إخضاع سلطتك المطلقة لامرأة سوف يختارونها لك، في حادثة تتكرر مع كل الذكور في مثل أُسرنا الموقرة. فكن يقظاً وانتبه».

هكذا انتهى أخي آزاد من خطبته التعريفية بحالتنا الاجتماعية التي دائماً ما كانت محل تمحيصه وتفحصيه والتي كان يسترسل فيها باللغة الكردية المزخرفة بالكثير من الكلمات العربية كما هي عادته حين نكون خارج المنزل، وبدوري هززت له رأسي مؤمّناً على كلامه دون أن أفكر فيه كثيراً.

- حقّك تتفلسف آزاد عيني.

ودون أن يلتفت إلى عدم انتباهي الكامل إليه وإلى كوني فقط أرغب باحتساء الشاي في سلام أضاف مشحوناً بحماس المعرفة الذي يلازمه:

- من الخطأ تعريف مجتمعاتنا على أنها ذكورية صرفة. فهي أمومية أيضاً بل وإلى حد كبير، فهذه المجتمعات تقترب بشكل عجيب من أن تكون مجتمعات الملكة النحلة.

«مجتمعات الملكة النحلة»، أخذتُ هذا التعبير من عنده ورددته غير مرة في أحاديثي محاكياً أفكاره التي كنت أتبادلها مع أصدقائي من المثقفين حيث كنتُ أتسكع أحياناً بين سوق السراي وشارع المتنبي. كنا نحن وهو نعرف انني متى ما فقدت دوري سيحل هو مكاني، على الرغم من انه لم تكن به رغبة ليحل محلي ولم ينافسني على موقعي الذي نلته لكوني قد ولدت قبله فقط، فهو ليس نشيطاً بما يكفي لكي يعمل بعد دوره لكلية مزوداً الأسرة بمصدر دخل إضافي مثلما كنتُ أفعل أنا مثلاً. كما ان أي عمل بالنسبة له سيلهيه عن متابعة اهتماماته القليلة الكسولة المقتصرة على المطالعة ومتابعة العروض السينمائية والفنية كلما سمحت له ظروفه المادية، لكي يتسنى له التمنطق والتفلسف حول ما يقرأ ويشهد. والحق أن اهتماماته الثقافية لم تكن سيئة تماماً فقد كان يقرأ كثيراً وكنت أشترك معه في بعضها، لكنني لم أكن اجيد دور المثقف بالطريقة ذاتها التي عرف بها آزاد، إذ لم أكن أنزوي أو أعتكف الناس مثله لأيام، كما ان نوعية الأدب التي أفضلها لا تشبه ما يستعذبه هو فتذوقي يعد تقليدياً بعض الشيء ومرتكزاً في مجمله على الكلاسيكيات، وإذا ما رغبت في التنويع قليلاً فأنني كنت أقع على وجوديات سارتر وبعض الروايات المترجمة التي لم تكن لتشكل عندي حساً مميزاً بما ان ما تخلفه الترجمة أكثر بكثير مما تنقله اساساً، ولعلي لذلك لم اعتد على تطرف المطلق في ذائقتي الأدبية، إلا اللهم في ما يخص ابي الطيب المتنبي فقد كنت معروفاً بعشقي غير المتناهي له. بينما كان آزاد يقرأ شعراء حداثيين لا يحركون شعرة في مفرقي، وتوجهاته الثقافية والأدبية كانت طريقاً مختصرة إلى عالم السياسة والشؤون القومية ثم الدينية والمذهبية، وبذكر ذلك فإنه من الطبيعي ان تكون خيارات قراءاته مختلفة عني. تحت وسادتي ديوان مصغر للمتنبي بشرح اليازجي والذي

كان نديمي كلما أقلقت أشباح الدار نومي، في حين تعود هو أن يقرأ لمحمود درويش ومظفر النواب الممنوعَين قصائد ودواوين يستعيرها من أصدقائه خلسة كنتُ أطلع عليها من باب التنويع والفضول والرغبة في الإقتراب من الأدب المحرم الذي ترتجف منه السلطة بالقدر الذي يجعلها تمنعه.

ولقد بكيت على الشباب ولمّتي ... مسودة ولماء وجهي رونقُ
حذراً عليه قبل يوم فراقه ... حتى لكدت بماء جفني أشرقُ

«اشتعلوا أهلك!»

إن المتنبي هذا شاعر ملعون ومتشيطن ركبه جنيٌ مطّلعٌ على اسرار الماضي والمستقبل دون أدنى شك، إذ كيف أدرك مثل ذلك دون أن تقرض أرضة سنين الحرب شبابه كما التهمت شبابي الثمين. فالعمر مجرد كذبة تنقلتُ بين أيامه على أمل ان أعيشها دون جدوى. بين حرب وإقصاء وخوف وأحلام غير محققة، ثم علاقات نسائية تعددت وشيء يشبه الحب لاح ثم أفل، أقف متشبثاً رغماً عني بهذه الحياة التي ينقصها الكثير لكي تكتمل نصف صورتها. والغريب انني حتى ذلك الحين كنتُ طويل الأمل وأعاند الرب الذي علموني انه فوق، فأطالبه بتحقيق آمالي وبجعل حياتي أفضل لكي أُصلي له، وأخاف ان انا صليت وتعبدت الآ يستجيب فأكون قد أهدرت وقتي الوفير وطاقتي المخمّرة غير المستنفدة في عبادة غير مجدية. «إثبت لي انك هناك! بيتك فوق غيمة كبيرة كما تخيلتك صغيراً! ها؟! اجعلني عزيزاً وثرياً كما جعلتني وسيماً. اجعلني آمناً غير مطارد. إعمي عيون عناصر الأمن عنّي، ووفّر ظروفاً أكثر ملائمة لي ولحبيبات سوف يأتين، هذا إذا ما وصمتني بالحظ المطلق. هيا، أرجوك إفعل ذلك وسأكف عن إستعارة كتب سارتر خلسة من ذلك الصديق الشيوعي الذي أكرهه».

لكن الرب لم يُحدث أي تغيير ايجابي يذكر في حياتي لفترات طويلة من الزمن، فظللتُ أتسكع في ذات الدرابين الشعبية القديمة ورسبتُ متعمداً في الجامعة لسنوات كي لا اضطر للخدمة العسكرية، وعاشرتُ ذات العاهرة الأرخص بين «برابيك» البتاوين، وصادقتُ شباباً عالقين مثلي بين أتون الحرب ونيران الأسرة وغيرها من الأمور الباعثة لليأس. ولكي تُكسَر رتابة هذه الأيام المخنوقة بالعجز والملل كان لا بد لي ان اكشف عن مواهب لعينة تشغلني. فصارت مثلاً قوالب الصابون تتحول بين يدي إلى منحوتات لنساء عاريات دون أن أنتبه لكوني قد جسّمت أعضاءهن التناسلية وصورتها بتفاصيلها معتمداً على صورٍ خليعة كنت أحصل عليها من تاجر للكتب والمجلات القديمة، حتى تلقيت بصقات من امي وهي تلعنني على قلة حيائي وعدم مراعاتي لأخواتي البنات اللاتي كن يتفاجأن من صابونة على شكل مؤخرة مثلاً تستقبلهن في الحمام، هذا عدا عن كوني قد افسدت لأمي صوابينها وبذّرت نعمتها. مع الوقت تعودت يداي على الاحتراف فبنيت مجسمات لطائرات وسفن من أعواد الثقاب، وبأقلام الرصاص رسمت العاريات مجدداً وبللت وجوههن بالدموع وملأتُ الأوراق بالمؤخرات والعيون الخجلة الناعسة. ولأن الملل كان يمضني مثل حد السيف وفضولي لاكتشاف الأشياء يدغدغني أينما حللت، وجدتني أحشر أنفي في كل ما هو كهربائي، في أسلاك التلفاز والراديو ومروحة السقف والمبردة. أعطبت بعضها حين كنت مراهقاً ثم صرتُ اصلح كل الأغراض الكهربائية المعطوبة حتى أغراض الجيران وأبناء الحي كانت تُرسل اليّ لأصلحها دون مقابل سوى المتعة. وبسبب شغفي بالكهربائيات صنعتُ أيضاً مجسمات صغيرة لسفن استيرها ببطاريات وأسلاك كانت تثير إعجاب أطفال الدربونة فيتجمعون حول ما أصنع ليشاهدوا عجائبي. وحتى ألعاب الأطفال والمراهقين في

الدربونة تفوقت فيها منذ الصغر، بل انني ودّعت الطفولة دون أن أودع ألعابها تماماً فكنت دائماً ما أشارك صغار المنطقة لعبهم بين الحين والآخر في طريق خروجي أو عودتي إلى المنزل، فأجلس القرفصاء حاشراً دعبلة بين أصابعي اطلقها بقوة وبحركة محترف لتنتهي إمّا إلى الحفرة أو لـ«اچق» بها دعبلةً أخرى فيصيح «آندي» الأخ الأصغر لـ«بوح» وهو يرفع كمر بيجامته البازة ليغطي بها مؤخرته البيضاء التي تظهر كلما قرفص ليلعب الدعابل:

ـ سالار، بالمسيح الحيّ أنت خوش نيشانچي.. تلعب طنّب؟

وكل هذه الاهتمامات والفعاليات لم تجذب اخي آزاد ليشاركني في أي منها، فمنذ الطفولة وهو أكثر هدوءاً مني ومنصرف إلى القراءة وقلما لعب الكرة أو مارس نشاطاً جسدياً. كان همّه في مطلع مراهقته الإله، فغالى في التدين تارة ثم ألحد الحاداً جاهر به ليتراجع ذات قراءة لكتاب، من ثم ليعود إلى الإلحاد بعد كتاب آخر غير انه هذه المرة لم يحاول إظهاره بل صار يخفيه خلف ابتسامته الهادئة الساخرة كأنه يشفق على المتدينين الأغبياء سيما من هم مثلي ممن يصلون ويصومون دون التزام فكان يردد ساخراً كلما رآني متوجهاً للصلاة:

ـ ها عيني، شو اليوم دا تتهجد وتتعبد؟ خليك هيچي بين سطر وسطر، بلكي الله يتقبل.

وكنت أعيّره بإيمانه المتنقل وكان هو يكتفي بابتسامته وهدوئه. التزم بكتابة الشعر فترة وعرضه عليّ فجاملته قليلاً على الرغم من اني لا أحب نوعية الشعر التي يكتبها، يمكنني تقبل القصيدة دون قافية، لكن دون وزن؟! أين لعبة الشعر السماوية اذن؟ إخترت ذات مرة واحداً من أبياته التي كانت تحمل أكثر ما يمكن من شاعرية وقلت له ممازحاً:

ـ هذا البيت حلو.. هاي لازم الجني اللي راكبك كتبه مو أنت.

ـ وهو يا هو بينا ما راكبه جني «بهالبيت المطعون».

رد محاكياً اخطاء أمي في اللغة العربية، وكان يقصد ببساطة البيت الملعون، فالمعروف ان بيوت المنطقة حيث كنا نسكن في ذلك الحين في الدهانة أغلبها مسكونة ولا سيما بيت جدي العتيق الذي تُرك لنا بعد أن سُفِر جدي الملاّ غلام علي إلى إيران، في بداية الثمانينات.

ـ بشرفك تريد تصير شاعر عربي وانت متربي ببيت تسمع بيه امك وابوك يخطئون باللغة العربية بين كلمة والثانية؟ وفرضنا صرت شاعر والناس قرأت قصائدك، اكو شاعر عربي اسمه «آزاد محمد علي خسرو»؟ منو حيسمع لو يقرأ شعرك وانت بهالإسم المجعمر؟

ارتعشت رموشه لوهلة قبل أن يرد بطريقته التي يرتب فيها افكاره كأنه يستعد لإلقاء خطبة:

ـ شنو المشكلة؟ مثلما اكو لغوي عربي اسمه «سيبويه». العربية بعد ما تعتبر قومية بقدر ما هي الآن ثقافة ولغة انصهرت العديد من الشعوب تحتها مثلنا احنا، ومثل البربر والتركمان وغيرهم من الأقوام.

ـ هاي الحچي لا مو الي، هاي نكذب بيه على نفسنا لأن عدنا عقدة الاقلية اللي بس بينّا وبين نفسنا نعترف بيها.

تناولت واحداً من كتبه وأكملت بالكردية متعمداً:

ـ انظر، هذه الحروف ليست لك استعرتها لتكتب وتقرأ بها لأنك لا تملك أبجدية للغتك الأم. أمر يثير الشفقة اليس كذلك!

هكذا كانت تدور نقاشاتنا معاً دائماً. كنت اشعر بشعوره الخفيّ بالاضطهاد والمكابرة وضياعه بين اعتزازه بقوميته ولغته وإحساسه بالآخر المتفوق عليه بالعدد والذي يحيطه بثقافته ولغته اللتين تصهران آزاد

وتخرجان منه عصارة لا يحبذها غالباً لكنه يضطر لها في النهاية. كنت أحياناً أواجهه بذلك دون رحمة، متمنياً ان يتعامل مع واقعه بعفوية أكثر، باستسلام أكثر. ليبحث عن حبيبة أو صديقة، فالحبيبات غالباً ما يكون لهن ذلك الحضن الذي يستقبلك بعيوبك الشاملة ولا يسألك عن هوياتك المتعددة وإذا ما كانت ضائعة. تماماً مثل سندس، حبيبتي الجميلة التي لفتت انتباهي للمرة الأولى بقَصَّتها التي تشبه قصة الليدي ديانا عندما مرت بالصدفة على الدكان في «الشورجة» حيث كنت أعمل في أوقات فراغي بعد دوام الكلية. ورغم اني لا أحب الشعر القصير وجدتني يومها أرسم في دفتري امرأة بشعر كشعر الصبيان، وجعلت لها ثديين كبيرين كأنني أعتذر عن انوثتها التي بُترت مع شعرها. ثم رأيتها مرة أخرى بعد أقل من شهر فخمنت بثقة أنها تكرر زياراتها لأجل رؤيتي فالدكان يبيع المواد بالجملة ولا تقترب منه الحسناوات إلا لأجل مغازلة بائع وسيم مثلي. كانت لتبدو أكبر سناً بقليل عن الفتيات اللواتي كن محط اهتمامي في كلية الهندسة حيث كنت أدرس، وتظهر دائماً بهيئة حسنة جداً مرتدية ثياباً لا تناسب الشورجة التي تعج بالبشر والعربات، والعابقة بكل الروائح النفّاذة التي يمكن أن تخطر على البال من البهارات الشرقية المختلفة إلى رائحة الصنادل المصنوعة من البلاستيك القوي. كانت تأتي بتلك الأناقة اللافتة كأنها في زيارة عرضية لأسواق المنصور بقمصانها البيضاء المصنوعة من أقمشة لا تبدو رخصية، وأحذيتها التي يتضح بأنها غالية ومستوردة حتى أنني كنت أشفق عليها من طرقات الشورجة غير المعبدة والمبللة أحياناً بالمياه الآسنة. صورتُها من بعيد وهي تسير بثقة كانت تبعث على الإنتعاش في عز الحر البغدادي الخانق، وفي ذلك اليوم حين جاءت للمرة الثانية رسمتُ في دفتري فتاة عارية بشعر طويل يغطي نصف مؤخرتها. وهكذا ظلت تأتي بين الحين

والآخر وكلما كانت تثير انتباهي أكثر كنت أرسم نساء أُخريات بعيدات عن ملامحها وتسريحة شعرها الصبيانية التي لا تتغير، حتى وجدتني أخيراً أرسمها فعرفت اني لا بد مكلمها لا محالة. معتمداً على وسامتي اغتنمت أول فرصة أتيحت لي بعد أن كنت التقيتها للمرة الأولى منذ ثمانية أشهر، فقلت لها دون مقدمات:

ـ شعرچ حلو.. بس لو طويل كان صار أحلى.

واجهتني بنظرة مستفسرة لكن قوية، دامت لثوانٍ تراخت فيها قواي ثم قالت:

ـ دا تعاكس حضرتك؟ لو دا توزع نصائح؟

ـ الاثنين.

رغم جفائها ونظرتها الحادة في حينها والتي لم أكن لأفهم سرها سيما وقد كنتُ متيقناً أن الفتاة تطلب ودّي كما هو واضح، تمكنت من أن الين قلبها بمشاكستي لها حتى ضحكت وصارت خلال فترة وجيزة رفيقتي. واعدتها للمرة الأولى خارج حدود الشورجة في مطعم هاديء وبعيداً عن أعين الناس في منطقة المنصور، وكانت تلك جلسة غالية دفعت من أجلها ثلاثة أضعاف ما كان سيكلفني في مكان أقل خصوصية. منذ جلسنا بدأت بيننا الحوارات التي لم تكن تهدأ أو تنتهي فكنت قادراً على إثارة شغفها وعرفت مواطن ضعفها بسرعة رغم ما يبدو على مظهرها الجميل من صلابة، واستغربتُ في البداية من الطواعية والبساطة والسرعة التي أعطت بهم نفسها، سيما وانا أكتشف بإشارة منها أنها لم تكن عذراء. وتحول استغرابي لضيق بعد أن عرفت أنها أرملة صغيرة لطيار حربي قضى في الحرب قبل سنة من لقائي بها. آه طيار حربي! يعني لبة حزب البعث الحاكم، لبة الإجرام والشر بالنسبة لي، هؤلاء

الذين هجروا أسرتي الممتدة وشرّدوا ونكلوا بأهل ملّتي وتسببوا في موت من قضى منهم والآلاف غيرهم. وشعرت بضيق تجاوزته بسرعة، ثم وضعت كفي تحت رأسي وأنا أبعد جسدي قليلاً عن جسدها اللين الساخن تحت الغطاء. سألتها مدّعياً اللامبالاة:

ـ شجابج عليه؟

ـ آني تكريتية، يعني الطفل عدنا بدل القماط الأبيض نلفه بقماط زيتوني.

ـ ها! أهلاً وسهلاً بيج رفيقتي التكريتية. تدرين بيه آني كردي مو؟

ـ إسمك سالار يعني شتطلع؟ أكيد كاكه كردي

قلت متعمداً لفظ الحروف بنبرة بطيئة:

ـ تدرين بيه كردي فيلي؟

فغرت فاها وهي تضحك متفاجئة، رافعة حاجبيها باستناكر:

ـ يعني إيراني مجوسي! عدونا اللدود. خبرني بالله شعجب بعدك هنا؟ شعجب ما سفروك؟

رددت وأنا أتحرك لأضع رأسي على صدرها العاري:

ـ شمدريني حظ. لو يمكن لأن أبوية ما عنده أموال طائلة حتى تصادروها منه. رجال على قد حاله.

ـ عابتلك.

وكانت تلك المرة الأولى التي أمارس فيها الجنس مع امرأة ليست متمرسة في العهر، امرأة تأخذ بقدر ما تعطي، دون أن تأن أو تتلوى تحتي بافتعال. ورغم هدوئها وفي أحايين أخرى برودها إلا أنني كنت أشعر بحضورها التام حتى وهي تشخص فجأة بنظراتها وتتمعن في

السقف دون أن ترمش وقد تراخت قبضتها عن كتفي وتعب جسدها وكلّ من ممارسات الحب العنيفة، فاقوم بمناورة حادة لكي أكون وإياها على موجة واحدة. ورغم ما يتردد دائماً من أن الرجال لا يتزوجون النساء اللواتي يقدمن أنفسهن قبل الزواج، إلا ان فكرة الزواج بها خطرت في ذهني ولم تكن المرات العديدة التي نمت فيها معها ما أبعدني عنها، بل أسرتها البعثية الملونة بظلال مختلفة من اللون الزيتوني الذي أبغض، وعالمي وعالمها اللدودان رغماً عنّا. ولعلها الأمنية البعيدة للارتباط بها قد خُلقت في داخلي من واقع أنها مستحيلة، لأنني تجاوزت بعد ذلك سندس ونمت مع أخريات دون أن يخطر على بالي فكرة مجنونة كتلك، بل إنني لم أتزوج حتى الآن ولا أظن بأني سأفعل قط.

قالت لي مرة حين احتدم بيننا النقاش:

آني ضد الظلم والتعسف. ضد إنه نفني شبابنا وحياتنا بحروب مثل هاي اللي مدا تخلص

- أيباخ! ضد الظلم والتعسف عيني؟ والجماعة السفاحين اللي أنت تتميلهم ذوله شنو وضعهم؟

- آني ما اختاريت اكون من جهة معينة. ولدت بين هذولة الناس اللي ما يعجبوك لأن أذوا أهلك. بس مو آني اللي أذيت أهلك.

- بس تقدرين تختارين أفكارج وردود أفعالج بنفسج. فكرج لازم يبقى حر وفعلج هم لازم يكون على قدر الفكرة.

لا تقوليلي آني ضد شي وأنتِ منعمة بكل المزايا اللي جايتج منه. وحدة مدللة مثلج شتعرف عن عذابات الناس وآلامهم. حتى هاي الحرب السخيفة المساكين همه المطحونين بيها. ولد الخايبة اللي على

السواتر والقواويد الروس الكبيرة محصنين ما يصيبهم خدش. شتعرفين أنت ما تقوليلي؟

ـ آني؟! أحب أذكرك آني وحدة من اللي تأذوا وفقدوا ناسهم بهاي الحرب الحقيرة. ترملت وعمري عشرين سنة وآني بعدني ما شايفة شي من هالدنيا، فتحت عيني لقيت زوجي ماكو.

قلت ساخراً بقسوة وقد وخزني شيء في قلبي كأنه الغيرة:

ـ متأذيه عليه؟ بس لا تقوليلي كان حب حياتج؟

سكتت لثانية كأنها تحاول استيعاب قسوتي، ثم ردت بإيجاز:

ـ مو شرط يكون حب حياتي. بس كان زوجي، كان فكرتي عن المستقبل، أملي بهاي الدنيا وفرحة عمري الصغير. كل هاي مو بعينك؟

التفت عنها وأنا أقول شاخصاً ببصري في الفراغ:

ـ وشقد أكو بنات مثلج وأسوء من حالتج. بيوم وليلة فتحت عينها شافت ابن جيرانهم اللي تحبه ماكو. لو تأسر لو استشهد، ولو شمروه على الحدود بعد ما فجأة اكتشفوا وقرروا انه مو عراقي، وتدري بيه راح بس هو موجود! عايش بمكان ثاني بس بعد مستحيل تشوفه. أنت على الأقل وضعج هواية أحسن من غيرج.

هزت رأسها وأنا ألمح في عينيها أثر دمعة لم تسقط، كأنها لا ترغب في مواصلة نقاشنا الذي أصبح عقَيماً

كنت أعرف حينها أنني أقسو عليها أكثر من اللازم، لكنني كنت أستمر كأن شيطاناً يتلبسني ويملي عليّ قسوة تبدو لي وكأنها لا تصدر مني، وأجدني دون سيطرة أجلدها بسياط أنانية قدر استطاعتي. كأنها المسؤولة الأولى عن هذه الحرب، والحرب التي ستأتي بعدها والحصار الذي سيعصرنا جميعاً بعد ذلك بسنوات. كأنني كنت متنبئاً بكل هذا

الخراب وكأنها كانت عود الثقاب الذي سقط دون قصد ليشعل نيران هذه الفوضى التي لن تخمد أبداً. ولمّا ضاق حضنها الرحب علي تباعدنا، ثم اختفت سندس من حياتي ولم تعد للظهور قط.

* * *

توفي والدي في ربيع العام ١٩٨٣، وأظن أنه على مدى حياته الطويلة التي عاشها لم يتفكّر بحياته بقدر ما فعلت أنا في الساعات القليلة التي نقلنا فيها نعشه على سيارة قديمة إلى مقبرة «وادي السلام» في النجف، كان قد عاش ومات بسيطاً دون أن يحلم أحلاماً لا معقولة، فقد لبث في هذه الدنيا راضياً قنوعاً وممتثلاً للطريق التي تقوده فيها الحياة طواعية. وعلى الرغم من أنه غالباً ما ترك لأمي شؤوننا بمجملها إلا أنه رفض بعناد لم نشهد له مثيلاً أن يترك الدار في الدهانة حين طلبت هي ذلك، متعللاً بأنه قد اعتاد على العيش فيها ولن يهوى قلبه الانتقال إلى المناطق الأرقى الجامدة الروح كما وصفها ببراعة غير معتادة. بعد أن سُفرت خالتي مريم وزوجها العم مجيد وأولادهما الخمسة بشكل مفاجئ وانقطعت أخبارهم كلياً، توقعنا جميعاً أن نلحق بهم قريباً، حتى أن والدتي كانت قد أمرت أخواتي البنات بمساعدتها على جمع وتحضير حاجيات وأغراض كثيرة من أجل طريق السفر الذي لم نكن نعرف ماهيته ولكننا كنا نسمع أنه خطر ووعر، ورددت أمي بتكرار مزعج الميزة التي كنا نتمتع بها بأننا سنعطى فرصة التأهب والتجهز على عكس الأسر المسكينة التي القيت على الحدود بثيابها التي عليها. كانت جدتي بدرية أو «نانه بدرية» كما اعتدنا مناداتها، في تلك الأثناء قد عافت الطعام والشراب في حزن هائل على فراق ابنتها وأحفادها المرَّحلين. وظلت تتوسل بنا أن نحاول معرفة مصيرهم وتقصّي أي خبر من أخبارهم، إلا ان أي محاولة لمعرفة ذلك كانت تعد مجرد

عبث. لم يكن ثمة خيط نتبعه يعرفنا ما حلّ بهم وهل أنهم قد اجتازوا الحدود بسلام أم أنهم قد أصابهم مكروه في مسيرة القدر غير المنتظمة التي تسحلنا جميعاً في طريقها كضحايا غير معرَّفين. بقينا لأيام طويلة متأهبين للتسفير الذي كان من الممكن ان يحدث في أية لحظة حتى ان خالتي فرصت وأولادها انتقلوا إلى دارنا تاركة زوجها العجوز حاجي بمفرده لأيام عديدة، فقد خافت المسكينة من أن نسفر نحن وتبقى هي واسرتها الصغيرة في العراق دوننا. كلما سمعت خالتي فرصت طرقات الباب هبت من مكانها لتعقص فوطتها حول رأسها بتصميم من على وشك الرحيل، ثم تعود بعد ذلك إلى جلستها ما ان يتبين لها ان الطرقات لم تكن دعوة للتهجير فتجلس متربعة واضعة كفيها في حجرها بخيبة أمل وقلة حيلة. كنا نسألها مشاكسين ونحن نضحك في سرنا:

- ميمي، كيف يطاوعك قلبك على ترك العم حاجي بمفرده.

فترد بلكنتها العربية المكسرة:

- خليه، وهو راح يلحقني بالحياة وبالموت همين، مو كافي!

ولا أعرف سر اختيارها الحديث بالعربية كلما أرادت ان تُظهر شراسة وعدم تودد كأنها على استعداد دائم للمواجهة لا سيما وانها كانت بالفعل تعتقد ان في التسفير موتها المؤكد وانها لن تحتمل البعد عن العراق الذي ولدت وعاشت فيه حياتها بأكلمها، فكانت تتحدث عن موتها المرتقب الذي غالباً ما تخيلته سيجيئها وهي تقطع الحدود أو في اثناء الطريق الذي كان يلفه الغموض والخيالات المرعبة، فتوصينا ألا ندفنها وحيدة وان نعود لاسترداد جثمانها إذا ما اضطرتنا الظروف لدفنها في مكان موحش وغريب. وقد عادت خالتي فرصت إلى بيتها بعد أيام عدة قضتها عندنا بإحباط وخيبة أمل واضحة لمن كان يطلب الموت

ويترقبه دون أن يناله. أما أمي فقد تعودت ان تقابل هلع أختها باستخفاف وهي تطالعها بنظرات ملؤها الضيق، ربما لأنها كانت تعيش ذعراً من نوع مختلف ولاحقتنا في تلك الفترة بمتابعاتها المبالغة وأسلوبها الوقائي غير المجدي، فكانت توصينا ألا نترك الدار إلاّ للكلية ومباشرة أعمالنا الضرورية، حتى أوشكت بالفعل على إبقاء أخواتي البنات في البيت بعد أن تمكن منها قلق هائل عليهن في أثناء ذهابهن وعودتهن من وإلى الكليات والمدارس حيث كن يداومن، إلا انني رفضت ذلك. فبقاؤهن في البيت لن يغير مصيرنا إذا ما إنعوج. ثمة قلق كان في نظري غير مبرر تعاني منه أمي وحده سينجلي لو أنهن لبثن في البيت بينما سيبقى أثر تركهن الدراسة ما حيين. كنّا عشرة، خمسة من الشباب وخمساً من الفتيات، وقد ولدتُ أنا الأكبر من بين إخوتي جميعاً عندما كان والدي ووالدتي يستأجران غرفة صغيرة كنِزل في بيت قيل لي أنه يقع في إحدى درابين «عقد النصارى»، أي أنني ولدتُ في واحدة من مناطق بغداد الشعبية والقديمة والتي صارت كلها فيما بعد أثيرة إلى نفسي، إلا أن الغالبية من إخوتي ولدوا في الدار القديمة في الدهانة كما قد نشأنا فيها جميعاً وهي التي كانت مملوكة لجدي الملاّ غلام علي حيث استأجر ابي فيها غرفة بمبلغ شبه رمزي كأنه يشتري به صمت الناس عن تعييره بسكناه في بيت يملكه أهل زوجته، وبعد أن تكاثرنا لم تعد غرفتنا الوحيدة مريحة وقد بات حتمياً أن تُفصل البنات عنّا نحن الذكور ما أن شببنا فصرن يتوزعن عشوائياً على بقية غرف الدار لا سيما بعد أن خف الحمل عنها منذ انتقلت منها خالتي مريم وزوجها وأولادها إلى حيٍ جديد أكثر عصرية من أحياء منطقتنا الشعبية. ثم هاجر عنها خالي مصدق قاصداً روسيا وأنعزل خالي موفق بزوجه في دار أخرى فباتت الدار بأكملها تقريباً لنا، كبيرة وواسعة وتكفي أسرتنا التي تشمل البشر

والأشباح معاً، حيث كنّا متعايشين تماماً مع حقيقة أننا نعيش في دار لا نسكنها وحدنا فهي مسكونة بشكل ظاهر لا يحتمل جدال أخي آزاد الذي حاول ان يصور الأمر على انه خيالات جماعية لقطيع من البسطاء الذين يعيشون في منطقة شعبية كالدهانة، ورغم محاولاته العديدة لكي يلقي على وجه الحقيقة الغيبية وشاحاً علمياً متناغماً مع أفكاره التي لا تعترف بالغيبيات، إلا ان تلك المحاولات باءت جميعها بالفشل أمام مشاهداتنا ومواجهاتنا الصارخة مع تلك الأشباح، بل ان دارنا كانت مسكونة بكوكتيل من العالم السفليّ، أشباح وأرواح وجن وعفاريت وغيره مما لم يخطر على قلب بشر، فبعد سنوات طويلة من معاشرتهم صرنا نعرف صفاتهم ونميّزهم عن بعضهم البعض، لاسيّما وأن لنا أقرباء متوفين يعدون منهم، كان أهمهم أخت والدتي الكبرى والتي كانت تدعى قسمت. ولشبح «ميمي قسمت» هذا صولات وجولات لا تعد ولا تحصى إذ يبدو أنها كانت شبحاً عنيداً يرفض التخلي عنّا ويدافع عن وجوده بيننا بشراسة نادرة على شبح لم تعد أهداف الحياة وطموحاتها لتعنيه كثيراً. ولعل الخالة لمتوفاة قد تشبثت بنا هكذا بسبب الطريقة المؤلمة التي رحلت بها عن الدنيا، حيث تناهى إلى سمعي أنها كانت حاملاً بطفل ثالث حين ماتت غرقاً في النهر مع طفليها، وقيل أيضاً أنها انتحرت لكن أحداً ممن عاصروا القصة لم يؤكد أو يعلق على ذلك. ولم تكن دارنا وحدها المسكونة في المنطقة فهي بأكملها مسكونة بالجن والأرواح حتى أن قصص السكان الغيبيين كانت مثار تندر الجيران كلهم، رغم ما كان معروفاً من أن لدارنا النصيب الأكبر لسبب قد لا يكون مهماً. حيث كانت لدينا تلك الغرفة التي يبدو أنها اختلفت عن باقي الغرف في المحلة كلها، سكنها فيما مضى عم والدتي المتوفى الذي أذكر انه هو الآخر قد مات منتحراً بالفعل بحرق نفسه، لأنني كنتُ

طفلاً واعياً آنذاك رغم أن لا أحد من المقربين يحكي الحكاية كما هي ويفضلون لزوم الصمت إذا ما ذُكرت ولو عرضاً، حتى إن إخوتي الذين ولدوا بعد الحادثة لم يسمعوا بقصة الانتحار تلك مطلقاً ولم يعرفوا لما تلك الغرفة القصيّة عن باقي غرف الدار لم تكن محببة، ويكثر فيها ظهور الخيالات والأشباح بشكل أوضح من أي زاوية أخرى في الدار. وقد حكت إحدى أخواتي البنات «سوزان»، عن شبح يتابع دراستها معها كلما اختلت للمذاكرة في تلك الغرفة بالذات، حتى أنها ضجّت منه وهي التي لم تكن تهاب الأشباح بل تعاملها بازدراء وقلة صبر، وتضايقت من صوته الذي كان يعيد ترديد كلماتها التي تقرأها من كتاب الجغرافيا متابعاً لها كأنه صداها. قالت أنها كلما كانت تتوقف علامة على ضيقها منه كانت تسمعه ينهنه ضاحكاً بصوت خافت ثم يتنهد بعناد كأنه يعدها بالمزيد، حتى أن آزاد ردد ساخراً من قصتها وهو يغمز:

- خوش جنّي هذا، متعلم ودارس وابن بيوت.

ومرة صحت أختي «ڤيان» من نومها لتأتي إليّ مباشرة تسألني إن كنتُ قد فتحتُ باب الغرفة فجأة مع ساعات الفجر الأولى ثم سحبتُها من ذراعها وقدتها إلى غرفة أخرى؟ وقد تعجبتُ من قولها لوهلة لأنني لم أفعل، ثم أدركت بسرعة أن الذي قادها إلى الخارج لم يكن أنا بل أحد الأشباح متشبهاً بي، فابتسمتُ قائلاً وأنا أفتح عينيّ لأخيفها:

- لا مو آني. جني.

- مو مال شقى. إنت؟

- وداعتج مو آني. لا بدّ جني.

فصارت تفرك معصمها بخليط من الاشمئزاز والهلع وهي تحكي الحادثة، بأنها كانت تدرس في تلك الغرفة المشؤومة رغبة منها في

الانزواء تماماً كما كانت تفعل سوزان، وقد استمرت حتى مطلع الفجر فكلية الطب تتطلب منها ساعات مكثفة من الدراسة، وقد أحست بالحرّ فتخلصت من «دشداشتها» وتربعت على الأرض بثوبها الداخلي فارشة كتبها ودفاترها أمامها، ثم سمعت لأكثر من مرة ضربات على الحائط في ما يشبه الاحتجاج على تواجدها إلا أنها لم تأبه لذلك وأصرت على استكمال مذاكرتها، حتى شعرت بدغدغة خفيفة على ذراعها تجاهلتها أيضاً ثم أخيراً دُفِع الباب ودخلتُ أنا، أو من تشبه بشكلي، وسحبها من معصمها حتى أنها ذكرت بانها خجلت لوهلة من ثيابها غير المحتشمة فهي لم تتعود الظهور أمامي بهذا الشكل، قالت أنه سار وهو يقودها من يدها حتى غرفة أمي التي دفعها إليها ثم أغلق الباب دون أن يتبادلا كلمة، فافترشت الأرض ونامت مباشرة ولم تعي الأمر إلا بعد أن صحت من النوم، وقد فسرت بنفسها تلك الحادثة على أن أشباح الدار يفضلون بعض الخصوصية لا سيما مع ساعات الفجر الأولى. غير أن الأشباح لم تكن أبداً سبباً في محاولاتنا ترك الدار في الدهانة فالحيوات التي كانت تتشكل داخل الدار سواء حقيقية أم غيبية لم تكن تخيفنا بقدر ما كان يخيفنا ما ينتظرنا في الخارج، وقد بات الانتقال أمراً ملزماً أملاً في ان تسهو الحكومة عن وجودنا، ولم نتخذ خطوة فعلية إزاءه إلاّ بعد أن توفي والدي الذي غادر الدنيا قبل أن يسفّر جدي بشهور قليلة فكان وداعهما مزودجاً كأنهما على علم بالفراق الحتميّ، المسافر إلى العالم الآخر والمسافر في الحياة الدنيا معاً. كان أبي قد مرض بالسرطان الذي خطفه بعد شهرين فقط من معرفتنا به ولم يمهله فرصة توضيب وتسوية ما تبقى من حياته قبل الرحيل، وحين وقفنا على قبره بعد أن دفنّاه بأيدينا بكى جدي الملاّ بحرقة وقد صار بكّاءً مذ أصبح عجوزاً إذ كان يبكي وينوح كثيراً في خلوته، وسمعته من خلال بكائه وهمهماته يقول:

ـ هذا مكاني يا محمد علي شغلته قبلي.

طبطبت على كتفه وأنا أسحبه إليّ فاستَند إلى حضني كأنه طفل يركن لحضن أبيه، وقد غدا منكمشاً وخفيفاً مثل ريشة. التفتُ إلى القبر الذي انتظرت ان تتصدّره رخامة بيضاء كانت قد خطّت عليها آية الكرسي ووضع في أعلاها اسم والدي «محمد علي خسرو»، وبينما كان أحدهم يردد القرآن بوتيرة واحدة لا تتغير، وجدتني استعيد أبيات المتنبي:

«نبكي على الدنيا وما من معشر جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
خرسٌ إذا نودوا كأن لم يعلموا أن الكلام لهم حلالٌ مطلقُ»

وفي أبيات أخرى حول الموت رددت في سري قوله:

«غاضت أناملـه وهن بحور وخبت مكايده وهن سعير
يبكى عليه وما استقر قراره في اللحد حتى صافحته الحور»

وكانت تلك مجرد ابيات عظيمة عن الموت يغالي فيها شاعر متمكن في وصف راحل لعله لم يعرفه في حياته، كما ان تلك الأوصاف المبالغ فيها لم تكن قطعاً لتناسب رجلاً وديعاً وبسيطاً مثلي أبي، فوالدي محمد علي خسرو أو «مامَلي» وهو الاسم المختصر الذي عُرف به طوال حياته، لم يملأ الدنيا ولم يشغل الناس إلا اللهم بعشرة من الأولاد والبنات هم ذريته التي تركها في هذه الدنيا دون عمد أو سند يعيشون مواطنين من الدرجة الأدنى في بلدٍ يتمايل على حافة هاوية من الحروب والفوضى. فكّرت في بيت الشعر الذي كنت لأضعه على قبر والدي لو خيّرتُ فلم تخطر لي إلا كلمات من عندي واضحة ومباشرة ولا يمكن ان تلتف بروح الشعر المجنونة، تماماً مثل حياة مامَلي العادية جداً، فكنت سأخط على قبره شيئاً بسيطاً كبساطته: «هذا قبر الرجل الذي جاء ورحل دون ترك أثر يذكر».

كانت تلك ربما آخر ذكرى حية لي مع جدي الملاّ غلام علي، فقد سفر بعد ذلك بوقت قصير، في أثناء عزاء والدي رأيت أمي تبكي على فراق أبي كأنها تعاني من وجع حاد في قلبها وقد انطوى عودها الصلب قليلاً وخيل لي أنها تكورت فجأة وباتت أقصر، وصار وجهها الناصع البياض مثل عجينة مختمرة أكثر من اللزوم، طرية ولينة ورطبة بالدموع. حين احتضنتها كنا نحن الاثنان نبدي لبعضنا المشاعر المترددة الفياضة والمتبادلة ربما للمرة الأولى، ولدهشتي سمعتها تردد غير مرة أنها ترملت أسرع مما كانت تظن، قالت لي ذلك في لحظة ضعف لم أشهدها منها وأضافت أنها كانت تأمل ان يرافقها والدي في شيخوختها فمجرد وجوده في الدنيا كان سيغني حياتها. متأثراً بكلامها طردتُ بسرعة ذلك الإحساس الأناني المجحف الذي رافقني منذ اللحظة التي توفى فيها أبي حيث ظننتُ ان امي ستنفض عن كتفيها فجيعة موت زوجها ببساطة وسرعة، وعذري انني لم أشهدها ضعيفة قط في حياتي، كما أنها ليست من نوع النساء اللواتي يثرن شفقتي الذكورية أو يستملنني برقتهن، والأهم من ذلك هو ان أبي كان يتمتع بوجود شرفي كرب لهذه الأسرة الكبيرة أكثر منه وجود حتمي ومصيري، في حين كانت أمي تعظمني أنا في مقابل ذلك ـ على نحو خاص ـ كأنني أنا والد هذه الأسرة أو سيدها.

بعد انتهاء أيام العزاء الكئيبة وبعد ان انفض الناس الذين ترددوا علينا لأيام من أجل المواساة والتعزية، جاءت الينا «ميمي شازي» لأداء واجب العزاء وحدها مثل ضيفة شرف لا يمكن ان يزاحمها في الحضور أحد. أذكرها زوجة لعم أمي المتوفى رضا وكنت قد التقيتها بضع مرات متباعدة في سوق الشورجة بالمصادفة، فعرفتني بنفسها في المرة الأولى وهي تتفرس في ملامحي مبتسمة عن ناب ذهبي ووجه أكثر نضوجاً وحدة من ذلك الوجه ذي الجمال الصارخ الذي أذكره من طفولتي:

ـ أنت ياهو من وِلد پري الكبار؟ سالار لو آزاد؟

ولمّا اخبرتها بانني سالار سحبتني إليها من رقبتي وقبلتني عند نحري وشمّتني بفرح وقد أحسست بنبضاتها السريعة كأن قلبها كان يرقص فرحاً بي. ثم سألتني إذا كنتُ اذكرها فأجبتها بالإيجاب، وخيل لي أنها سرحت في عينيّ لدقائق قالت لي بعدها بحرارة:

ـ سلّملي على پري هواية. قولها ابد ما نسيتكم.

ولمّا سمعت بموت والدي جاءت متلفعة بعباءة رأس تفوح منها رائحة مسك غال، مكحلة العينين رشيقة العود كأن بطنها لم تنتفخ لست مرات بعد أن تزوجت من تاجر سوراني كان أصله من السليمانية ويسكن في بغداد. وقد استقبلتها أمي بترحاب غالت فيه وبدا غريباً على عاداتها الرصينة ومناسبة اللقاء الحزينة، وكأني شعرت ان أمي بها رغبة جامحة لكسب ودّ المرأة التي عاشت بينهم منذ سنوات وغادرتهم لتختفي من حياتهم إثر مصيبة. أما البقية من أهل الدار فقد استقبلوها بمجاملات باردة وهم يتحاشون النظر في عينيها ولا سيما ميمي قَيَم. وبعد ذلك اللقاء بأيام لمّا كان رجال الأمن يدفعون بقَيَم إلى سيارة ستنقلها برفقة والديها وأخيها موفق وزوجته وأولادهما إلى الحدود بغية التسفير، قالت وهي تصعد إلى «البيك آب» باكية:

ـ قدم الشؤم جاءت وجلبت معها مصائبها.

وقد حزرنا جميعاً أنها كانت تقصد شازي التي صارت بعد ذلك تزور أمي في فترات متباعدة، وقد ودعت أمي أهلها دون أن تغالي في ردود فعلها الدرامية مؤملة نفسها بأنها لا بد ستلحق بهم قريباً، غير أن ذلك لم يحدث أبداً وقد كانت تلك هي الدقائق الأخيرة التي جمعتها بوالديها في هذه الحياة فقد فارقاها بعد سنوات قليلة في مهجرهما

القسري، دون أن تتسنى لأمي الفرصة لكي تحزن عليهما حزناً طازجاً إذ كانت تصلنا الأخبار من هناك مشوشة وغير مؤكدة وبعد حدوثها بشهور وأحياناً سنوات، كأن خط الحزن عند أمي كان مقدّراً له ان يبقى مستمراً دون توقف، وحتى وان حدث وقفز فجأة إلى مؤشر عالٍ فإنه يعود بعد ذلك ليستقر كما كان شاقاً طريقه في قلبها الذي مرض وبات متعباً لا يقوى حتى على دويّ دقاته في صدرها كلما زاد ألمها أو فاجأها حادث جديد.

في الأيام الأخيرة لنا في الدهانة بدأت البهجة تختفي من الدور في المحلة كلها، حيث كانت الحكومة العراقية قد سفّرت عدداً من الأسر من منطقتنا غير أنها وبطريقة القدر الملتوية كانت تُخطئنا في كل مرة رغم عددنا الكبير كأسرة ممتدة. بقيت بعض الدور في المحلة متروكة وموحشة لا تهيم فيها سوى الأشباح بعد أن كانت مملوءة بالأطفال والبهجة والحياة، ثم صار بعضها الآخر بغيضاً بعد أن سكّنت الحكومة أسراً جديدة كانت تستقدمها من قرى بعيدة بغية تغيير الخريطة المجتمعية للمكان، فبات من الصعب علينا أن نتأقلم أو نتقبل القادمين الجدد وقد سكنوا الدور التي اغتصبت عنوة من أهلها الأصليين بعد أن رُحّلوا، حتى أن روح المكان اختلفت بالكامل وبات لها طعم الغربة وألم الإقتلاع من الجذور على الرغم من أننا كنا لا نزال نعيش فيها. على قلق انتظرنا لشهور طويلة أن يتم تسفيرنا شأننا شأن البقية لكن ذلك الانتظار طال حتى خفّت التسفيرات شيئاً ما مذ أطل العام ١٩٨٥ برأسه علينا وكان عاماً رتيباً وشبيهاً بأعوام غيره ستأتي من بعده، لعل أهم ما حدث فيه هو قرار أمي مشفوعاً بقبولي ترك دار الدهانة والانتقال إلى منطقة بعيدة وجديدة كلياً علينا. يوم غادرنا بأغراضنا العتيقة وذكرياتنا وبرفقتنا بعض من الأشباح التي آثرت المجيء معنا مثل تلك النكتة التافهة،

استرجعت قول المتنبي بيني وبين نفسي مودعاً مرتع طفولتي وصباي وذكريات الراحلين أولئك الذين لن يرجعوا:

حُشاشةُ نفسٍ ودّعت يوم ودعوا فلم أدرِ أي الضاعنين أشيّعُ
أشاروا بتسليم فجُدنا بأنفُسٍ تسيل من الآماق والسمّ أدمعُ
حَشاي على جمرٍ ذكيٍ من الهوى وعيناي في روضٍ من الُحسنِ ترتعُ
ولو حمّلت صمّ الجبال الذي بِنا غَداة افتَرقنا أوشَكَت تتصدعُ

* * *

اختطفت الحرب العراقية الإيرانية حياة واحدٍ من إخوتي. لم يمت عادل في الجبهة لكنه مات بسبب تلك الحرب التي كانت على وشك ان تعلن عن نهايتها بعد أن طالت لثماني أعوام ثقيلة. ذبحته شظية طائشة بينما كان يجلس في سيارة عائدة به من البصرة بعد أيام قليلة قضاها هناك بصحبة عدد من أصدقائه، ولم يكن ليعلم أنها رحلته للفرار إلى الموت وأنه سيفارق الحياة في لحظة تافهة لا بدّ وأن روحه قد تفاجأت منها وهي تغادر جسده بغتة دون أن تُهيأ للموت كما يجب. كان عادل دائم الحديث عن الحرب رغم أن ذلك لم يكن يليق بشبابه قليل الخبرة بالحياة، إلا انه آثر التمعن بتفاصيل الموت وسياسات المعارك اللعينة وما تخلفه من جثث متفحمة وأحلام وحيوات تتلاشى كلها وتذوب مع الريح المسمومة للحرب. سألني ذات مرة إذا ما كنتُ اشعر بالخوف أو الألم وانا أطلق الرصاص في أثناء تأديتي خدمتي العسكرية الإلزامية مرغماً بعد أن فشلت في التهرب منها مراراً، فقد كان شاباً رقيقاً وعلى الرغم من فضوله إلا أنه لم يكن يقوى على تحمل فكرة حمل السلاح وما تُثقل به الحروب ظهورنا الفتيّة. ولأنه كان بعدُ طالباً فقد عاش على أمل أن تنتهي تلك الحرب قبل أن يتخرج ويضطر لأن يعيش تفاصيلها عن كثب. كنت أحاول أن أجيب عن تساؤلاته ببساطة ودون تهويل فلم

أجد ضرورة لإخباره أنني كلما أطلقتُ النار، حتى وإن حدث ذلك في الوحدات التدريبية، شعرتُ أن قلبي أجوف وأن في صدري ذات الإحساس الطري الذي لا بدّ يحاوط الرصاصة حين تخترق الضحية في طريقها إلى الإعدام الذي تنفذه بعناد مكتوم. سرح ذات مرة في أثناء حديثنا ثم قال محاولاً ألا ينقطع بيننا الحوار:

ـ ما فكرت أبداً أنه ممكن اللي على الجانب الثاني يكون لؤي، لو سرمد، لو مؤيد مثلاً. وأنه هاي الرصاصات اللي دا تطلقها ممكن تقتل واحد من إخوتك. أو العكس. يعني يمكن الرصاصة اللي فد يوم راح تقتل واحد بينا، حتكون بيد واحد منهم.

لم أجبه لأنني حتى تلك اللحظة لم أكن قد فكرتُ في ذلك فأنا حينئذٍ أكون مشغولاً جداً بنفسي، ببسطالي الثقيل وعتادي الذي استلزمني التعود عليه وقتاً، والأهم من ذلك هو ان الجانب الآخر لم يكن له وقعٌ شديد في نفسي حتى نبهني هو إلى صفته الإنسانية المجردة، إذ لطالما كان محض هدف بلا روح، وبلا ماضٍ أو مستقبل، بلا أم أو زوجة أو أولاد أو حتى أحلام، تحت أن يكونَ إنساناً بقليل وفوق أن يكون معنياً بالحياة بشعرة. طبطبتُ على ظهره ولم أحر جواباً بينما كانت رعشة باردة تجتاح جسدي طفت على جلدي أخيراً كأنها مجرد قشعريرة.

بعد موت عادل صرتُ دائماً ما أمزج بين ذكراه وذكرى «بوْح» جاري الآشوري ورفيق طفولتي ومطلع شبابي حيث كنا نسكن في الدهانة. جيء بجثمان بوح في منتصف شهر فبراير من العام ١٩٨٣ سمعنا أصوات الجيران فهرعنا جميعاً إلى الخارج وكانت الدربونة قد غصت بالناس الذين جاؤوا بسرعة على صياح ونحيب والدته وأخواته البنات وهن يتلقين الخبر. بقيت صورة أخته الكبرى التي كثيراً ما وجدت نفسي

متلبساً بالتحديق في ساقيها البضتين ثابتة في ذاكرتي وهي تنطوي على نفسها مستندة إلى زاوية مدخل بيتهم وقد صارت تصيح وتبكي دون أن يُسمع من رنة صوتها حزناً متطرفاً، كأنها لم تتعلم بعد كيف تقاوم المصائب المفاجئة:

صباح لاء. لاء صباح عفية!.

وكان أن تناسيت تماماً جسدها الغض وانحناءاته التي بانت جلية من خلف «دشداشتها» المنزلية التي هرعت بها خارج الدار لتتلقى خبر مقتل أخيها، كأنها تستغل دون أن تتعمد أقسى لحظة ستمر في حياتها لإظهار مفاتنها الأنثوية في عفوية مقبولة. وبقي نظري معلقاً على الصليب الذي كان يهتز بحماس وهو مدلىً عند نحرها بينما كنتُ احتضن بذراع واحدة آندي أخاهم الأصغر. في ذلك الحين كنت أدرب نفسي مثل أيّ شاب يوشك أن يتوسط العشرينيات من عمره على كتمان آلامي اللحظية مؤجلاً الأحزان والدموع التي ستسقط رأفة بالذكريات إلى وقت سوف أخلو فيه بنفسي، وقد كنت أعلم أن ما سيغذي جذوة الألم على فقدان صديق طفولتي وجاري الذي رافقته حياتي بأكملها هو تلك التفاصيل والمواقف الصغيرة التي سأستذكرها ما بقيت حياً، تلك التي ستشق جوفي لتستقر في قعري الخاوي إلا من حزنٍ طويلٍ دام معي عمراً دون أن تكون له مبررات مفهومة.

اكتسب بوح اسم شهرته بين أبناء الدهانة مني، ففي مراهقتنا تعودت أن أمر بدارهم وأناديه بنغمة طويلة فيعرفني مباشرة ويهبط إلي مهرولاً ومبتسماً تلك الابتسامة المتلاعبة، كأن أحدهم على وشك أن يكتشف تسلله من البيت ويمنعه. شيئاً فشيئاً وبشكل تدريجي تحول ندائي من صباح إلى بوح، مثلما تتغير مصائر اللغات واللهجات واللكنات مع الزمن تغير مصير اسمه الصغير، بل وصار نداء اسمه نداءً شهيراً بين

أبناء الدهانة، فكان الصبية يقفون عند داره مقلدين طريقتي وحدث أن خدعوه في البداية وسخروا منه حتى بدأ يعرفهم ويميز نداءاتهم المزيفة، فصار يرد عليهم وهو يمد جذعه من سطح داره:

ـ ها ولكم نغولة، أنت ولك ابن صبغية عبالك ما عغفتك لك گوّاد!

وكان بوح وبرغم لدغة الراء الواضحة في لسانه يتحدث اللهجة البغدادية بشكل سليم على عكس أهله الذين كانوا جميعاً يميلون للحديث بالآشورية وملتزمين بلكنتهم المسيحية المختلفة، فمثل أي شاب في سنه ومثلنا نحن أيضاً كان بوح محباً للتمازج والاختلاط وشغوفاً بإطلاق الشتائم التي كانت تعتبر معيبة بلهجاتنا ولغاتنا الأم بينما كانت طبيعية ومقبولة بين شباب المنطقة وهي تنطلق منّا بالعامية البغدادية الخام. ومن بين الذكريات التي بقيت حاضرة في مخيلتي بكل تفاصيلها هو ذلك اليوم الذي اجتزنا فيه الخان أنا وهو، حيث قابلنا عند نهايته «عبود القُرُم» الذي اشتهر بتحرشه بالصبية الذين كان يُطِلق عليهم لقب «الحلوين» لا سيما ذوي البشرة البيضاء والملامح الطفولية الدقيقة مثلنا تماماً أنا وبوح. كان عبود معروفاً بلقب القُرُم أو القُرُم پاره وهي لفظة بغدادية قديمة كناية عن المحب للصبية، فقد عُرف عبود بحبه الشديد للأولاد وكان يملك محلاً لتصليح الدراجات الهوائية بالإضافة إلى خدمة تأجيره الدراجات من نوعية صنگر وديلوكس الإنگليزية بخمسة وعشرين فلساً للربع ساعة ومائة فلس للساعة الكاملة وأقل من ذلك قليلاً لماركة هيرو الهندية الصنع، وقد تمكن بهذه الطريقة من إجتذاب الصبية والمراهقين في الدهانة وغيرها من المناطق القريبة. وكثيراً ما تعرضتُ للتوبيخ من أمي التي كانت لا تكتفي بعقابها وحده بل تشكوني لأبي حالما يتناهى لسمعها أنني استأجرتُ واحداً من دراجات عبود. غير أنها لم تكن تعرف أنني كصبي يتجول خارج الدار حاملاً شقاوته ومشاكساته

بعيداً عن ناظريها، لم أكن قط بالولد الجبان أو المستسلم حتى وإن لم أكن أفهم تماماً الرغبات التي كانت تثير الخيالات المريضة لشخصية مثل عبود القُرُم، فغالباً ما واجهتُه صارخاً إذا ما حاول لمسي بشكل قد يبدو عفوياً وهو يهم بمساعدتي على ركوب الدراجة العالية التي يجلس بوح في مقدمتها ليقودها بينما اركب أنا خلفه، لا سيما إذا ما كانت الدراجة قياس ٢٨ فتكون مرتفعة ولا تناسب قامتي التي كانت قصيرة بالنسبة لبوح. في ذلك اليوم حين التقانا عبود عند نهاية الخان كنا أنا وبوح في نحو الثالثة عشرة صبيين غرّين وهدفين ممتازين لشخص مثله، غير أنه لم يجرؤ على التقرب منّا ونحن قريبان جداً من الخان خوفاً من جدي الملاّ فجرب مثل ما فعل مرات عديدة من قبل، أن يهمس من بعيد ويشير بيده في حركة حاول ألا تكون مفضوحة مبتسماً ابتسامة ودودة وقبيحة في نفس الوقت. يومها حين تجاوزناه دون أن نبالي أصر وتبعنا مخبئاً كفيه في جيبي بنطلونه القذر كأنه لا يقصد تماماً أن يمشي خلفنا، ولما شعرنا بتعقبه لنا ركضنا بسرعة وخفة ونحن نضحك من سخافته ولقبه وشكله القبيح وتحرشه بالصبية دون أن نكون واعيَين كلياً لمدى خطورة أمثاله على صبانا، فقط كنّا ننفذ توصيات الكبار في الابتعاد عنه وعدم السماح له بالاقتراب. اختبأنا في منعطف إحدى الدرابين ووجدتُ نفسي أهمس لبوح بفكرة طائشة:

- من يجي، واحد بينا يشغله والثاني يضربه چلاق.

مد بوح رأسه من خلف الجدار ثم عاد لوضعه بسرعة وكان واضحاً أنه موافق حتى دون أن يبدي ذلك أو يقول كلمة. ثم جاء عبود الذي كنت لمحت في عينيه حين التقانا عند الخان نظرة فيها لمعة تشبه لمعة الشبق حين يصل لآخر مراحله، لكنني لم أكن حتى ذلك الحين أفهم ما تعنيه مثل تلك النظرات وظننتها شرراً يتطاير من عينيه. التصقنا أكثر

بالجدار وما ان تجاوزه عبود حتى عالجه بوح بركلة على مؤخرته السمينة دون أن يعير اهتماماً للجزء الآخر من خطتي بان يشغله أحدنا، هربنا بعدها ونحن نركض بأسرع ما أوتينا من قوة، كنا نضحك ونزفر قهقهاتنا ونتصبب عرقاً لكن عبود حث خطاه مهرولاً هو الآخر بجسده الثقيل محاولاً اللحاق بنا. قادتنا أقدامنا إلى الدربونة التي يقع في نهايتها ذلك البيت المهجور الذي غالباً ما تجنبناه، واذا كانت دورنا العامرة بالناس مسكونة بالأشباح فإن الخيال وحده يعين على تقدير ما يسكن بيتاً مهجوراً كذلك الذي وجدنا انفسنا منطلقَين نحوه مضطرين بعد أن اكتشفنا أنه ملاذنا الأخير في دربونة ضيقة يحاصرنا في طرفها الآخر عبود القُرُم الذي كان قد رُكل في مؤخرته للتو ومستعد للانتقام كأفضل ما يجب من صبيين يشتهيهما. أراد بوح في البدء أن يدخل من الباب الخشبي المتهالك لكنني لكزته مشيراً برأسي إلى الأعلى. كانت الدار مهدمة ومنبعجة طبقة فوق أخرى وقد بانت بين نتوءات الحائط القديم أعواد من الخشب القوي لا بدّ أنها كانت أعمدة للدار قبل أن تتهالك بهذا الشكل. وبخفة وسرعة تسلقها بوح وتبعته أنا متلفتاً، وفي أقل من دقيقة صرنا فوق سطح الدار التي لم تكن عالية جداً وعلى الرغم من أن عبود كان بوسعه أن يلحقنا لو أنه أصرّ على حمل جسده الثقيل ليتسلق الدار هو أيضاً، إلا ان القُرُم كان كسولاً بليداً، فضلاً عن كونه جباناً ولا يقارب جرأتنا ولو قليلاً في مقارعة الأشباح والدور المسكونة، فكان أن تقدم قليلاً ووقف تحت الدار رافعاً رأسه إلى الأعلى وهو يلهث وقد تصبب العرق من رأسه الصغير مقارنة بجسده الغريب في تصميمه فهو منفوخ بشكل بيّن عند الساقين والمؤخرة ونحيل بالمقارنة عند الجذع والذراعين. عاد أدراجه بعد ذلك ليقف عند بداية الدربونة وعيناه على البيت حيث كنا نراقبه أنا وبوح خلسة مختبئَين خلف دفة باب مخلوعة

فيها ثقوب عدة. أقدّر اليوم أنه لربما ظن أننا عبثنا معه رغبة في مجاراته، وفي الحقيقة أظننا كنا محظوظين جداً في الفلات منه دون أن تصاب ذكورتنا بجرح عميق كان بإمكانه أن يعيش معنا العمر كله، عمري الكئيب الذي يأبى أن ينتهي حتى الان وعمر بوح القصير الذي لم يتعد العشرين سوى بسنوات قليلة. يومها بقينا لدقائق نتابع الرجل الذي صار يروح ويجيء عند بداية الدربونة ننتظر فرصة للهرب، حتى سمعنا فجأة حركة في الخلف ولم تكن مفاجأة بالنسبة لكلينا ألا يكون البيت خالياً لكننا حين التفتنا كانت المفاجأة في ما ظهر لنا من خلف البيتونة المهدمة والمعزولة في نهاية السطح الذي كان ممتلئاً بالحطام، فقد ظهر لنا رأسٌ أشعث وكائن لونه رماديٌ مصفرّ كأنه عفريت صحراوي غير مدني لا يشبه في شيء العفاريت والأشباح التي كنا نعرفها نحن عز المعرفة. خطف أمامنا لوهلة من خلف البيتونة ثم أختفى بسرعة عجيبة.

قلت فاغراً فمي من الدهشة:

- شفته؟

- خرا بيومه لك شنو هذا؟

رد بوح في شبه حماس.

- وين راح؟

- تعال نشوف وين ولّى.

درنا حول البيتونة وصعد بوح فوقها مفتشاً ثم قرفص مثل القرد متلفتاً لكنه لم يجد شيئاً، وبقي الخيار الوحيد في ان ندخل إلى البيتونة، وفي ثوانٍ كان كلانا قد نسي عبود القُرُم وقد أثارتنا معرفة حقيقة هذا الكائن الغريب. عندما مددنا رأسينا بحذر عبر البيتونة لمحنا كومة في

اقصى الزاوية لم نتبين ماهيتها تماماً، وقبل أن أهم بالدخول جرني بوح بقوة قائلاً:

ـ لا تدخل. خلي نحبسه، ونشوف شيسوتي.

وقفنا نراقب البيتونة لدقائق طويلة دون أن تصدر أية حركة أو حتى صوت كأن ما رأيناه لم يعدُ ان يكون مجرد وهم، وكان أحدنا بين الحين والآخر يراقب الدربونة حيث عبود يروح ويجيء عند بدايتها في صبر وطولة بال نادرة. غير أن بوح لم يكن صبوراً وحين ملّ أخيراً من الانتظار قرر أن يستفز ذلك الكائن في جرأة عجيبة فحمل حجرة من بين الحطام والقى بها على البيتونة دون أن يحدث شيء، ثم كرر الفعل ذاته وسمعنا في هذه المرة صوت تكسير زجاج لم نَره. في تلك الأثناء بدأت الشمس تميل نحو المغيب وصار يلف المكان سكون ورهبة كئيبان حتى انني شعرت بإحساس شبيه بالخوف ينقر صدري برفق. ثم فوجئنا نحن الاثنان بشبح أسود هائل الحجم يظهر من خلف البيتونة وراقبنا تقدمه نحونا بعيون مليئة بالرهبة والترقب قبل أن نتبين أنه لم يكن سوى شبح پرگه الدجّال الذي كان يعيش في بيت خالة جدي، تلك المرأة الرهيبة التي كانت تُدعى نازارة. وكانت تلك المرة الوحيدة التي التقيه فيها دون أن تحوم حوله قطتاه، فواجهنا بمفرده وبجسده الفارع وعباءته النسائية التي ثبّتها على رأسه فبدا كأنه ظلٌ هائل للموت، طويل وأسود ومحجب الرأس وبشاربين كثيّن، كأن الموت لا يمكن إلا ان يكون على هذه الشاكلة، وان هذين الشاربين الكثين الملصوقين على وجه رجلٍ مخنثٍ علامة مؤكدة على خنوثة الموت وملامحه غير الحيادية. صاح بنا مستغلاً دهشتنا والمفاجأة التي لم نكن قد أفقنا منها:

- شيسوي أنت وياه هنا؟

ولم نحر جواباً كأن كلينا قد أصابه الخرس. فعاد يقول بنبرة عالية وبعربيته الركيكة التي كانت تقع في أذني كأنها كلمات متقاطعة:

ـ من شوكت أنت وياه هنا. آني يشوفكم. شيسوون هنا والدنيا راح يصير ليل؟

ثم أكمل:

ـ أنت مو ابن پري. آني راح يقول لأمك. خليها طيح حظك.

استجمعت نفسي وقلت بجرأة وأنا أشرئب بعنقي لأبدو أطول:

ـ عبود القرم كان لاحقنا وختلنا هنا.

ـ هاي لأن أنت وياه يضربه چلاق.

رد بسرعة فبهتنا أنا وبوح الذي غير مجرى الحوار بسرعة:

ـ عمو، تعرف شنو أكو هنا بالبيتونة. شفنا فد واحد عجيب شكله. تعال شوف

وحاول أن يجر پرگه إلى البيتونة لكن الأخير لم يتحرك وقال وهو ينفخ بقلة صبر:

- انتوا الثنتين ما راح يفيدكم هاي الجرأة.

ثم وجه كلامه إلي وقد أحس ان لغته العربية ستخونه قبل أن يوصل المعنى كاملاً فأكمل بالكردية وقد تغيرت نبرة صوته ما ان تحول إليها، فصارت أعمق وأكثر وضوحاً وحدة:

- لا تتجاوزا الخوف بهذا الاستخفاف، فالخوف ليس مهيناً لكما كشابين غرّين أو حتى كرجلين في المستقبل. الخوف يولد الحذر الذي سيعينكما على متابعة الحياة. فالجرأة التي تتصفان بها ليست محمودة بل خطرة يا بني.

كنت أنظر إليه بعينين مفتوحتين بينما بدا واضحاً آن بوح صار يشعر بالتململ خاصة عندما استرسل پرگه وهو يخزر بعينيه كأنه يتعمد إخافتي:

ـ كل يوم عند ساعة الغروب، آتي إلى هنا متخففاً من أقداركم وأخرج محملاً بالجديد منها مثقلاً بهمومها التي تنقض ظهري الضعيف ولكن ما حيلتي أمام القسمة التي كتبت على جبيني في ان أكون ذلك الوسيط بين الغيب والحياة الدنيا؟ وأعرف أن مكاناً كهذا كفيل ببث الرعب في قلبٍ باردٍ وصلد كقلب عبود، ورغم ذلك فإنه لم يردعكما أو يخفف من فضولكما.

اقشعر جسدي الصغير حينها دون أن أفهم كلامه وأكمل هو قائلاً بالعربية ليوجه رسالته إلى بوح أيضاً:

ـ خافوا! لا تصيرون شجعان. واذا شفتكم مرة ثانية هنا أكسرها رجليكم وأخبر أمهاتكم حتى يطيح حظكم.

هبطنا من تلك الخربة المسكونة بشبح مصفر ومغبر، بخيبة أمل كبيرة كوننا لم نتعرف إلى الحقيقة كاملة ولا ادري ان كان بوح قد أضمر في نفسه العودة إلى المكان ليروي فضوله لأنني تملكتني الرهبة منه وصارت كآبة سوداء تتسلل إلى قلبي كلما مررت بالقرب من الدربونة حيث يقع ذلك البيت الخرب حتى بعد سنوات من تلك الحادثة. وقد لاذ عبود القرم بالفرار ما ان رآنا نسير عائدين برفقة پرگه الذي ساعدنا في العودة إلى دربونتنا بعد أن كان الليل قد جثم على المنطقة بسواده الثقيل. ولا اذكر انني وبوح قد عدنا على ذكر ذلك اليوم كأنه كان بيننا اتفاق غير معلن على تناسيه، حتى انني لا أعرف السبب أيضاً. وقد علمتُ فيما بعد أن بوح قد مات وهو يهم بانقاذ حياة زميل له كان

جريحاً حاول سحبه إلى مكان آمن في الوقت الذي كانت المعارك في اشدها، وحين هطل وابل من الرصاص كثيفاً قُتل بوح المسكين لتوه.

بعد سنوات من موت عادل حكت أمي وهي تمسح دموعها التي لم تجف أبداً على رحيله قصة إختطافه من الأشباح في دارنا القديمة في الدهانة. قالت أنهم بحثوا عنه في الدار كلها قبل أن يجده العمّ مجيد فوق السطح، وقد أخبرهم في حينها پرگه، أن عادل محفوف بالملائكة التي عشقته منذ ولادته ما يفسّر موته شهيداً. تلاقت نظراتنا أنا وآزاد الذي كان قد اكتسب عادة التدخين الجديدة والمتأخرة على من هم في مثل سنه، فنفث دخانه وألقى ببصره بعيداً، وكأني به يقول في سره أن الشيء الوحيد المؤكد بعيداً عن خرافات أمي هو أن عادل قد ارتاح قبل أن تُجهز السنوات التي تلت موته على ما تبقى من إنسانيته كما بات يحدث معنا كل يوم، كأنها تجدد جلودنا في عذابات الجحيم اللا نهائية. كنا في ذلك الحين نخطو نحو عقدنا الرابع برتابة مهلكة، دون تغيير، دون أمل، وبالنسبة لي فقد كنتُ أعيش بقلب لم يعصف به الحب مطلقاً ولا حتى مر بقصة ارتباط عادي يتخذ شكل الزواج فيما بعد، وكنتُ بطبيعة الحال دون ذرية تنعش في دواخلي ولو جانباً صغيراً من الحياة المضطربة بالحروب والخوف، بينما تزوج آزاد مطلع التسعينيات من شابة صغيرة ومدللة متأثراً بالحاح أمي، هجرته بعد الزواج بسنتين بحجة أنها لا تحتمل الحياة في بيتنا المسكون بالعفاريت وبالذات مع رجل كئيب وصموت مثل آزاد، وقد غادرت العراق برفقة أهلها الذين هاجروا إلى أمريكا تاركة له طفلة تحبو، ربيناها مع البقية من الأولاد الذين صار بيتنا يمتلئ بهم كل يوم جمعة بعد أن تزوجت اربع من اخواتي البنات وفرخن عدداً لا بأس به من الأطفال بسرعة عجيبة، وقد انتظر الأخوين الأصغر ولوجهما الثلاثينيات من عمرهما

قبل أن يتزوجا. وحدنا انا وأختي ڤيان قاومنا الزواج بشراسة، ولم تكن في جعبتي اسباب وجيهة اقنع بها أمي سوى انني لم اكن راغباً بتحمل المسؤولية التي ستلقى على عاتقي لا سيما في بلد لا سبيل فيه إلى العيش بسلام واطمئنان، لكنني لم اذكر لها الأسباب الأخرى، حقيقة انه لم يخطف في حياتي حب يقتلعني من ذاتي ويجبرني على حرق ما خلفي من جسور لأقف أمامه عاجزاً عن تمالك نفسي، فما دامت العاهرات متوفرات ومجدات في عملهن كما أرتجي منهن، وبعض نساء الأسر المحافظة صرن يتخففن من أعباء الشرف التي تكبلهن بها الأعراف، فلا سبب إذن يدعوني لأنام مع المرأة ذاتها كلما عُبّئت بسُمّي، وكان يسعدني ان اغرس بذوري في أماكن عدة بتوزيع منصف وعادل لا غبن فيه. في حين عزفت ڤيان عن الزواج بسبب رفض أمي لشاب كان معها في الكلية تقدم لخطبتها في مطلع شبابها بحجة انه عربي، فعاقبت ڤيان أمي على فعلتها تلك بعنوسة دائمة كأنها تصر على ألا تغفر لها ما اقترفته في حقها، ولكنهما على الرغم من ذلك متعايشتان بشكل جيد ومتفاهمتان فيما بينهما إلى حد كبير ما يوحي ان ڤيان قد تجاوزت محنتها بوعي وبصيرة نادرين.

كان أغلبنا ـ إخوتي وأنا ـ قد ألقى في درج سنينه المبتذلة شهادة جامعية أحياناً تكون سارية المفعول وأحياناً أخرى لا تُعين كثيراً في بلد ينظر إليك بازدراء من طرف عينه العوراء، وحاولنا تجنب الوظائف الحكومية قدر استطاعتنا لكي لا نكون محط جذب الانتباه أو التركيز باسمائنا المثيرة وخلفيتنا المغضوب عليها. تعودنا ان نحسب حساب الكلمة واللفتة بل وحتى الأفكار التي تدور في رؤوسنا، كل شيء كان محسوباً بقدر وكل ما كان من شأنه ان يجلب الينا المتاعب والشبهات كنا نتجنبه ونهمله بلامبالاة مصطنعة حتى دون أن يبدو علينا الارتباك أو

القلق، وبعد سنوات من التطبع على ذلك كنا قد تعودنا ألا نفصح عمّا في دواخلنا، وصارت التعابير والتساؤلات بل وحتى الرغبات تتحجر على شفاهنا، وفي اثناء الحصار تركز اهتمامنا على بطوننا وفروجنا، فصدأت بذلك الآلات التي في رؤوسنا ولم تعد تعمل كما في السابق، حتى كنتُ اتفاجأ من انني قد نسيت قصائد مطولة للمتنبي كنتُ في السابق أحفظها عن ظهر قلب منذ مراهقتي تقريباً، تلاشت بشكل عجيب من ذاكرتي ووجداني كأن كل ما في رأسي قد أصابه العطب والعفن، وكأن روحي هي الأخرى قد فسدت وتعفنت دواخلها حتى تأكدتُ ان كل الأيام التي قضيتها في صقلها قد ذهبت ادراج الرياح، فكل مواهبي باتت مجرد ترف سخيف لا يليق بمن يعيش حصاراً اقتصادياً خانقاً إذ لم يعد في البيت صوابين مخزنة لأنحت منها المؤخرات والأثداء، وصرتُ أفضل شراء البيض وخبز الشعير على أن اهدر نقودي في شراء الأوراق والألوان أو حتى الكتب.

يومذاك، سأل آزاد أمي وهو يطفئ سيجارته بلغته الخاصة التي يخلط فيها العربية بالكردية، فيكرّد الكلمات العربية ويعرّب الكلمات الكردية عابثاً بالكلمات في تهتكٍ لغويٍ فاضح:

- أين حل الدهر بذاك الرجل؟ پرگه. لا أذكر أنني رأيته منذ مراهقتي تقريباً.

ردت أمي بحماسة كأنها لم تصدّق أنها ستسترسل في سرد حكاية، وكانت ما تزال أثر دمعة عالقة بجفنها:

- اختفى فجأة. قالوا أنه بعد مدة من اختفائه رحل مع المسفرين إلى إيران بأن سلم نفسه وهو يصرخ متوسلاً وباكياً «آني كردي فيلي، آني تبعية، طلعوني منّا». وهناك من يقول بأن تلك قصة مكذوبة يُراد منها التمويه، وأنه ما يزال يعيش بيننا في العراق لكن دون أن نعلم عنه شيئاً.

ـ أي مو هو خضر الياس.

رد آزاد متهكماً، ثم أكمل موضحاً وهو يطالع نظرات أمي المستفسرة ببراءة:

ـ دا، هذا واحد دجال عادة هيچي ناس نهايتهم تكون غريبة وغالباً تكون مو زينة.

قلت مؤمّناً على كلامه:

ـ مثلاً يمكن واحد لزمه اغتصبه وبعدين قتله وشمر جثته شو وين. دا، هو مو كان شاذ؟

كانت في العادة تستفسر عن الكلمات العربية التي يصعب عليها فهمها لكنها فاجأتني بأن انتفض جسدها لمّا سمعت كلمة شاذ وردت بسرعة:

ـ معاذ الله! ما هذا الكلام يا بني! صحيح أنه كان به شيء من النعومة والخنوثة منذ عاد من الموت مصاحباً للجن، لكنه لم يكن يمارس فعلاً مستقبحاً.

حكيت لهما ـ لآزاد وأمي ـ عن قصة عبود القرم وبوح والبيت الخرب المسكون فقالت أمي بنبرة العالم الفاهم لجميع خفايا الكون وأسراره:

ـ اعرفها تلك الخرابة حيث كان يلتقي بالجن من أصحابه. يقال انه ذات غروب فر منها وهو يصيح ويتلوى بعد أن صبوا على ظهره ماءاً مغلياً فسلخوا جلده عقاباً له على فعلة ما. لكنهم كانوا من الجن الطيب. مسلمين وموحدين لله.

قال آزاداً محاولاً ان يكتم ضحكة:

ـ هاي جن طيب وهيچي. ضرب وضربوه حرق وحرقوه، وحتى خصي هم خصوه بس خوش جن.

امنتُ على كلامه قائلاً:

ـ لا الشهادة لله طيبين.

استمرت كأنها لا تهتم لسخريتنا:

ـ لقد فرض الرجل احترامه ومحبته في قلوبنا جميعاً مذ عاد من الموت وكان في ذلك الحين قد هجر اسرته وأولاده وسكن عند خالة والدي رحمها الله. كان طيباً وخدوماً، بلاؤه الوحيد انه رافق الجن رغماً عنه ولو كان الأمر بيده لما فعل.

قال آزاد رافعاً صوته على صوتها:

ـ بلاؤه انه سكن عند تلك الشمطاء نازارة، لقد صفعتني مرة على سبيل التحية، صفعة قوية لا يصدَّق أنها كانت بيد تلك العجوز، شعرتُ معها بدوار وطنين في رأسي.

استرسلت أمي تذكرنا بقصة نازارة التي كنّا قد سمعنا بعض تفاصيلها من هنا وهناك:

ـ كانت امرأة مبروكة من لطف الله بها انه قبض روحها إليه قبل ذروة التسفيرات بشهور قليلة، فالمسكينة كانت قد ضعفت كثيراً قبل وفاتها ولا أظنها كانت لتنجو من طريق التسفير أو تحتمل ما حل بأولادها واحفادها الذين كانت سوق الشورجة تضج بهم ثم باتت بعد تسفيرهم خالية دون أثر لأي منهم. كانت عالمة دون معلم على روحها الرحمة والبركات، نامت لثلاث ليال متواصلة في مطلع شبابها ولما استفاقت فوجئوا بانها تقرأ وتكتب العربية رغم أنها كانت أمية لا تعرف القراءة قبل ذلك السبات.

التفتُ إلى آزاد لأقول بسرعة:

ـ لا يا بربوك على هالدگة!

فاستشاطت أمي غضباً وارتفع صوتها وهي تهدر بالكردية والعربية معاً:

ـ ابني عيب. لماذا أصبحت سيء الخُلق هكذا!

همس آزاد واضعاً كفه أمام فمه في حركة ساخرة:

ـ الله يرحمها كانت أحسن دجالة بباب الشيخ

لكن أمي ردت بعناد:

ـ دجالة، اليس كذلك؟ حين كانت تُعالج سكرات الموت هبّت من فراشها وصارت تُشعِر بالعربية الفصحى، بلكنة عربية ممتازة وغريبة عليها، شهدتُ ذلك بنفسي حين وقفنا عند رأسها نلقنها الشهادة. فسّر لي ذلك أيها المتعلم المثقف؟

قلتُ دون تفكير:

- جني راكبها، هي وذاك الگواد پرگه

ـ ذاك الذي لا يعجبك قال لنا أكثر من مرة سأغادركم وسيصبح هذا البلد من بعدي خراباً

ثم أكملت بالعربية:

ـ هذا الحچي بالسبعينات يعني بعده زمن الخير، منو كان يصدق العراق هيچي يصير. سمعنا كلامه بوقتها ويمكن نسيناه، بس بعدين الله راوانا كل اللي قاله طلع صحيح.

ثم أخرجت من تحتها منديلاً يلازمها ومسحت به عينها ثم وجهها وتمتمت كأنها تكمل موضوعاً لم ينته في رأسها:

ـ لو كان ميتاً فنسأل الله له الرحمة ولو كان ما يزال حياً فنسأله ان يلطف به وبنا.

* * *

بعد أن عايشتُ حربين طحنتا البلد ليأتي من بعدهما بداية حصار اقتصادي عصر آخر قطرات متبقية من أرواحنا، بدأتُ أفكر بالهجرة التي باتت في ذلك الحين أملاً جديداً للغالبية من الشباب الذين كانوا قد يئسوا من أن يُصلح حال البلد المبتلاة بالحروب المتتابعة وكل ما تجره معها من عواقب، ولا سيما بعد أن كادت تسقط الدكتاتورية التي ظننا في زوالها خلاصنا فكانت العودة التي بثت يأساً قاتلاً في النفوس. وعلى الرغم من كل الأسباب التي يمكن ان اسطّرها والتي ستكون في الغالب مقنعة ووجيهة للرحيل، إلا ان الوقت بدا بالنسبة لي متأخراً والأسباب كلها غير قيّمة فجاء قرار هجرتي المفاجئ مثل رغبة سخيفة ومخجلة مني للتشبث بالحياة. شجعني على فكرة الهجرة الإبن الأكبر لخالتي فرصت الذي غادر العراق بعد وفاة والده العم حاجي بشهور قليلة، تهريباً عبر كردستان ثم عن طريق تركيا تمكن من اللجوء إلى كندا، وبعد عامين فقط كان قد حث من تبقى من اسرته الصغيرة على الهرب من العراق وتمكن من سحبهم جميعاً إليه، خالتي فرصت وأولادها الثلاثة. علمنا فيما بعد أنهم استقروا في مدينة «تورونتو» حيث أكملت خالتي فرصت التي لم تكن لتحلم بترك العراق ـ الباقي من حياتها في هدوء وكآبة لكن بالكثير من الراحة والاطمئنان على نفسها وأولادها على الرغم من البعد وألم الفراق. فكرتُ ان أفعل الأمر ذاته في رغبة مفاجئة ولكن ملحة للخلاص ودون ان استشير أمي ودعتها فجر أحد الأيام مدعياً ان علي السفر إلى مدينة ديالى في عمل وتركتها تكتشف بنفسها سر سفري بعد أن غبت لأيام طويلة. استطعتُ ترك البلاد في فترة كانت تعد راكدة وساكنة بعض الشيء، حدث ذلك تقريباً بعد عامين من غزو العراق للكويت والحرب الثانية التي مر بها البلد مثل عاصفة هوجاء اقتلعت كل ما في طريقها. تمكنت من الوصول إلى دمشق متخذاً طريقاً

غير شرعي ولم أفاجأ حين وجدتها قد غصت بالمئات غيري من العراقيين الفارين من السحر العراقي الأسود الذي ظل يلاحقنا بلعناته فيما نحن نحاول الإفلات منه عبثاً. وضايقني انني قد غادرتُ العراق وفي داخلي يعتمل إحساس غريب لا يشجعني على الرحيل كأنني غير مستعد لحياة ثانية وقد تخطيتُ الخامسة والثلاثين من عمري وليس بي جلد على تجربة أنماط حياتية جديدة ومختلفة، ولبثت لأيام متردداً بين الخوض في طريق الهجرة الشاق والطويل أو العودة إلى العراق. وقضيتُ بالفعل أوقاتاً عصيبة غارقاً في كآبة سوداء حيث كنت أعيش في غرفة رطبة في واحد من أزقة حي الأمين في دمشق مع عدد من الشبان العراقيين المؤمنين إيماناً مطلقاً بالهجرة كأنها خلاص لاهوتي محسوم. في ذلك الحين اعتاد أغلبهم إذا لم يكن جلهم ان يلتقوا في «حي السيدة» منطقة «الحجيرة» تحديداً وقد مروا جميعاً بنفس المطاعم والمقاهي وتخالطوا وتعارفوا فيما بينهم كما ساعد بعضهم بعضاً في خطط الهجرة التي كانت تحاك وتنفذ انطلاقاً من تلك الأمكنة. وكنت التقيتُ ببعض من مسفري عقد الثمانينات إلى إيران، أولئك الذين فروا بدورهم من جحيمها الشيوقراطي وضياع هويتهم وابسط حقوقهم الإنسانية فيها، بعد أن عدّتهم الجمهورية الإسلامية مواطنين عراقيين ألقوا على حدودها لمجرد ان يكونوا حملاً ثقيلاً على كاهل الدولة الوليدة التي لم تنصفهم واختارت ان تغض الطرف عن وجودهم في البلاد، لكن دون أن توفر لهم أي حقوق تذكر. التقيت شباناً فيليين لم تسمح الحكومة الإيرانية لهم بالانخراط في مدارسها لعدم توفر أوراق ثبوتية فكانوا أميين تماماً عاشوا سنوات طفولتهم صباغين أحذية أو بياعي مناديل ورقية في شوارع طهران عراة تماماً من ماضيهم العراقي الذي كان عزيزاً، العراق ذاته الذي أخضعهم لتلك الذلة، وقد كان أمراً

اخرق التقاء مصائرنا جميعاً في دمشق بعد سنوات قليلة من تمزق ملتنا على ذلك النحو السافر. تعرفت أيضاً على بضع من المسفّرين من سكنة الدهانة سابقاً وقد عرفوني مباشرة فلا يمكن لأحد ان يخطئ أو ينسى «سالار ابن پري بنت الملاّ غلام علي»، وكانت المفاجأة التي عرفتها من احدهم حيث أخبرني بأن لؤي ابن خالتي مريم كان قد مرّ على مدينة دمشق قبل فترة قصيرة وتمكن من الإفلات إلى السويد بنجاح وانني في الواقع قد فوّته بفارق أيام قليلة فقط. كان أغلب الشبان يتداولون قصة لؤي أمامي قبل أن أعرف بان الفتى المقصود هو ابن خالتي، لأن الطريق التي هُرب عبرها إلى السويد كانت جديدة والمهرب حسب ما ردد الفتية يعد مضموناً، وفوجئتُ ببعضهم يشير إلى لؤي باسم جديد هو «أُميد»، فشرحوا لي انه يحمل الاسمين لأنه على عكس الغالبية منهم قد حصل على الجنسية الإيرانية بفضل والده الثري. وقد كان أغلب الطامحين بالهجرة من المسفّرين يعتبرونه مجرد ابن مترف لرجل قروي غني من مدينة إيلام الكردية، اختار ان يجرب الحياة في الخارج بعد أن مل الحياة المخنوقة بالقوانين والتعاليم الدينية في إيران. سألت الشاب الذي أخبرني عنه ان كان بإمكاني التواصل معه فقد كان مجرد سماع صوت أحد أفراد اسرتي التي في الجانب المستحيل من العالم يعد حلماً صعب المنال، وقد ساعدني مشكوراً في إيجاد رقم هاتف المعسكر الذي يسكن فيه لؤي من المهرب نفسه الذي هربه. وقفنا في كابينة الاتصالات نعاود الاتصال بعد محاولات عدة باءت جميعها بالفشل خلال يومين سابقين، حتى استطعنا أخيراً الوصول إليه بصعوبة، وقد حادثه الشاب المسفّر بالعربية التي كان أغلبهم ولدهشتي ما يزالون يتقنونها:

- أكو فد واحد يريد يحچي وياك، هاك بالله شو تعرفه؟

جاءني صوته الصافي بنغمته الهادئة الرصينة:

ـ نعم، منو وايه؟

قلتُ له بالكردية:

ـ الو لؤي، كيف حالك؟ «يه مِنم سالارم».

ـ كي؟

ـ سالار آني، سالار ابن خالتك پري.

سكت لوهلة ثم خيل لي انه انهار على كرسي أو ربما انهار في داخله، والتوت نبرات صوته فجأة كأنه يوشك على البكاء من شدة تأثره بسماع صوتي بعد قطيعة سنوات لم نسمع فيها أخبار بعضنا البعض إلا لماماً، وظل يردد كلمات وهمهمات متقطعة بصوته الذي تهدج وصار يرتجف. وكرر كثيراً:

- براگم.. براگم. (اخي، اخي).

بينما سيطرتُ على مشاعري بصعوبة وأعدت دموعي إلى منبعها حتى قبل أن تترقرق عيناي. ولما كانت الاتصالات مكلفة فقد حصلتُ على عنوان المعسكر الذي كان يقضي فيه أيامه الأولى في السويد وراسلته لبضع مرات، وقد حاول المسكين جاهداً مساعدتي آملاً في ان أكون قريباً منه في السويد أو حتى في أي دولة اسكندنافية أخرى. كان يكتب لي بالفارسية لعدم مقدرته الكاملة على الكتابة باللغة العربية الفصحى التي يبدو بأنه خجل من استخدامها في رسائله، وكنت أرد عليه بها فهو رغم ذلك كان يفهمها جيداً. أما انا فلم أكن افهم كل ما يجيء في رسائله بلغته الفارسية الفخمة وصيغ الاحترام المبالغة التي كان يمطرني بها واعتدت لذلك الاستعانة بالشباب من المسفَّرين ليترجموا ما يستعصي عليّ فهمه.

أوصلني لؤي بالمهرب الذي ساعده على السفر إلى السويد التي باتت محجاً للكرد الفيلين فقد امتلأت بمسفّري الثمانينات، ثم مع بداية التسعينات فصاعداً باتت الدول الإسكندنافية ولا سيما السويد تحديداً مركزاً مهماً للكرد الفيليين في شتاتهم الواسع بخلفايتهم كافة، سواء أكانوا ممن سُفّروا أو من أولئك الذين غادروا العراق بملء إرادتهم خوفاً من ملاحقة النظام البعثي وأملاً في حياة أكثر هدوءاً وراحة. تواصلت بالفعل مع المهرب الذي أخبرني بوجود طريقة جديدة باتت تعد أكثر ضماناً من تلك التي هرب بها لؤي، واقترح ان يمدني بجواز سفر خليجي مزور، قال انني ما ان امر عبر بوابة الجوازات فهذا يعني انني قد وصلتُ إلى السويد بأمان فقد كان أمن مطار دمشق في ذلك الحين متعاوناً مع اللاجئين العراقيين بالذات نكاية بالحكومة العراقية، وسيتغاضى عن جوازي المزيف حتى لو اكتشفه. أرسلت للمهرب صوراً شخصية بدوت فيها بحاجبيّ الكثيفين ولحيتي الخفيفة وملامحي الكردية المرهقة مثل سفّاح لاتيني متسلسل يرتدي غترة وعقالاً في اتحاد غريب وعجيب لمكونات متضادة غير متآلفة، أي انني قطعاً لم أكن أشبه في تلك الصور رجلاً خليجياً مترفاً بأية حال. وقبل أن أحصل على الجواز بفترة وجيزة جداً قفلتُ عائداً إلى العراق، وقد جُن لؤي المسكين وهو يستمع إلى قراري عبر الهاتف الذي اغلقته في وجهه مدعياً تعذر سماعه بشكل جيد دون أن أحفل بتوسلاته وترغيبه إياي:

- بس تعال شوف الدنيا هنا عدل! واذا ما عجبك ارجع. حتحس بروحك آدمي لأول مرة بحياتك. حتحس روحك محترم وكل قطرة دم بجسمك معصومة. محد راح يسألك هنا شنو دينك لو مذهبك لو عرقك. محد اله علاقة بيك شتريد تسوي لو شتريد تكون.

قطعتُ عليه الخط مستجمعاً كل غلظتي، تركته معلقاً يتجرع حيرته

وخذلانه وحيداً كما كان وسيبقى. لم يكن في نيتي تكبد عناء الشرح، لم أكن لأقوى على إظهار حتى الجزء البسيط من هذه المشاعر والآفات الحسية التي تعتمل فيّ مرة واحدة، كما انه من السفه محاولة تفسير تصميم روحي التي اعتلّت لابن خالتي الذي غادرنا طفلاً بينما انا اتواصل معه عبر الأثير فقط. كيف أخبره مثلاً انني لم أصنع لنفسي ولو جزءاً من تأريخ لأعانده أملاً في صياغة مستقبل أفضل، وأنني خاوٍ، داخلي فارغ لا تتجمع فيه سوى كتل من العقد والآلام النفسية التي تعلمتُ جيداً كيف أستخلص منها المشاعر القاسية والسلبية وغير المبالية وتناسيتُ بفضلها كيف أرسم بسمة أو افتعل فرحة. لا مكان في السويد لمن يمتلك ما في دواخلي فتلك البلاد الجميلة والمدن الهانئة لاتناسب طبيعتي لأنني مخلوق لهذا الوطن الأعور.

ربما تكون العاصمة بغداد قد شهدت مطراً خفيفاً قبل أن أصلها، فقد كان صباحاً خريفياً مبللاً بالندى من العام ١٩٩٣ هو ذلك الصباح الذي وصلت فيه عائداً في إحدى سيارات «الجي ام سي» الكبيرة من عمّان اذ كان مستحيلاً ان اعبر إلى العراق عن طريق سوريا مباشرة. أوصلتني السيارة حتى مكتب السفريات في الصالحية وقد كنتُ آخر من هبط منها بعد الرجلين والثلاث نساء الذين شاركوني الطريق من عمّان. لم يكن في حوزتي سوى حقيبتي القماش المهترئة التي كنت قد وضعتها خطأً على الأرض في اثناء الرحلة فابتلت وبللت متاعي التافه وكان الماء قد ترك بقعة كبيرة قذرة عليها فوجدتُ نفسي أقذفها عني ما ان وطأت قدمي أرض بغداد، وسرت بنشاط أبحث عن «كوسترات الأجرة» المتجهة إلى العلاوي ثم غيرت رأيي بسرعة واخترت ان أمشي المسافة بدل الركوب. والغريب انني لم أكن مندهشاً من ذاتي وانا أحملها وأعود بها إلى موطني الأصلي، إلى البيت الذي انتقلنا إليه وانتقلت معنا فيه

أشباح دارنا القديمة كأنه مقدرٌ لنا ان نوصم بتهمة الجن والعفاريت ما حيينا، كما ورد في كتب الشيعة والسنة معاً «الأكراد نفر من الجن كشف عنهم الغطاء»، ورغم السخرية التي كان يثيرها في نفسي حديث كهذا يدعوني لكي ألعن التراث وأكفر بكل ما فيه، وجدتني أتخيل نفسي شبحاً بالفعل وانا اسير في شوارع العاصمة متخففاً من متاعي واضعاً كفيّ في جيبي بنطلوني الذي صار قديماً ومترهلاً بعد أن فقدتُ الكثير من وزني، وأفكر في خاصيتي كشبح تطّبع مع الأشباح منذ نعومة أظفاره، تلك التي لوحت جباهنا بلمحة من وجودها القسري في حياتنا فأخذنا بعضاً من تفاصيلها ربما حتى دون أن ندري أو نشعر بذلك. ألستُ انا الذي يظهر ليُلعن فيختفي مثل شبح؟ انا الذي تحيّن الفرص للأفول كأنني ذلك القمر الذي لم يلبث طويلاً ليقنع العابرين بكونه إلهاً جديداً. كنتُ ذلك «الإفرار» الذي راوغ الحرب والحب والنساء والأسرة دون أن ينجح أي منهم في القبض على طيفه الهلامي اللزج الذي كان يرحل عنهم تاركاً أثراً سيتلاشى من تلقاء نفسه. انا الذي عُميت عنه عيون رجال الأمن لسنوات على الرغم من الملامح الكردية الواضحة دون أن أثير اهتماماً أو حتى تساؤلاً، انا ذلك الفتى المقاوم للحروب بشراسة حتى انني لم أخدم كمقاتل إلا بعد أن طالت الحرب عن مقاومتي وأجبرتني عليها بالإكراه وفصلتني عن الدنيا بجدران من الرصاص والبارود قامت بيني وبين الحياة، فكنتُ ذلك الجني الذي انضغط على ذاته الكبيرة في قمقم صغير. انا الرجل الذي عاش عمره دون حبيبة حقيقة فكانت كل حبيباتي جنيات اناجيهن ليلاً اقرأ لهن الشعر واروي القصص التي لم تكن تدهشهن ولو لوهلة بل ربما سخرن مني ومن شِعري وقصصي إذ كنتُ بذاتي ككيان سيحلّ ثم يرحل سر دهشتهن. وها انا ذا مثل جنيّ يعود إلى قطيع الأشباح السائرة إلى عملها

اليومي بجدّ، أعود إلى موطني الذي لا يناسبني وطن إلا هو، امشي بين جموع الناس في صباح بغدادي ندّي يصيبني بانتعاش نادر على غير عادة هذه المدينة المختنقة بغبار المعارك المنتهية الصلاحية. ها انا ذا، أجد نفسي أخيراً منفذاً قرار العودة إلى حيث أنتمي مكفراً عن رغبة غير معقولة بالهجرة. وما ان وصلتُ إلى «العلاوي» وشاهدت عدداً من الناس يتجمعون حول «چمبر» قذر لامرأة تصنع افطاراً عراقياً دسماً رغم انف الحصار الذي كان يعاني منه البلد، حتى هتف في داخلي هاتف لصوت نسائي سألني بلكنة كردية شبه جبلية:

ـ ما رأيك بإفطار من هذا؟

وقفت لأراقب المرأة التي جلست بعجيزتها الكبيرة على «تنكة» صغيرة، إلا أنها رغم ذلك كانت تبدو ثابتة لا تتمايل ولا تفقد توازنها كأن قطعة الحديد الصدئة تلك مغروسة في مؤخرتها بينما هي تعمل بنشاط وهمة على قلي «الفشافيش» مع الطماطم والبصل وهو الخليط الذي كانت تحشره في قطعة «صمون» لم تكن لينةً تماماً. كان الحصار قد عودنا على أكل كل ما تجود به الطبيعة ولا سيما الحيوانات التي صرنا نأكل أمعاءها وفضلاتها التي لم تكن تعنينا كشعب مترف في أزمنة الخير القديمة، وبما اننا شعب اعتاد على الأكلات الدسمة في إفطاره منذ أزل وجوده ربما، فاننا لذلك بتنا في زمن الحصار نأكل «الفشة» وهي رئة الحيوان التي عادة ما كانت تُرمى إلا أنها لم تعد تذهب هدراً في تلك الأيام العصيبة فصار يُصنع منها ما يُدعى «بالفشافيش». وجدتني أجيب الهاتف في داخلي بعد أن فكرتُ قليلاً:

ـ افضل الإفطار عند أمي، پري العنيدة كم اشتقتها. لا بدّ أنها ستفرح بعودتي وتعد مأدبة على بساطتها ستكون أرقى من هذه.

سمعت فتىً ينادي: «ثورة، چوادر، ثورة، چوادر»، فقفزت بسرعة

في «الكوستر» الذي كان يدلل عليه وجلست بالقرب من النافذة المفتوحة التي سهلت لنسمات الصباح العليلة لطم وجهي كأنما لتوقظني من سبات طال شهوراً. انتظر السائق طويلاً لتمتلئ سيارته الصغيرة بالركاب وقد اضطر أخيراً ان يتحرك بها قبل أن يكتمل العدد كلياً، منطلقاً «بالكوستر» عبر شارع العلاوي ثم منحرفاً بعد ذلك يميناً في شارع حيفا ثم يساراً قاصداً جسر الأحرار مخلفاً الكرخ وراءه في طريقه إلى الرصافة، وكان سيستمر في طريق مستقيم طويل حتى «ساحة المظفر» التي كنت سأهبط عندها وأمشي إلى بيتنا في «حي جميلة». حين صعدت السيارة على الجسر الذي كان نهر دجلة يجري من تحته شاقاً بغداد إلى نصفين نظرتُ إلى يساري متأملاً فقد كانت كل الأمكنة الحبيبة إلى قلبي تقع في ذلك الإتجاه، شارع الرشيد وشارع الكفاح وشارع النهر، والدهانة حيث بيت جدي القديم، كل تلك الأمكنة المغرقة في بغداديتها وشعبيتها الخالصة ولا سيما شارع المتنبي الأثير إلى قلبي كانت تقع في ذلك الإتجاه، ولما تذكرتُ شارع ابو الطيب وجدتني استرجع قوله كأني أخاطب به بغداد التي رجعت إلى حظنها قبل أن أهجرها بقليل:

هبيني أخذتُ الثأر فيكِ من العِدى ... فكيف بأخذ الثأر فيكِ من الحُمّى
وما انسدت الدنيا عليّ لضيقها ... ولكن طَرفاً لا أراكِ به أعمى

وما ان هبطنا إلى الرصافة حتى صادفنا ازدحام شديد من عند تقاطع شارع الرشيد وحتى ساحة الوثبة فصارت السيارة تسير ببطء وقد غالبتُ مللي بترديد المزيد من ابيات المتنبي ومراقبة وجوه الناس، وقد لمحتها في تلك الأثناء بين جموع العابرين من قبل أن تهبط بنا السيارة الكوستر الي الرصافة دون أن أميزها في البدء، كأنها كانت قد بُعثت من الماء،

من نهر دجلة الذي قيل بانها قد غرقت فيه. كانت تتخفى بين الناس كأنما دون أن تتعمد، ثم لما بانت بلباسها الأحمر الصارخ عرفتها مباشرة من صورة قديمة لها احتفظت بها أمي، وتأكدت بأنها هي مستعيناً بغريزتي. يا للموت الوفيّ الذي لم يغير ملامحها ولو قليلاً بل حافظ على نضارتها وشبابها على عكس الحياة التي غيّرت منّا الكثير وسلبت منا الكثير وتركتنا ونحن في عز سني شبابنا الثمين خيالات مجردة امتُصت منها الحيوية والبهجة. والحق انني لم افاجأ بها، حتى انني لم اشعر بوخزة في قلبي حال ان سرقت لحظي، بل وجدت نفسي ابتسم لها ثم ارفع ذراعي لأحيي طيفها الكردي البالغ الأناقة وجمالها الأخاذ الذي انشرح له قلبي حتى نسيتُ لوهلة أنها خالتي وانها مجرد شبح. ولمّا تحركت بي السيارة بسرعة أكبر بعد أن فتح أمامها الطريق، انتقلت ذراعي إلى جبهتي في شبه تحية عسكرية فالتفتت هي اليّ من بين جموع الناس الذين ازدحم بهم الشارع، أولئك ذوي الوجوه المرهقة التي حكّتها الحياة تاركة آثار بصماتها القاسية على جباههم المتعبة، ثم افتر ثغرها عن بسمة لا أظن باني سانساها ابداً. ميمي قسمت!

اكرم

إنه صباح الثلاثاء، التاسع من شهر «تير» سنة ١٣١١ أما في أغلب بقاع العالم فإنه الثلاثون من شهر يونيو سنة ٢٠٠٩. استيقظت مرهقاً بعد ليلة كتلك، حتى أنني كدت أنسى التفاصيل الأخيرة للأحداث التي سبقت سقوطي في نوم عميق حاولت انتشال نفسي منه بصعوبة بالغة. كنت عارياً ومتعرقاً وقد فاحت مني ومن الفرش التي أنام عليها رائحة الأجساد المخمرة بالعفن، تلك الرائحة الناتجة عن امتزاج العرق واللعاب معاً والتي كانت قد بللت الفراش وتركته رطباً والتصقت به بشرتي العارية. ثم هذه المرأة المتوسطة الجمال التي كانت تنام بجانبي كأنها تمنّ على العالم بنومتها المحايدة بعد ليلة صاخبة، رائحتها فيها ما يذكّر بالزيتون والقرفة ممتزجتين معاً فبدت وكأنها تحاول الإغراء والإثارة بهذا الشذى الحاذ والبدائي رغم أن عطرها كان يمل مباشرة ما أن ينتهي المرء منها. تناولت هاتفي لأطالع فيه الساعة آملاً أن يكون هناك متسع من الوقت لمعاودة النوم مجدداً لكنها كانت قد تعدت العاشرة ببضع دقائق فقفزت من الفراش مباشرة لكي لا أفوت التظاهرة التي كانت ستنطلق من ميدان «هفت تير» باتجاه ميدان «ولي عصر»، وكان عليّ أن اتخلى مبدئياً عن حمامي الذي يستغرق في العادة ربع ساعة محاولاً الانتهاء منه في دقيقتين فقط، حتى انني بعد أن اغتسلت

وارتديت ثيابي على عجل لم أودّع «بانو» التي عبّرت بالأمس عن رغبتها التي لم تكن شديدة في مشاركتي تظاهرة اليوم فتركتها نائمة وغادرتُ شقة أسرتها التي تسكن خارج البلاد بحذر ألا ينتبه لي أحدٌ من الجيران. في مفارقة غريبة بعض الشيء فإن الشقة تقع في «كوچه نادر» هنا في العاصمة طهران، أي أنها قريبة جداً من متحف الدكتور «علي شريعتي» الذي تحب بانو مؤلفاته وأفكاره حباً ترفياً فيه الكثير من الرغبة بالتمنظر الثقافي ورشّة خفيفة تحاول إضفائها من بهاءِ معرفي لم يكونا مناسبين لشخصيتها ذات البعد الواحد، لا سيما وهي تحشر شخصيتها تلك في جسد ملطّخ بالألوان الصاخبة بدءً من شعرها ذي الصفار المشع المقلق للعين والذي كانت تكشف عن نصفه تماماً من تحت حجاباتها ذات الألوان الزاهية، وانتهاءً برتوشها الصغيرة من عدساتها الملونة إلى أظافرها الطويلة المطلية بلون برتقالي فاقع لم يكن مناسباً للون بشرتها الحنطية. بمظهر دالٍ كهذا لم يخطئها حدسي حتى وهي تحاول الظهور على عكس طبيعتها مزاحمة كلامها ونقاشاتها المتناقضة الباهتة بابيات يعرفها القاصي قبل الداني لسيمين بهبهاني وفروغ فرخزاد. وقد حزرتُ بسرعة ان ادعاءاتها الثقافية تلك محض رغبة في التقرب مني ليس لأن شكلي يوحي بها بل لأنها باتت موضة واكسسواراً جديداً للسطحيات من فتيات هذا الجيل في طهران بالذات. والحق ان الحابل اختلط بالنابل بالفعل فصرنا نميّز بصعوبة الجادات في سعيهن من فتيات هذا الجيل اللواتي كان وعيهن الثقافي ينشط ويتمدد على نحو مثير، فقد كن يقرأن في الأدب والسياسة والتاريخ مستعينات بالانترنت الذي تعلمن فك شيفراته ليلجن بسهولة إلى عوالمه الممنوعة، متخطيات الرقابة الصارمة التي تفرضها الحكومة على المواقع الالكترونية، في رغبة محمومة منهن لفهم حاضرهن المتأزم في بلد متزمت نشأن فيه جيلاً لم يعش سوى

إيران ما بعد الثورة التي يحاول الانعتاق من أحكامها المتشددة قدر ما يستطيع. لكن بانو وكما اتضح لي ذلك منذ البداية لم تكن قطعاً من أولئك الفتيات، وقد تخلت عن دورها الثقافي المدّعي عن طيب خاطر مع تخليها عن أول قطعة من ثيابها، ثم تجردت منه تماماً بعد أول ممارسة عنيفة للجنس.

كانت الشقة حيث تعودنا ان نلتقي انا وبانو ملكاً لأسرتها العريقة منذ زمن ما قبل الثورة، فمالكو الشقق السكنية في هذه المنطقة قديمون غالباً حتى أن بعضهم قد سكنها لأكثر من أربعة أو خمسة عقود تماماً مثل أسرتها التي هاجر عميدها ـ جد بانو. إلى ألمانيا مباشرة بعد الثورة تاركاً هذه الشقة لمن بقي في البلاد من أبنائه ومن ثم أحفاده من بعده، حتى جئتُ أنا لأنام مع حفيدته الشبقة فيها. وبما أنني كنت متأخراً فكرت بدل أن التحق بالمتظاهرين في ميدان هفت تير، أن أنظم إليهم حيث سينتهون عند ميدان ولي عصر، فسرتُ عبر شارع «دكتور فاطمي» بمحاذاة «پارك لاله» آملاً في ايجاد وسيلة توصيل سريعة، وكنتُ تظاهرةً بذاتي وأنا أمشي في شوارع العاصمة طهران وقد ربطتُ خرقة خضراء حول رأسي وأخرى لففتها حول معصمي. منذ بداية الانتخابات وما تبعها من أحداث محمومة والناس قد قسِّمت إما إلى «سبز» أو إلى أي لون أو شيء آخر غير الأخضر ولذلك كنت أثناء مسيري في الشارع أسمع الطرفين يصرخان بي، طرفٌ يبدي امتعاضه بشكل بيّن معتبراً أن في نية أمثالنا خراب البلد، بل قد يسترسل في خطبة سريعة مؤكداً أننا سبب خراب سمعة الإمبراطورية العظمى التي كانت قبل ألفي عامٍ ملء السمع والبصر في مزج غريب بين تعصبه العرقي وانتمائه السياسي والديني، بينما الطرف الآخر يمجدنا ويشد من أزرنا لرغبتنا التغيير والإصلاح والحرية. ولم يكن أي من إخوتي يشجع رغبتي وانخراطي

في التحشيد للتغيير قبل الانتخابات ثم ما أعقبها من أحداث وتظاهرات فقد كانوا جميعاً يبدون قلقهم عليّ وعدم اكتراثهم لأحوال وسياسات البلد بقدر اهتمامهم بسلامتي. قال لي لؤي عبر الهاتف بلغته العربية التي حافظ عليها جيداً في منفاه:

ـ شلك بيها هاي السالفة، هذا مو بلدنا حتى تحاول تصلح حاله لو تغيره. أنت شعليك!

أجبته بالكردية:

ـ وهل ذاك الذي ركلوك منه على حين غرّة يعدّ بلدك؟

أصرّ قائلاً:

ـ لا ذولة ولا ذولاك يحترمون بشر. إذا ما عاجبك الوضع هناك دبرلك طريقة وتعال يمي.

لم تكن هذه أول مرة يدعوني فيها إلى السفر والهجرة وترك البلاد بمن فيها فقد كان مؤمناً تماماً بفكرة الرحيل عن هذه التي وصلتها في الرابعة من عمري مسفّراً من العراق بعد أن هجّرت أسرتنا منه بحجة التبعية الإيرانية. كنت قد ولدت في بغداد سنة ١٣٥٤ اقصد سنة ١٩٧٦ الأصغر بين خمسة من الذكور واسمي الحقيقي هو أكرم. حين أخبرت بانو بذلك ابتسمت وهي تنظر إليّ باشتهاء ودون أن تتعجب من القصة المثيرة قالت بنبرتها الهادئة وصوتها المشروخ الذي يصدر رنيناً شبيهاً بضوضاء بيضاء:

ـ اى واااى، ليتك أبقيت على اسمك، كنت ستبدو أكثر إثارة وأنت تحمل اسماً أنثوياً.

لم أكن وأنا في الرابعة مسؤولاً عن اختيار اسمي، وسواء أبقيه أم أغيره لم يعد ذلك مهماً بعد أن بات لكلا الاسمين من شخصي نصيب،

سيما وأنه لا أفضلية لأي منهما على الآخر عندي. ثم إن التلاعب بالأسماء على هذا النحو كان فعلة والدي التي غفرتها له متجاوزاً الكثير من عثراته كأب، على عكس إخوتي الذين حملوا في دواخلهم ضغائن مريرةً تجاهه. نشأتُ دون أن أشعر بالتحول المفاجئ الذي أصاب حياتنا بسبب صغر سني في حينها فكبرتُ مع الاسمين واللغتين والثقافتين بل وحتى العداء بين البلدين حملته في قلبي هجيناً فبررت للاثنين معاً وسخطت على الاثنين معاً ثم أخيراً أهملت الجانبين لمّا تأكدت ان الضغائن لن تجلب سوى الخيبات والوجع لقلبي. بين إخوتي وأمي الذين كانوا يتحدثون العربية بلهجة بغدادية ووالدي الذي يتعمد لكنته الكردية الجبلية كبرتُ ناطقاً للغة العربية والكردية معاً ثم الفارسية بطبيعة الحال، وربما نالت اللكنة الكردية قليلاً من لفظي العربية إلاّ أنني هضمتُ المحكية العراقية بكل توابعها ومنكهاتها من حس الفكاهة والسخرية إلى مفرداتها المغرقة في العامية، تلك التي جاء بها إخوتي الي هذا البلد حاملينها مخبأة في صدورهم مثل عصافير زينة لا تنوي الإفلات من أسرها. من بين إخوتي جميعاً كنتُ أنا الأكثر تقبلاً للواقع فكلهم عانوا من الاختلاف والانقلاب المفاجئ لحياتهم، حتى ليث ومؤيد اللذين نجحا في التأقلم أخيراً حدث ذلك لهما بعد سنوات طويلة من التخبط والمراوحة في المكان وقد تزوج كل منهما منذ وقت قريب أي بالكاد قبل أن يفوتا قطار الزواج، بعد أن استقرا في وظيفتين حكوميتين خارج المدينة منذ زمن. أما لؤي وسرمد فقد هاجرا منذ سنوات ولم يعودا مطلقاً ولا حتى من أجل الزيارة، وقد انتهى المطاف بلؤي في السويد منذ بداية التسعينيات وتبعه إلى طريق الهجرة سرمد بعد سنة قاصداً روسيا حيث يسكن خال لنا اسمه مصدق كان قد هاجر إليها هو الآخر في مطلع الثمانينات، غير أن سرمد لم يلبث أن اختفى تماماً

حتى أن الخال مصدق اتصل يسأل إن كنا على علم بمكانه لأنه ذاب فجأة من دون ترك أثر. بعد خمسة أعوام طويلة اتصل سرمد أخيراً ليخبرنا ببرود أنه يسكن مدينة في شرق روسيا وقد تزوج من امرأة روسية وأنجب طفلاً أو إثنين وأنه غير قادر على التواصل أو الزيارة لأسباب قاهرة حسب ما وصفها، ثم عاد ليغيب مرة أخرى ويظهر كل سنتين أو ثلاث ليطمئِن أمي عن أحواله ثم يحتجب، ولعله بقي على اتصال بلؤي في منفاه السويدي إلاّ أنه في ما يخصنا نحن كأسرة فقد اختار الابتعاد وتحين الأسباب ليقطع صلته بكل ما له علاقة بعالمنا. بخلافه كان لؤي ملتزماً بالتواصل ولا سيما بأمي التي كانت قد تعايشت تماماً مع فكرة هجرتهما وتقبلتها بصدر رحب ربما لأنها لم تكن تحبذ وجودنا هنا من الأساس، بل أنها تعاملت مع اختفاء سرمد وابتعاده ببرود غريب لا يتناسب وصفتها كأم، كأنها مطمئنة وغير قلقة. ودائما ما ردد والدي بأنني الوحيد من بين أولاده الذي ورث طبع أمنا البارد، وأذكر انني رددت عليه مرة بأن طبعي لا علاقة له بأمي فهو مكتسب وقد تطبعت به من معاشرتي للإيرانيين المشهورين ببرودة أعصابهم، لأفاجأ به يصرخ بنبرة قوية أفزعتني:

- هؤلاء الذين تعاشرهم في إيلام كرد. كرد يا فتى، دمهم حام، وليسوا باردين كالعجم. أما أنت فبرودك يماثل ذاك الذي عند أمك فقد ورثت برودها وقلة إحساسها.

لم يكن كلامه يؤثر فيّ أو يزعجني بقدر ما كان طبعه صعب المراس يضايق إخوتي الذين ابتعدوا عنه جميعاً وهجروه في أواخر سنيّ حياته. كنتُ أهمل كلامه القاسي وأحاول بخبث النيل من رضاه وبذلك نيل قبوله وما في جيبه معاً، فكنت المستفيد الوحيد من ثرائه ولو قليلاً. أما البقية من إخوتي فكانوا يزدرونه لبخله وقسوته وعنفه مذ كان يقفل على

المقصر منّا الباب وينهال عليه بحزامه، وإن لم يحدث ذلك معي إلاّ مرات قليلة لأني كنت أتجنب اغضابه قدر استطاعتي لكنه تكرر كثيراً مع إخوتي الإكبر سناً حتى أجبروه على التوقف بعد أن شبوا وصاروا يواجهونه بقوة وصلابة فلا يسمحون له باهانتهم أو ضربهم. حدث ذلك بالأخص بعد أن اعتدى على لؤي حين وجد عنده أشرطة ممنوعة كان قد نبهه أكثر من مرة أنها غير مسموح بها في البيت لما يمكن أن تسببه من متاعب إذا ما علم بها أحد، رغم أنها كانت مجرد أشرطة لأغاني أجنبية اعتاد لؤي تبادلها مع أصدقاء له. وقد عثر عليها والدي في واحدة من نوباته التفتيشية لغرفنا فحطمها جميعاً. أخرج قلوب الأشرطة من صدرها وكورها كلها في كومة كبيرة ووضعها فوق سرير لؤي الذي كان خارج البيت في حينها، وقد جن جنون المسكين عندما عاد ليجد أشرطته العزيزة متلفة بهذا الشكل الصارخ فهاج وماج وركل ولكم الحيطان والأبواب بينما أمي تحاول تهدئته عبثاً. وحين سمعه والدي جاء إليه ثائراً وهو ينزع حزامه عن خصره ليوجهه إلى لؤي الذي لم يستسلم بل قابله بوجه محمر يكاد يختنق من العصبية وقد نفرت عروقه وإحمرت عيناه بشدة، ثم في لحظة غضب وطيش وجّه ركلة كادت أن تصيب أبي في صدره لولا أن حال بينه وبين ذلك مؤيد في اللحظة الأخيرة فأخطأه. وربما يكون والدي قد شعر بحرج مما شهدناه جميعاً لأنه اضطر للتراجع أمام ثورة لؤي ولا سيما طيشه وشبابه في ذلك الحين اللذان كانا سيمليان عليه تصرفات لن تلائم مكانته كأب، فكان أن توقف تماماً عن عقوباته العنيفة وصار يكتفي بالشتائم والبصاق والهمهمة كلما أراد أن يبدي استياءه. والغريب أنني أسمع ممن حولي ولا سيما عمة والدتي العجوز قيم التي تسكن عندنا منذ وفاة جدي وجدتي، بأن والدي كان عكس ما أعرفه تماماً، إذ تقول بأنه كان حنوناً، محباً وكريماً لكنه فقد

توازنه مذ جردوه من حياته ليسفروه إلى بلد غريب عنوة. كنتُ دائماً ما استفسر من أمي عن الحياة التي عاشوها قبل أن أوجد، عن تلك الأيام التي لم أكن واعياً فيها بما يكفي لكي أشعر بحب مشابه لحبهم الكبير لوطن نبذهم، ترى كيف كانت حياتهم هناك، وكيف كان شكل أبي وهو يتمتع بصفات يصعب عليّ تصديق أنها كانت فيه! فالمحبة والحنان والتعاطف مفردات شحيحة في بيتنا ولا تناسب نفوسنا التي تربت جلفة ومتخشبة ومتداعية من إثر الانكسارات والشتات. ورغم ذلك فانني أذكر مرة واحدة فقط شعرت فيها بحنان أبي الجارف مثل أي والد محب وفخور، حدث ذلك حال عودتي من البطولة الآسيوية للتايكوندو في العام ٢٠٠٢ حيث عدت بفضية الوزن المتوسط في تلك السنة. وحين احتضنني مقبلاً رأسي باعتزاز شعرت لأول مرة بفخره وحبه اللذين لم يخطئهما إحساسي في حركة لم يكررها أو يفعلها من قبل، رغم أن تلك لم تكن أول بطولة أشارك فيها ولا أول ميدالية أعود بها. وقد أخبرتني أمي أن والدي مر مصادفة في الصالة التي كانت تجتمع فيها مع ميمي قيم وليث ومؤيد، حيث كانا يأتيان لزيارتها والغداء عندها في بعض أيام الجمع، ليشاهدوا التلفاز الذي عرض مقاطع قليلة من نزالي الأخير فسمع والدي عرضاً ذكر اسمي ما جعله يلتفت إلى التلفاز بدهشة كأنه لم يعرف أو يهتم لسرّ تغيبي عن المنزل برغم شغفي برياضة التايكوندو التي عرفت به منذ نعومة أظفاري، يقولون ان والدي فوجئ ووقف لثوان يتابع الشاشة باستغراب حين سمع اسمي، «الحاصل على الميدالية الفضية كامران كاكه زاده»، ثم جلس على الأرض مستنداً بظهره إلى الحائط ونهر مؤيد لكي يبتعد عن التلفاز فلا يحجب الرؤية ثم بعد انتهاء الخبر سأل عن أوقات إعادة الأخبار الرياضية وحرص على مشاهدتها مرة أخرى. ولم تكن تلك الحادثة وحدها ما يميز تلك البطولة ففي تلك

السنة بالتحديد كان العراق حاضراً للمرة الأولى بعد أعوام طويلة من المنع، وكان أمراً غريباً بالفعل أن التقي الوفد العراقي وأراقبهم بحرص وهم يغدون ويروحون بألبستهم الرياضية الرثة ووجوههم التي كانت قد انهكتها حربٌ أخرى تلاها حصار طويل، بينما كنّا نحن قد وذعنا الحرب التي جمعتنا وإياهم وتجاوزنا الكثير من متعلقاتها خلال الأربعة عشرة عاماً التي أعقبتها حتى ذلك الحين، وصرنا نعارك أموراً أخرى كلياً أغلبها متعلقٌ برغبتنا الجامحة في التعرف إلى الحريات والإنسلاخ عن الهوية الواحدة التي تحاول الجمهورية الإسلامية دمغنا بها. كان غالبية اللاعبين في الوفد العراقي يتحاشون الاصطدام بنا نحن بالذات وعلمت فيما بعد أن وفدهم كان أغلب كادره الإداري من المخابرات وقد تلقى اللاعبون تعليمات بألا يقتربوا من وفدنا مطلقاً. صاح أحدهم ذات مرة ما أن دخلنا إلى قاعة الطعام:

- إستلم. إجوا الفرس المجوس خوات القحبة.

لم ألتفت، ولم تبدر مني أية حركة تعلمهم أنني أفهم كلامهم وأنني في الحقيقة كان يفترض بي أن أكون بينهم لولا تلك الانعطافة المفاجئة التي اتخذها طريق القدر فغيّرت مسار حياتي كلياً. أحياناً لم أكن أخفي ابتساماً وأنا أشاهد عبثهم وروح الفكاهة العجيبة التي يتحلون بها فأفتعل سبباً مع زميل لي كي أضحك، وقد عودت نفسي ألا أشعر بالإهانة أو الضيق من الشتائم التي كان كلا الطرفين يكيلانها إلى بعضهما بشكل علني معتمدين على عدم فهم لغة الطرف الآخر، كأنني غير معني بأي منهما وملتزم الحياد التام مدعياً البرود وعدم الاهتمام. وأخيراً حين جمعتني مباراة مع متسابق من الفريق العراقي وجدته يقول مسمعاً من معه:

- اليوم أ... أخته اليوم.

فكان أن رددت عليه بسرعة:

ـ يا هو بيهم الصغيرة لو الكبيرة؟

وعالجته بركلة طرحته أرضاً قبل أن يفيق من المفاجأة التي شلّته لثوان كانت كافية لأتجاوزه بسهولة وعين عقلي معلقة على المتسابق الكوري. بعد المباراة وجدته يبحث عني خفية ليجرني إليه جراً ويحتضنني بحرارة وخوف شعرتُ أنها تضمّنت لهفة بُعد اثنين وعشرين عاماً قضيتها مواطناً مغترباً في بلد عُد بلدي ولم يكن كذلك. ثم التف حولي اثنان آخران احتضناني وابديا سعادتهما بمعرفتي ولقائي، رغم أنهم جميعاً كانوا يتحدثون همساً ويتصرفون بحذر مبالغ فيه. قلت لهم ضاحكاً وانا على وشك ان افارقهم:

ـ يعني لو ما مسفريني قبل اثنين وعشرين سنة، كان هسه انتوا الفايزين.

شهور قليلة مرت على تلك البطولة شنت بعدها الولايات المتحدة الأمريكية حرباً أخرى على العراق لتهيء لمرحلة جديدة من الخراب. تسمرنا في تلك الأيام حول التلفاز نشاهد تطورات الحرب التي مرت سريعة حتى سقطت مدينة بغداد في نهاية المطاف. كانت أمي وميمي قيم تبكيان وتمسحان الدموع التي سالت غزيرة وهما تشاهدان صور الخراب التي حاقت بالمناطق التي كانتا تتعرفان عليها عبر الشاشة، وكان القلق قد بدأ ينهشهما على اهلنا المتبقين في العراق حيث ما من فرصة لمعرفة أخبارهم. أما ابي فتابع الأخبار باهتمام عبر الراديو وهو ممدد على أريكته المفضلة، تبدو في عينيه نظرات قلقة يطردها بين الحين والآخر ليقول بعربيته التي كانت تزداد سوءاً وركاكة مع السنوات، كأنه يود ان يسمّع من شمت في تهجيره:

ـ نارهم تاكل حطبهم، ليش احنا من نهبونا وسفرونا ما النا حوبة! هاي ارادة الله وعقابه. من حرب لحرب ومن نكسة للثانية.

فردت عليه أمي بعصبية وهي تمسح دموعها:

ـ عفية قلب شقد أسود! خلّي الله بين عيونك هالعالم والأطفال اللي دا تموت وتتذبح ما الها ذنب باللي صار بينا!

وكان ذكره الله في موقف كهذا أمراً مثيراً للشفقة قبل العجب، فهو لم يكن مثل البقية من الرجال في سنه ممن يبسملون ويحوقلون كثيراً حاشرين ذكر الله في كلامهم بين الفينة والأخرى، بل إن والدي الحاج مجيد كما بات يلقب في أواخر سني حياته لم يحاول تبني اياً من مظاهر التدين التي يتلبسها الرجال في مثل سنه من حمل مسبحة أو إطلاق لحية لا سيما حين يتوبون إلى الله بعد حياة حافلة بالعربدة والملذات. لكنه لم يكن متطرفاً حتى في عدم التزامه وبحسب ما تؤكد أمي فإنه لم يرتكب فعلاً أو جرماً محرماً بيّناً كأن يسكر أو ان تمتد يده لحرام ليس له، وقد صنع ثروة كبيرة في العراق كلها كانت من عرق جبينه ثم صنع أخرى في إيران أيضاً بعصاميته وبخله الصارمين، إلا انه في مقابل حرصه الشديد على أن يكون ماله حلالاً لم يركع أو يسجد في حياته قط، وقد صار يلقب بالحاج لتقدمه في العمر وليس لأنه قد أدى فريضة الحج بالفعل.

في السنوات الأخيرة من حياته بات يزداد غلظة وحدّة حتى انني بعد تخرجي من الجامعة واعتزالي التايكوندو، ارتأيتُ ان اهرب انا الآخر من بيت الحاج مجيد بعد أن سبقني إخوتي جميعاً لذلك. حتى ليث الذي تعود والدي معاملته بشيء من الحنو وبقسوة أقل كان يحرص على زيارة أمي في الوقت الذي يكون فيه والدي بعيداً عن المنزل كي لا يصطدم به أو يضطر إلى التجادل معه لسبب أو لآخر. وكان العمل في

ايلام فضلاً عن العيش فيها قد بات أمراً شبه مستحيل بالنسبة لنا نحن الإخوة، إذ لم يكن في المدينة من يرغب بتوظيف أي من أبناء مجيد كاكه زاده، فهو مبدئياً لا يعد شخصاً محبوباً بين أهالي إيلام ثم اننا في عرف اهل المنطقة لا زلنا نعد عَرباً أغراباً عن المدينة مهما لبثنا فيها وكثير منهم ما زال يذكر حالنا الرثة مذ قدمنا إليها شبه معدمين، ثم فجأة كنا أولئك الذين سكنوا البيت الكبير المطلّ على الميدان الوحيد في المدينة والذي صاروا يلقبونه ببيت العرب. اسماؤنا صعبة النطق سرعان ما تغيرت لكنهم لم ينسوا ابداً اننا حين جئنا كانت لنا اسماء مختلفة، ثم إنهم لن يغفروا «للعرب الاغراب» ان يمتلك رب اسرتهم في فترة قياسية أكثر من نصف عقارات المدينة، ولهذا فإن محاولاتي واخوتي التقديم على وظائف حكومية بسيطة كانت تعد موضع سخرية، حتى ان أخي مؤيد ذكر موقفاً حدث معه بعد أن تقدم لوظيفة حيث قابله موظف شبه مرموق ضحك بخبث كاشفاً اسناناً كبيرة صفراء ليقول له بتملق مهين:

- «آقاى كاكه زاده»، من في مثل ثرائكم ليس بحاجة إلى وظيفة حقيرة كهذه، لطفاً لو تكرمتم بترك المجال للمعتازين الجادّين من الشباب!

من حظنا اننا جميعاً قد ولدنا ذكوراً والا لما تمكنا من الهرب من كنية «كاكه زاده» التي باتت لعنة تلاحقنا اينما حللنا. وبالمقارنة مع اخوتي فقد كنتُ أعد أكثرهم حظاً لأن الرياضة استهلكت جلّ وقتي مذ تعودت قضاء أيام طويلة في معسكرات تدريبية في مدن الشمال البعيدة أو حين كنت أغيب في رحلات خارج البلاد، ولولا ذلك لكنت ربما اصطدمتُ بوالدي تماماً مثل البقية منهم، وعلى الرغم من الهدوء وطول البال اللذين أتمتع بهما إلا انني قطعاً لم أكن سأحتمل تأففه وعصبيته الزائدة، لا سيما حين كنتُ أقترب من عقدي الثالث حيث لم تعد صفة

أصغر الأولاد تعيننني على تصنع البلاهة وعدم الفهم كلما واجهني بطلباته غير المعقولة أو وصلات تذمره التي كان يمكنه الاستمرار فيها لأيام طويلة مثل نوبة اكتئاب حادة تتلبسه فلا يعود يطيق حتى شعر حاجبيه، فنجده يصب جام غضبه ويأسه من الدنيا علينا جميعاً دون استثناء. لأجل ذلك كان لا بدّ لي ان ابتعد واخترت طهران العاصمة الكبيرة والمكتظة لأذوب فيها وانزوي عن اسرتي وتأريخها المتعب قدر استطاعتي بعد أن حصلتُ فيها على وظيفة جيدة وان كانت بعيدة عن تحصيلي الدراسي ضمن كادر رياضة التايكوندو التي باتت في السنوات الأخيرة واحدة من أهم الرياضات في البلاد. غير انني ومثل البقية من إخوتي بل والبقية من رجال اسرتنا الممتدة تأخرت عندي الرغبة بالزواج وانشغلت عنها طويلاً، ورغم ذلك كدت أقع في فخ الزواج قبل أن أفسخ خطبتي من فتاة عراقية الأصل كانت مثلي من أسرة مسفرة. حدث ذلك قبل أقل من عام حيث رشحتها أمي وقد قبلت رغبة مني في عدم افتعال التمرد الذي عُرف به إخوتي ومتأثراً بالطبع بجمال الفتاة وسحرها دون أن أنتبه إلى أنها كانت تمني نفسها الزواج من مصرف متنقلٍ يحمل لقب «كاكاه زاده» المثير لأطماع الثراء السريع عند الفتيات في مدينة إيلام وضواحيها. وكان سهلاً بعد الانعتاق من تلك العلاقة السريعة ان أعود إلى طهران حيث استقراري دون بلبلة المشاعر واضطرابها فلم تكن قد حيكت في داخلي بعد نحو الفتاة مشاعر تقعدني عن مواصلة حياتي الطبيعية، ولاسيما ان نساء المدن الكبيرة بالعادة أقل التزاماً وبعضهن تقدم نفسها ببساطة من يفتح باب ثلاجته ليأكل ما يشتهي على عكس فتيات القرى والمدن الريفية البعيدة الموغلات في خوف اجتماعي وديني باذخ. والحق انني لم أفكر كثيراً في السلطة التي كانت ستخوزقني لو أنها اكتشفت الممارسات الجنسية الممنوعة تلك، ربما لأن ذلك لم يعد

يهمني شأني شأن العديد من الشبان والفتيات من جيلي، أولئك الذين تفتحت براعم شبابهم الفتيّ مع سنوات الثورة الأولى حيث الإعدامات في الشوارع والجلد العلني الذي كنا نشهده بانفسنا مثل فيلم سينمائي لم يخضع لرقابة تبتِر أطرافه من خِلاف حفاظاً على حساسيتنا المفرطة. إذ تعودنا بعد حين على عدم الاكتراث بالقوانين الكثيرة مدفوعين بالرغبة المجنونة للمغامرة وسبر كل ما هو خفي وممنوع. أولى مشاهداتي الفجة تلك حدثت حين كنت بعد في الثامنة، يوم علمنا أنهم سيقومون باعدام علني لرجل اتهم بجريمة مزدوجة روعّت مدينتنا الصغيرة المسالمة حيث اغتصب طفلة في السادسة ثم قتلها ورمى بجثتها من اعلى الجبل. اذكر ان الناس بدأوا يتجمعون من بعد منتصف الليل مذ أعلنوا عبر مكبرات للصوت ان الاعدام سيتم عند الفجر في الميدان الرئيسي دون أن يحددوا الساعة بالضبط. بالنسبة لقرية آمنة وذات عدد سكان محدود، فقد تكوّن خلال ساعتين تقريباً جمع غفير من الناس ولا سيما الصبية والمراهقين الذين قدم بعضهم من القرى المحيطة بالجبل رغبة منهم في ان يشهدوا الحدث المثير. تحلق الجميع حول ميدان كشوري، والذي كان عبارة عن دوار هو مركز للمدينة الصغيرة إيلام يتقاطع من خلاله شارعان هما الأهم في مدينتنا الشبيهة بقرية. جلس كل من مؤيد وسرمد على السياج العالي لبيتنا المطل على الميدان لكي يتمكنا من الرؤية جيداً، واذكر انني سالتهما ان يساعداني على تسلق السياج لكن سرمد نهرني وامرني بالابتعاد. بينما استند لؤي بملل إلى الحائط يتابع الناس بعينين ملؤهما الضجر، أما ليث فكان يدخل إلى البيت كل دقيقتين مفتعلاً سبباً كأنه يهرب من المشهد المرتقب ثم يعود بسرعة ربما كي لا يقال أنه جبن عن النظر إلى الموت وهو يتشكل أمامه بكل قبحه ملوثاً الأجواء الشتائية الصافية للقرية الوديعة. كنتُ اصغر من تصوّر عملية

الإعدام التي تخيلتها فاقعة وملطخة بدماء كثيرة ستسيل في كل مكان وربما اقتضى تنظيفها أياماً عن الشوارع وأرضية الميدان، سيما وان قريتنا كانت قد غرقت بالثلوج في مثل ذلك الوقت من السنة ما سيجعل الدماء حية ونشيطة على الأرضية الناصعة البياض. غير أن أياً من ذلك لم يحدث، فقد جيء بالمتهم قبل أن ينبثق الفجر وأعدم خلال دقائق ربما كانت طويلة على بعضنا وسريعة عليه هو الذي لا بدّ تشبثت انفاسه بالحياة التي يوشك على مغادرتها. وبالطبع لم أر رأساً يفصل عن الجسد ولم يحدث ان تلوثنا بالدماء بقدر ما تلوثت الأرواح ربما بالمنظر الرهيب الذي أظنه قد ترك مسحة من تعاطف عاجز مع قاتل يعاقَب بالشنق علناً. في الحقيقة لم أتمكن من رؤية اللحظات الفاصلة تلك أصلاً، كانت قامتي أقصر من التطاول على جموع الناس المرصوصين أمامي والذين كانوا قد سكنوا على حين غرة وصارت تسري بينهم همهمات موحدة على نحو مهيب، إلا ان سرمد الذي وقف على السياج ليتمكن من رؤية المشهد كاملاً قال أن الرجل بدا بحالة يرثى لها وقد كان في البداية مشدوهاً للحظات غير انه استعاد رباطة جأشه فجأة ليلقي إلى المتجمعين ابتسامة صلفة قبل أن يطفأ عنه نور الحياة إلى الأبد. وقد تمكنت عبر حشر نفسي بين الناس ان احظى بنظرة خاطفة من أقدام المعدوم وسرواله الذي ما زلت أذكر انه كان رمادياً ورثاً، عندما كانوا يهمّون بسحب جثته على نقالة إلى عربة الأسعاف المعدة سلفاً. والواقع ان تلك الذكرى لم تؤرق طفولتي كثيراً، ولعلها فعلت لأيام قليلة تجاوزتها ولم أعد للتفكّر كثيراً بآثارها العالقة، غير أن تلك اللحظات الفاصلة التي تهيئ المرء لكي يكون بين الحياة والموت هي التي بقيت حاضرة في داخلي، فقد كان أمراً باعثاً للدهشة أن نحظى جميعاً بالثواني ذاتها التي تركتنا نترع الحياة غير مبالين، لتختطف خلالها روح ذلك

الرجل المفعول به الذي تقتله العيون المتربصة قبل أيادي الجلادين. كيف تحول مجرماً إلى شيءٍ، رقم، جثةٍ مدموغة بالعقاب يرق لها القلب الصلف، كيف تتخذ مثل تلكَ الأحداث الفاصلة وقعها في أجزاء من الثانية؟ بل ولكي أكون دقيقاً فإنه لأمر مثير أن يحدث ذلك في أثناء تكسّر الثانية الواحدة إلى شظايا تُسلب خلال إحداها الانفاس ليُترك الشخص المغمّس بالخطايا مجرد جثة هامدة قد فارقت الحياة إلى عالم مبهم وغامض. تلك الانتقالات الهاربة من الزمن ما بين اللحظةَ والأخرى تأسرني على نحو يثير نفوري واشمئزازي وقلة تعاطفي، فهي ذاتها التي تجمعت لتصنع فارقاً زمنياً لم يكن هائلاً لكنه كان كافياً ليخلفني عن التظاهرة لمجرد انني تأخرتُ في النوم لدقائق إضافية سخيفة، فقد وصلتُ متأخراً بعد أن انفضت التظاهرة. كانت الطرقات قد كُتمت أنفاسها بدخان يحاول ان يتلاشى شيئاً فشيئاً، وقد امتلأت الشوارع بآثار المتظاهرين الخضر. بعض الشبان كانوا يجلسون على الأرصفة بعد أن انهكهم التعب، وبعضهم تسيل منه دماء طازجة وآخرون يصرخون بقوة في وجوه رجال الأمن مطالبين برفاقهم الذين احتجزوا. داهمني شعور مفاجئ بقلة الحيلة وخيبة أمل ثقيلة من نفسي كأن تأخري غير المبرر علامة على عدم أهليتي حتى في طلب الحق لنفسي قبل أن أطلبه لأجل الآخرين. وتذكرت كل الأقوال المزعجة والأحكام المسبقة التي وصمتُ بها فقط لأنني أنا، ولأن ظروفي هي هذه، ولأن أفكاري ورغباتي هي تلك. تذكرت لؤي ساخراً من صورتي الشخصية على موقع «الفيس بوك» التي كنتُ أرفع فيها يدي بعلامة النصر حيث كانت تبدو تلك القطعة الخضراء المربوطة حول معصمي والتي لم تفارقني لأيام. كتب معلقاً تحت الصورة بالعربية:

- شنو شاد علگ؟

ولولا احترامي الشديد له لكنتُ حذفتُ تعليقه هذا لو انه كتبه بغير العربية أو لو كان مفهوماً بالنسبة لرفاقي كي لا يشعروا بالاهانة الواضحة لمبادئهم الثورية. تذكرتُ أيضاً زميلاً إيرانياً انفعل عليّ فجأة بعد اختلاف طفيف في الآراء فعيرني بأصولي غير الإيرانية، بل عيرني بعراقيتي تحديداً مذكراً اياي انني في الحقيقة لست سوى ابن غير شرعي لذلك البلد الذي اعتدى عليهم وحاربهم لثماني سنوات طوال. مثل تلك التعليقات لم تكن تضايقني كثيراً في حينها لكنني أمام عجزي وقلة حيلتي تذكرتها فشعرت بيأس غامر يتسلل إلي لينهش روحي دون التمكن من السيطرة عليه أو إيقافه، حتى تمنيتُ لو أصاب بضربة من هراوة رجل الأمن ذاك فأفقد وعيي والحساسية المفرطة لإدراكي الذي طالما كان نشيطاً رغم أنفي. لم أكن أتعمد رغبتي الملحة في العيش ضد تيار وسياسات التهمت حياتي وشبابي، بعد أن عشت عمري كله وانا في حالة تمويه حتى عن ذاتي، كأنني أضع قناعاً دائماً في اللحظة التي أخرج فيها من البيت إلى الشارع الذي لا يتذكرني فيه الناس سوى باسمي المستعار «كامران كاكه زاده»، الشاب الإيراني الرياضي بطل التايكوندو الذي يحمل في الحقيقة اسماً آخر وماضياً من المفترض ان يكون مختلفاً وأكثر تناغماً مع تلك الحقيقة المغيبة، مع ذلك الشاب الذي كنت سأكونه، العراقي أكرم مجيد حسين الصائغ، المهندس، المدرس، الفنان، التاجر في الشورجة، عالم الرياضيات، الشيف في مطعم ايطالي يفتتح في العراق لأول مرة، أياً كان! إلا أنني قطعاً كنت سأكون غير هذا الذي هو أنا الآن!

تحركت مجموعة من الفتيات أمامي فرأيتُ من بين ثيابهن القاتمة وايشارباتهن الخضراء ذيل ثوب أحمر اللون ففحصتُ بنظري بشيء من الاستغراب قامة الفتاة التي قدمت إلى مظاهرة في لون كهذا، لتتعاظم

دهشتي حالما اكتشفت أنها شابة ترتدي زياً كردياً غريباً على المكان والمناسبة معاً لكنها أيضاً كانت جريئةً جداً فقد تركت شعرها الطويل ينسدل من تحت عمامة سوداء تتخللها نقوش بيضاء مثل التي ترتديها النساء عندنا في ايلام في المناسبات حصراً. ظننتها في البدء مجرد فتاة جريئة تقارع السلطة الدينية بسفورها الجليّ، لكنها حين التفتت لمحتُ في لفتتها إيماءة مألوفة. نظرتُ إلى الشاب الجالس بالقرب مني على الرصيف أحاول إشراكه في المشهد الغريب الذي أراه، لكنه بدا مشغولاً بدماء كانت تسيل من رأسه ويجلس وحيداً دون مواسٍ أو مطبب لجروحه. عدتُ أتلفت بحثاً بعيني عن رجال الأمن الذين أهملوا وجود امرأة شابة من بين المتظاهرين تتحدى أوامرهم بتلك الطريقة المباشرة المفضوحة لكني رأيتهم متلهين بتفريق الجموع بل يمرون بجانبها دونما ان يثاروا أو يستفزوا كما هو متوقع. وجدتُ نفسي رغماً عني اقوم من مكاني على الرصيف الذي ألقيتُ عنده قبل دقائق قليلة فقط كل خيبتي وإحباطي، وأتقدمُ نحوها. خطوتُ باتجاهها خطوات قليلة فقط، فالتفتت الي كأنها تعرف مقصدي وطالعتني بنظرة جميلة، ثم استدارت بجسدها كاملاً نحوي واقتربت مني بشكل فج لا تبيحه أعراف الجمهورية الإسلامية في الطريق العام، العين بالعين والصدر بالصدر والبادئ أحبُّ وأكمَل، وأكثر قرباً وأعز مكانة ورفعة. وفي شطرٍ من جزء من ثانية عرفتها، من صورة قديمة لها كنتُ شاهدتها عند خالتي پري عندما زرتُ بغداد سنة ٢٠٠٤ لأستلم جثمان والدي. هؤلاء العابرون بين اللحظات الموثقة لحيواتهم المختلفة لا يرونها، بالطبع لا يرونها فهي تخصنا وحدنا! شبح أسرتنا العنيد وشعارها الأبدي، وفي هذه اللحظات القليلة التي كونت في خلالها لقائي الأول بها سأصطف مع الآخرين من أبناء أسرتنا أولئك الذين صاروا يذكرون طيفها الأزلي بخشوع غير

مألوف، ذلك الطيف الذي يحكم قلوبنا بالرهبة والرغبة والخوف والحب معاً. طيف خالتي الذي التقيه للمرة الأولى كأنما لتمسح عن رأسي خطايا النسيان والتثبيط وانعدام الورع أمام الحياة التي ما زالت تأمرنا بالعيش فنعيشها دون حماس. ها هي ذي تذكُرني للمرة الأولى منذ ثلاث وثلاثين عاماً هي عمري الذي عشته دون صراعات بيّنة، فكلها كانت في الخفاء بين ذاتي وذاتي بين اسمي الكردي وذلك العربي بين الشخصيتين والوطنين والحقيقتين. غير انني وجدتها تبتعد فجأة دون أن انتبه لكونها ستفارقني فقد كنت ما أزال مسحوراً بحضورها الباهر أعيش اللحظات التي تجمعني واياها بمتعة عجيبة متخمة لروحي. لكنها سرعان ما غابت بين جموع الفتيات ليتلاشى ذيل ثوبها الأحمر مثل ثعبان زلق في حفرة. تمنيت لو أنها تعاود الظهور والاقتراب مني فوجودها بعث في داخلي أملاً غير مكتمل لا أعرف كيف أغذيه ليكبر، وشعرتُ وأنا أغادر الشوارع العابقة بالدخان وضجيج المتظاهرين اليائسين وصفارات الإنذار بشوق مفاجئ لأمي، ثم لإخوتي ثم للعراق بل وحتى لقبر أبي. وكنتُ أعلم وانا أجدّ في سيري مخلفاً الفوضى ورائي انني مع كل خطوة أخطوها أساهم في صنع تلك الذكرى التي لن تُنسى، ذكرى ظهورها الأول وصورة ابتسامتها المشعة والحضور الطاغي لذلك الطيف الواقعي الذي لن ترفضه قناعاتي ما لبثتُ حياً. ذكرى اول لقاء لي بها، ميمي قسمت!

القسم الثالث

٢٠٠٤ و١٩٥٠م

٢٠٠٤

يعرف بغداد جيداً، لكنه قضى عمراً طويلاً دون أن يعلم نفسه الثقة في نفسه أمامها فهو يجد رهبة في مجرد تمني أن تتعرف عليه وهي المشغولة جداً بأحزانها. ولطالما وجد صعوبة في التعبير عنها فهو يشعر بأنها عبق من الكونِ مثير للوجع ويصعب عليه تفسيرها، لهفة الزمان على نفسه وشوقه لأصوله، رقة الندى النهري وعنف قيظ الصيف يؤكدان التناقض الشرقي الذي تأصل له هذه المدينة الكونية بجدارة. يعرف عنها الكثير وبالقدر الذي يجعله يقف على قدميه فيها، لكنه لم يهتم يوماً بالتعرف إلى تاريخها وألف ليلة وليلة لم تثره أبداً فهو لم يكن ليفضل الليالي على الأيام، كما أنه لم يحبذ الحكايات والأساطير قط. غير انه تعلم أن ليالي بغداد تنتهي بذبح امرأة، هذا كل ما في الأمر، ولأن النساء لم يشغلن باله بالقدر الذي يستدعي ذبحهن فإنه في وقت مضى اختار لبغداد أن تكون المرأة التي ينام في حضنها في الليالي المخيفة، فواربته مدلّلة وقبل أن يكتشف مكيدتها ضده ذبحته وتركته ينزف لسنوات.

لم تكن للعودة طعم القرح القديم، حسبُه رائحة التراب الخانقة التي تجبره على كتم أنفاسه التي صارت متلاحقة مع تقدم سني عمره والازدياد الواضح في وزنه. اليوم، للعودة ملامح لا مبالية، هو الذي

توقف عن الحلم بها منذ زمن حتى انتهى به الأمر إلى أن أهملتها مخيلته التي تعطبت ولم يبق له سوى إصرار على استرداد ما فقد، كأنه بات يصدق ما يردده الناس عن حرصه المبالغ فيه. ها هو اليوم هنا، مقطب الجبين أمام حر الظهيرة والتراب وما ينتظره من شد وجذب، تحمرّ بشرته بشدة تحت أشعة شمس آب ويتصبب عرقاً، ساقاه الرفيعتان تقوستا شيئاً ما تحت بطنه المكورة، وشعره الأبيض صار مبتلاً ويقطر منه عرق ينال من كامل رأسه السمين، كان يجففه بين الحين والآخر بمنديل كحلي، ثم يمسح على حاجبيه الكثيفين اللذين ما زالا على سابق لونهما الأسود. جلده الرقيق وملامحه الآرية لاتبدو غريبة تماماً عن هذا المكان، فكثيرون يشبهونه بأنفه المدبب وعينيه العسليتين الفاتحتين وبياضه المستفز الذي لايبدو وكأنه يستفز أحداً، سيما وأن ملامحه هذه لم تخدش شرقيته على أية حال. هو يعرف هذا النوع من الحر خبره جيداً مذ كان يزاول أعمالاً شديدة في أصيافٍ سابقة، فذاكرته الجيدة لم تضعف أمام السنين التي مرت بسلام أحياناً وبعواصف في أحايين أخرى، غير أنه كان يتعمد الآ يسترجع الذكريات، ليس لأن بعضها يؤلمه ويذكّره بخسارات عديدة فحسب، أو لأن بعضها الآخر يثير شجنه مع خيط رفيع من شوق لا يستحسنه، بل لأنه يكره أي حالة قد تضعه في موقف ضعيف حتى أمام نفسه. ولهذا، صار يفضل ان ينظر إما إلى السماء أو إلى الأرض، فهو ظن للحظات ان الجوانب التي تحتوي في ضمنها الحياة بألوانها الواضحة والحية ستنشط ذكرياته، لكن حين انقبض قلبه فجأة وصار ثقيلاً علم مدى قوة ذاكرته.

إنه يتذكر تماماً مقدمه الأول، ويعرف أنه كرجل اقترب من عقده السادس عليه أن يهز رأسه بأسف وربما ترتب على ذلك أن يهمس محوقلاً ثم يردد كلمات يذكر فيها مشيئة الله، ويسترسل في مقارنة لا

طائل منها بين ما كان بالأمس وما صار إليه اليوم في ثرثرة طويلة يجيدها من هم في مثل سنه، غير أنه لا يفعل شيئاً من ذلك كله، فهو لم يكن أبداً بالشاب التقليدي تماماً لكي يصير عجوزاً تقليدياً ولو قليلاً. فكان يدوس على كل ذكرى تتفتق من الأرض التي يسير عليها، يقطب جبينه أكثر، ويرضي ضميره بأن يقنع نفسه بأنه لا يملك شيئاً أمام ما يرى من خراب غير تعاطفٍ عليلٍ مع ما تصوره قبل قرابة الربع قرن مهد له ولذريته. هو الآن رجل متقدم في السن، وأب بغيض وزوج متذمر، عيبٌ على شعراته البيض ان تتمدد بسلام فوق رأسٍ تطيش به الذكريات.

- تووووف!

يبصق بينه وبين نفسه. يطلق بصقاته هذه غالباً دون أن يقصد بها شيئاً أو أحداً، وحين كان يصدف أن تطال البصقة وجه واحدٍ من أولاده، كان يجدهم ينظرون إليه باستهانة ثم يمضون. يغضبونه لأنهم صاروا لا يأبهون له بعد أن كانوا يرتجفون أمامه، ويزعجه أنهم باتوا أطول قامة منه بما لا يعينه على صفعهم أو ركلهم كما تعود حين كانوا أصغر، فيضطر للبصق مجدداً وهو يصيح بصوته الخامل:

- أدب سز.. حيوان. وإن كنت لم أقصدك في الأولى، إلا انني مؤكد سأفعل في الثانية!

تووووف! بصقة أخرى قوية بينه وبين نفسه، تنطلق من شفتيه كأنها همسة كي لا يلفت إليه الأغراب، رغم ان من يعدهم أغراباً في هذا المكان يبصقون أيضاً، بل يبصقون دائماً على هذه الحياة ولن يتعجبوا من رجل كبير في السن يقف تحت رحمة شمس آب اللاذعة ليبصق في الهواء على كائنات غير مرئية. ولعله قصد ببصقاته سواق الأجرة الذين يتجاهلونه، أو لربما قصد بالبصقات نفسه فالذنب ذنبه على أية حال، فهو من أنشب شجاراً مع السائق الذي اتفق معه على أن يوصله حتى

البيت الذي يقصد في بغداد. اليس لسانه وضيق خلقه هما السبب في وقوفه تحت شمس تكاد تفلق رأسه السمين إلى نصفين! فلو أنه فقط لم يبالِ لكلام السائق ولو قليلاً لكان الآن في حضن بيتٍ ربما لم يكن ليقيه الحر، ولكنه من المؤكد سيقيه اللسعات المتواصلة التي تسلطها الشمس على رأسه. غير انه وعلى العكس من ذلك رفع صوته على السائق ثم شتمه لأن الأخير أبدى تخوفه من مستقبل تبدو ملامحه مشوهة، ولدهشة الحاج مجيد لم يبادله السائق السباب بل اوقف السيارة باستسلام لينزله في منطقة لاتبدو معالمها معروفة له. غير مهم!، هو يعرف بأنه قد اقترب من بغداد كثيراً ولعله الآن فيها أو على مشارفها. رفع رأسه إلى الأعلى مغمضاً عينيه شبه إغماضة فيما العرق يسيل غزيراً من منبت شعره. عبس كأنه يبتسم، ثم تولّى محاولاً ايجاد اية وسيلة نقل يمكنها ان توصله حيث يريد بأقل الخسائر الممكنة لجيبه!

* * *

مع اقتراب منتصف النهار قامت بتثاقل من على الدكة الخشبية التي كانت تجلس عليها في فناء البيت هرباً من حدة اللهب الذي بدأت الشمس ترسله إلى أهالي بغداد كأنها تخصّهم بحرها كله، تحمل بين يديها البطاطا التي جلست لتقشيرها ولم تزل رائحة البصل الذي قشرته مسبقاً عالقة بثيابها. نادت بصوتها الذي رفع مع تقدمها في السن على حفيدتها ورغم سكون البيت في هذه الساعة من النهار لم تسمعها زينب التي كانت في الطابق العلوي تباشر تنظيفاً أسبوعياً لغرف غير مأهولة، عادت ترفع صوتها فهيئ لزينب ان أحداً يناديها فاعتدل جذعها المنحني لتصيح من مكانها:

- نانه.. صحتيني؟

فردت جدتها بنبرة لائمة:

ـ حاولي أن تنتهي من عملك أسرع. قضيت وقتاً طويلاً في الأعلى

انحنت زينب مجدداً لتواصل الكنس وهي تحشر خصلة من شعرها الناعم خلف أذنها:

ـ أي نانّه.. همّه.

لبثت تسمع صوت جدتها القادم من تحت وهي تردد أسباباً عديدة للانتهاء من التنظيف بسرعة دون أن تعير كلامها اهتماماً فقد اعتادت على ثرثرتها التي تستمر أحياناً لساعات وهي تروي قصصاً كثيرة ومتشعبة عن الأسرة التي تشتتت وتناثرت بين الدول، فقد تعودت زينب من جدتها التي ثقلت حركتها ووهنت عظامها بعد أن انهكت جسدها السنوات، ان تبدأ بسرد قصة شخص ما غالباً لا تعرفه زينب فهو إما من المبعدين أو ممن قضوا نحبهم أو من أولئك الذين اختفوا من الحياة فجأة ودون سابق إنذار مثل تلك الأشباح التي تظهر وتختفي في البيت حيث يسكنون. حين انتهت زينب من تنظيف الغرفة الكبيرة التي كدّس فيها أثاث قديم ومهتريء لا يتناسب مع البيت وموقعه البغدادي الأصيل، واصلت إلى غرفة عمها عادل التي بقيت تنعت بذلك على الرغم من مرور سنوات طويلة على رحيله عن الدنيا. كانت غرفة صغيرة فيها فراش لا يلقي أحدهم بجسده عليه إلا فيما ندر، وخزانة حديدية صدئة الأرضية أهم ما فيها هو علبتان كبيرتان فيهما صور عديدة للعم الراحل، وبعض ما تخزنه جدتها ولا يعرف ماهيته أحداً. على أرضية الكاشي الملمّعة فرشت سجادة بنقوش شرقية، وقد رصت العديد من الكتب القديمة على مكتبٍ صغير وضع أمام النافذة الوحيدة للغرفة، فيما كدست بقية الكتب تحت السرير. أغلب تلك الكتب كانت ملكاً لوالدها

آزاد وعمها الكبير سالار فيما مضى لكنهما لم يعودا يطالعانها فيها منذ زمن طويل فلبثت الكتب في مكانها لا يمسها أحد إلا كي يزيل عنها طبقات الغبار المتراكمة. لم تكن لزينب أي ذكرى مع عمها الراحل عادل فقد ولدت بعد وفاته ببضع سنوات وتعرفه فقط من الصور المحفوظة في الخزانة التي كان يظهر في بعضها بقامته الطويلة مرتدياً بنطالاً عريضاً وقميصاً ضيقاً مشجراً بألوان غير معروفة بما ان صوره الأقدم أغلبها بالأسود والأبيض. وفي البعض الآخر ظهر بزيه الجامعي في صور ملونة، مرتدياً بنطالاً رصاصياً وقميصاً أبيضاً وجاكيتاً كحلياً، مبتسماً بحبور وحاملاً في يده ملفاً كبير الحجم، بينما كان يطالع بعينه أحداً خارج كادر الصورة. وفي صور أخرى بدا برفقة زملائه شباناً وفتيات. ولطالما كان منظر الفتيات في صور تلك الحقبة يثير في زينب شغفاً مبهماً فيدعوها لتفحص زيهن الجامعي الموحد وقصات الشعر والأحذية الأنيقة وتلك البساطة التي لم تعد تتمتع بها فتيات جيلها، فتلكم الجامعيات كن يرفلن في أناقة رقيقة مرتديات تنانير أنيقة فيها كسرات عدة وقمصان هفهافة، أغلبهن كن بقصات الشعر القصيرة التي اشتهرت في الثمانينات، وكانت زينب قد شاهدت لعماتها ولا سيما «ڤيان» صوراً مشابهة كلٌ في الكلية أو المعهد الذي درست فيه. أما في الصور الشخصية للعم عادل فقد بدت ملامحه أكثر وضوحاً، له زلفان أثارا ضحكها في وقت مضى، وشعر أشقر كثيف لكن شديد النعومة يبدو وقد صففه بعناية. عيناه تبدوان في الصورة فاتحتين جداً إلا أن نانه كانت أخبرتها أنهما كانتا خضراوين داكنتين ورثهما منها، فيهما جرة خفيفة في طرفهما وانتفاخ بسيط في الجفن، تبدوان في الصور وكأنهما تشعان بحزن يقتلع القلوب. سمعت من عمتها ڤيان مرة أنه كان يحب فتاةً بارعة الجمال تركته وتزوجت غيره قبل أن يتوفى بفترة لم تكن طويلة.

ـ قابلتها مصادفة في «سوق العربي» بعد رحيله بثلاثة أشهر اقتربت مني بحذر وعزتني فيه. كانت عيناها تترقرقان.

أكملت العمة القصة. فسألت زينب بفضول، وهي دائماً ما ترد على الكلام الكردي بالعربية:

ـ وبشنو جاوبتيها ميمي؟

ـ لا شيء. شكرتها بسرعة وانفلت

نظرت زينب في حجرها وهي تقول:

ـ حرامات.

تنهدت العمة ڤيان وقالت:

ـ «يامعوده» هكذا أفضل. لو انه تزوجها كنا الآن سنحتار بها وربما بأولادها أيضاً، ونحن فوق رأسنا من الهم ما يكفينا.

فتحت زينب غرفة عمها فخيل إليها أنها رأت ظل فتاة صغيرة يختفي خلف الخزانة، وتأكدت من رؤية الفتاة عندما لمحت ذيل ثوبها المشجر بألوان ميزت منها الأسود والأحمر قبل أن تختفي تماماً. رددت بينها وبين نفسها.

- شنو هالصلافة! حتى بعز النهار.

تقدمت إلى الشباك وفتحته دون أن تعبر من خلاله أي نسمة، وباشرت بمسح الأتربة أولاً ثم كنست الغرفة وهي تسمع صوت «نانه» يأتيها من الأسفل ليستعجلها بين الحين والآخر. حين هبطت أخيراً إلى الطابق السفلي وجدت عمتها ڤيان قد عادت من العمل باكراً من المستشفى حيث تعمل.

قابلتها نانه مؤنبة:

ـ ابنتي، لماذا تأخرتِ كل هذا الوقت؟

ردت زينب:

ـ نانّه غير صارلچ كومة ما صاعدة فوق داتشوفين التراب. ردت أختنق. ولا عبالك ماسحة ومنظفة الفوق من يومين.

قالت ڤيان بكرديتها التي تتعمد فيها لكنتها الصميمية الأصيلة، وهي تصب لنفسها طعاماً:

ـ بغداد كلها ترزح تحت غبار كثيف، كأن كل المصائب التي نحن فيها لا تكفي!

مع نهاية جملتها دق جرس الباب الذي كان بدعةً وضعها أحد أعمام زينب قبل سنوات، سيما وأنه لا يستخدم إلا في حال قدوم شخصٍ غريب فسكان البيت يجذبون سلسلة معلقة بالباب وموصولة بالمزلاج من الداخل فيفتح الباب الحديدي بسهولة. قالت العجوز بإهمال كأنه من واجبها أن تتدخل في كل شيء:

ـ لعله فقير يسأل حاجة. هناك نقود فوق الثلاجة.

تناولت زينب ورقة من فئة الألف دينار من سلة صغيرة تجمع فيها جدتها النقود المتبقية من المشتريات، وألقت بشال حول رأسها ثم فتحت الباب الرئيسي لتجد رجلاً أبيض الشعر محمر البشرة من شدة الحر يتصبب عرقاً يسألها مبتسماً بثقة إن كان هذا بيت «أبو سالار»، وكان الناس ما يزالون يشيرون إلى البيت باسم الرجل الذي غادر الدنيا منذ سنوات عديدة فالموتى دائموا الذكر في العراق كأنهم لا يغادرون قط. ردت زينب بحركة من رأسها موافقة ومستفهمة معاً، فسأل الرجل بكردية جبلية اللكنة:

ـ أم سالار في المنزل؟

لبثت تحاول تذكر ان كانت قد رأته من قبل ونسيت ان تجيب الرجل، فقال بعربية بدت لزينب أنها ذات لكنة مهزوزة:

ـ تحچين كردي مو؟

ـ نعم.

ـ من في البيت؟

ترددت قليلاً قبل أن تجيب:

ـ توجد نانه، وعمتي ڤيان

ثم صاحت لتسمع جدتها أن ضيفاً قد قدم، وفتحت دفة الباب الحديدية على مصراعيها تدعوه للدخول، وحين ألقت المرأتان عليه نظرة علا صراخ العمة بينما لبثت جدتها ترمش كأنها لم تتبين بعد من يكون، وفهمت زينب مباشرة ان الرجل أحد الغائبين حين صاحت ڤيان كأنها لا تصدق ما ترى:

ـ دا، إنه العم مجيد!

قامت المرأة العجوز من على كرسيها في المطبخ المواجه للفناء الخارجي والحديقة وقد ارتسمت على وجهها المجعد شهقة هائلة فيما دخل مجيد بخطوات سريعة ماداً ذراعيه إلى الأمام وحين صار قريباً من پري العجوز هتم بتقبيل رأسها الذي انحسرت عنه فطوتها فبان البياض القطني لشعرها الغزير، لكنها ألقت جسدها الثقيل عليه وجرته إليها جراً وصارت تحتضنه بقوة وتشم نحره وقد سكن هو بين يديها كأنه طفل لا يرغب في مقاومة ما تغمره به من لثم وقبلات. كان لقاءاً صاخباً، يليق باربعة وعشرين عاماً من الفرقة والحزن والغياب المفاجيء الذي لم يترك مجالاً للتدويع. ذُرفت فيه كل الدموع واختلطت فيه مشاعر الحب والمودة الصافية بمشاعر غير مبالية ومحايدة إلى حد كبير كانت قد

انغرست في القلوب من اثر اعتياد الفراق والرحيل الطويل. وقد انسلّت زينب في تلك الأثناء بهدوء إلى داخل المطبخ ووقفت بتحفز تنظر إلى الأرض ثم إلى المشهد الدرامي الذي يمثل أمامها في فناء البيت، لتعود فتنظر إلى الأرض مجدداً كأنها لا تجد في داخلها ما يعينها على مقاومة مثل هذه المواقف. لبثت هكذا لدقائق تابعت بعينيها عمتها ڤيان وهي تحضر قدحاً من الماء ترش منه على وجه جدتها التي كانت المفاجأة قد انهكت قلبها المريض فجلست على الأرض تلهث بصعوبة، ثم دفعت ڤيان بكرسي إلى الرجل المتعب فجلس عليه وهو يطبطب على وجنتي پري طبطبة خفيفة. دقائق قليلة قضتها زينب وهي تخزر المشهد بنظرات ثاقبة مسحت بعدها على وجهها مثل من على وشك ان يستفيق من غفوة سريعة ثم أعادت ترتيب الإيشارب فوق رأسها بإهمال وتقربت منهم كأنها تهم بولوج مشهدٍ سينمائي في فيلم ليس لها فيه دور.

- مجيد، هذه زينب ابنة آزاد. تقدمي سلمي على عمك.

قالت پري وهي لم تزل بعد تلهث وتتنفس بصعوبة، فتقدمت زينب من الرجل الذي قبّل رأسها مردداً: «مال خدا». ثم عادت پري تقول وهي تحاول سحب أنفاسها من صدرها بصعوبة بين الكلمة والأخرى.

- لماذا لم تخبرنا بقدومك؟ كنت ارسلت اليك آزاد ليستقبلك. وكيف هي مريم؟ وسهام، هل هي بخير؟ أولادك كيف حالهم؟ آه يا لوعة قلبي. أي حرقة هذه التي لم تنطفئ أبداً على رحيلكم.

كانت پري ستواصل كلامها وأسئلتها لولا ان طلبت منها ڤيان بشبه توسل:

- دا، عفية كافي تحچين لا تروحين تتعبين.

فسكتت لتوها وهدأت قليلاً ثم رأتها زينب تمسح عينيها بفوطتها

السوداء وتنهنه باكية بدموع غزيرة وثقيلة تدحرجت على الوجه المزدحم بالتجاعيد، بينما لبث الرجل صامتاً أمام سيل الأسئلة يده متكئة بملل على مسند الكرسي الذي جلس عليه دون أن يسند إليه ظهره كأنه يهم بالنهوض، بينما كانت عيناه تدوران متحققتين من الوجوه والمكان. نشجت پري بحرقة ثم رفعت ذراعيها عالياً في الهواء لتبدأ وصلة من النواح الفلكلوري وهي تحرك ذراعيها بثقل وتطلق سيلاً من الوصلات الكلامية المنغمة بلحن حزين. سكت الجميع أمام هذا المشهد، وحاولت زينب أن تلتقط شيئاً مما تنشده جدتها ولكن عبثاً، فالكلمات تضيع وتتلاشى وسط هذا البكاء المنغم، غير أنها كانت تعلم بأن العجوز تنشد الغائبين وتنوح على فراقهم الطويل.

* * *

انطفأت الكهرباء فغرق البيت في سكون مفاجئ بعد أن صمت التلفاز وسكت الجميع لثوانٍ محاولين تلمس خطواتهم وحركاتهم والتعود على الظلام، حتى بدأت تعلو الهمهمات شيئاً فشيئاً ثم تابع بعضهم مواصلة الأحاديث التي انقطعت فجأة. بعد دقائق طلب آزاد من ابنته زينب تفقد جهاز الـ«چينج أوفر» لأن تلك من المفترض ان تكون فترة القطع المبرمج، أي ان الدولة كانت تقطع عن شارعهم الكهرباء وتمدها للشارع المحاذي لهم في فترات محددة ومعلومة، وقد تحايل اهل الحي على ذلك بمد أسلاكٍ بين البيوت تؤمن الكهرباء بشكل مستمر للجانبين وإن كانت ضعيفة. لكن زينب ردت مباشرة بان الحي كله غارق في ظلام دامس ولا أمل في عودة الكهرباء الآن. تأفف آزاد وأشعل سيجارة ثم اعتدل في جلسته على الأرض مسنداً ظهره إلى «الكرويتة» التي جلست عليها أمه پري متربعة كأنها شيخ قبيلة افريقية على وشك تلقي الهبات والنذور، بينما جلس الحاج مجيد هو الآخر

على الأرض متعللاً بأن ظهره لا يتحمل الكراسي والكرويتات الصلبة ذات المساند المعتدلة والزوايا الحادة. أشعلت زينب مصباحين نفطيين حيث تجمعوا ثم وضعت شمعتين في المطبخ وقرب الحمام، ودارت ثيان توزع مهفات يدوية في شيء من المرح المفتعل كأنها ترغب في خداع نفسها والتخفيف من ضيقها قبل أي شيء. كان الحر خانقاً دون أن تمر أية نسمة هواء، وبعد دقائق قليلة من انطفاء الكهرباء صاروا جميعاً ينضحون العرق بغزارة. قال الحاج مجيد محاولاً الضحك بافتعال ليصرّف من انزعاجه:

ـ آخر مرة شهدتُ فيها انقطاع الكهرباء كانت في أثناء تلك الحرب اللعينة.

ثم مسح العرق عن قفاه بكفه السمينة، فرد سالار مدمدماً كأنه يخاطب نفسه:

ـ حجي إحنا أصلاً ما لحقنا ننسى أي تفصيلة من تفاصيل الحرب، ناهيك عن سالفة قطع الكهرباء.

كان سالار قد أمضى اليومين الأخيرين برفقة الحاج مجيد بين الدوائر الحكومية والمؤسسات في متابعة دؤوبة بغية استرجاع حقوق الرجل المسلوبة، سواء جنسيته العراقية التي أسقطت أو أملاكه التي صودرت، حتى ان پري وكأي عجوز لا تكف عن التذمر لم تخفِ استياءها من الرجل الذي كان في وقت مضى الأقرب إلى وجدانها:

ـ لم يغامر في المجيء حباً في أحد، جاء لأجل استعادة أمواله فقط.

طال انقطاع الكهرباء لأكثر من ساعتين وقد حاولوا تناسي الحر والظلام بالأحاديث التي تشعبت كثيراً ورغم ذلك بقيت موصولة بطريقة عجيبة، وقبل أن يتفرق الجمع لأجل النوم لاح شبح طويل ونحيل عند

مدخل الصالة حيث تجمعوا حتى ان ڤيان التفتت عنه بإهمال ظانة انه خيال جديد لشبح لم تكن وإياه على معرفة شخصية، إلا أنها سمعته يقول بنبرة فيها احتفاء خجول:

ـ السلام عليكم..

ثم سمعت هتافا مفاجئا لسالار وهو يهب من مكانه:

ـ لك هذا منو!

وقبل أن ينتاب ڤيان الخوف أو الفزع وجدت أخاها والطارق الغريب يحتضنان بعضهما بلهفة عارمة وربما لمعت اعينهما وهما يضمان بعضهما بقوة إلا أن الظلام الدامس لم يبين ذلك، بينما لبثت العجوز پري تخزر وترمش بعينيها الضعيفتي النظر، وقد كانت ما تزال على سابق جلستها الأثيرة إلى قلبها فارشة جسدها اللين السمين على الأريكة متسائلة بفضول عن هذا الذي قدم إليهم في الساعات الأخيرة من الليل، من يكون. قاد سالار الشاب الطويل إلى أمه وهو يصيح بفرح:

- دا، عرفتيه منو هذا؟

وكان الحاج مجيد قد قام من مكانه ليقف قائلاً:

- انه لؤي.

ولم يلتفت لؤي لوالده كأنه لم تمض أكثر من عشر سنوات دون أن يلتقيه، وقرب رأسه من المرأة العجوز يلثم رأسها وكفيها مردداً بخجل وكاتماً مشاعر اللهفة والرهبة من اللقاء قدر استطاعته:

- چيني ميمي؟

وفي هذه الأثناء ترك سالار أهله يستقبلون ابن خالته، وتناول بسرعة كاميرا تصوير رقمية كان قد اشتراها بعد سقوط العاصمة بغداد بأيام

قليلة، مذ دخلت إلى البلد بضائع وأنظمة كثيرة جديدة عليهم بعضها لم تكن متوفرة وبعضها الآخر لم يكن مسموحاً به ابان الحكم السابق مثل الستلايت بقنواته الفضائية والانترنت، فقد كان العراق متأخراً عن ركب الثورة المعلوماتية بأكثر من خمس عشرة سنة تقريباً. وصارت تلك الكاميرا الجديدة التي اشتراها سالار من بائع عرضها مفترشاً الأرض كأنها علب مناديل ورقية، الأقرب إلى قلبه بعد أن تساقطت هواياته القديمة كلها عن وجدانه واحدة تلو الأخرى حتى بات ينظر إلى ما نجى من رسوماته القديمة ومنحوتاته الصغيرة والمجسمات التي تعود ان يصنع باستهانة واستخفاف كأنه يطالع عبث الطفولة وتلك الاهتمامات والأهداف غير الواقعية في بلد لايعرف سوى مفردات الموت. ولم يتعامل سالار مع كاميرته الجديدة بصفته ذلك الفنان الموهوب الذي مارس الكثير من الفنون اليدوية وخبر تنفيذ الأشكال المنمنمة والمصغرة التي كان يصنع منها مجسماته، بل صار يقلب الكاميرا بين يديه بلهفة الجاهل الخالي من أي خبرة، وليس في ذهنه سوى ان يرفع الزر الذي تعلم تشغيله ثم اطفاءه من البائع نفسه الذي باعه الكاميرا. كان في نيته ان يسجل لحظات اللقاء الذي يحدث أمامه أخيراً بعد اربعة وعشرين عاماً طويلة لم توثق فيها اللحظات مثلما يجب، وكما هو متاح الآن. وقد كان محظوظاً ان الكاميرا كانت على وضع الفلاش وإلا كان صوّر لحظات مظلمة وغير واضحة إلى حد كبير، فقد تمكن بالفعل من التقاط الهرج والمرج واللقاء الذي كان مبللاً بالدموع والقبل. أخيراً التفت سالار بالكاميرا إلى الحاج مجيد وقربها من وجهه حتى بانت طاقتا أنفه الكبيرتان تملآن الشاشة فابتعد بجسده لأنه لم يكن قد اكتشف بعد زر التكبير والتصغير حتى بان لؤي في كادر الصورة فعاد يدور بالكاميرا ليلتقط وجه لؤي وتعابيره، ثم رجع الي الحاج مجيد كأنه ينبه لؤي

لنصيبه الأخير من الأحضان، حضن والده الذي لا بدّ وانه قد تركه إلى آخر اللقاء لكي ينهل منه جيداً، لكنه ولدهشة سالار ومن انتبه من الحاضرين فقد حيّا لؤي والده تحية باهتة ليس فيها أثر من حرارة فراق دام لعشر سنوات بين الابن وأبيه، فمد يداً باردة لمجيد كأنهما كانا معاً بالأمس فقط، ثم وكأنه اضطر تحت وقع النظرات لأن يعانق أباه ففعل بسرعة متلافيا اللقاء الفاتر بابتسامة رسمها عريضة على وجهه، لكنها بانت مصطنعة وغير طبيعية.

وكانت ليلة طويلة اعتذر في نهايتها الحاج مجيد عن المواصلة وخلد إلى النوم في غرفة كانت قد اعدت خصيصاً له، بينما رقدت پري بجسدها الثقيل على الأرض لاتود مفارقة الشاب الذي كانت لفتاته وابتساماته تذكرانها بأختها المبعدة، فقاومت النوم بضراوة لكن جفنيها صارا ثقيلين وبدأت صورة الشاب تغيب عنها شيئاً فشيئاً حتى اختفت كلياً لتقع پري في نومها الخفيف الذي كانت تهب منه فزعة كلما علت أصوات لؤي وآزاد وسالار الذين تنحوا جانباً يواصلون حديثاً كان قد توقف لسنوات، فتسأل پري ابنتها وهي بعد شبه غافية:

- من هذا الرجل؟

- هذا لؤي دا، إرجعي نامي.

تجيبها ڤيان، فتعاود پري النوم كأن الجواب أقنعها، كأن لؤي هذا لم يكن غائباً عنهم كل تلك السنوات، وكأن الجالس أمامها لم يكن ذلك الفتى الذي رحل عنهم في الثالثة عشرة ليعود رجلاً في السابعة والثلاثين بشعر قد خف وانحسر قليلاً عن مقدمة رأسه، ووجه ذابت عنه معالم الطفولة والفتوة فبات بائن التفاصيل بفكه العريضة وعينيه الثاقبتين اللتين خف بريق لونهما العسلي شيئاً ما كأنهما شمعتان على وشك ان

يخبو نورهما. ولم يكن لؤي ليولي أهمية كبيرة للفوارق التي تتابعها عيناه بكلل واضح كأنه على وشك ان يمل منها، فمنذ عبرت به السيارة التي استأجرها من عمّان إلى أرض العراق لم يفتأ يفكر ان عمراً طويلاً قد قام بينه وبين هذا الهواء المليء بذرات الغبار وهذه الأرض الملونة بكل الألوان الشقراء للصحراء وهذا الأفق الممتد الذي كان يعلم ان عند نهايته تقبع ذكرياته وأحلامه التي رُحّل عنها مجبراً. كان ينظر إلى الأرض التي حرّمت عليه لسنوات بشيء من الاستخفاف، فبعد الذي انقضى من عمره لم تعد لها ذات الأثر في نفسه وقد غدت مجرد حلم تحقق مباشرة بعد فقدان بريقه وبهائه. بل انه لم يكن قد مضى سوى وقت قصير جداً وبينما السيارة كانت ما تزال تنهب به الطريق، حتى شعر لؤي بالوحشة والضيق يتسللان إلى صدره وفكر بالوقت الذي سيعود فيه إلى ستوكهولم بسرعة لم يكن ليتخيلها هو نفسه. مذ جاءه ذلك الاتصال الغريب من والده الذي طلب إليه بنبرة متعالية وشيء من التردد ان يكون برفقته في بغداد في محاولته لاسترداد تلك الحقوق الضائعة التي ما فتأ يهذي بها منذ سقوط العاصمة بغداد قبل عام. كان اخوته جميعاً قد رفضوا مرافقة والده، حتى أمه لم يعد يعتمل في دواخلها ذلك الأمل الذي اعتاشت عليه لزمن طويل وهو يغلي في صدرها، باتت اليوم مثل أي امرأة متقدمة في السن تخشى الأوضاع الأمنية المرتبكة وتتجنب الوقوع تحت رحمتها. في النهاية لم يجد مجيد أحداً غير لؤي ليقنعه، وقد قبل لؤي على مضض رغم انه في سره لم يلبِ نداء والده رغبة في ارضائه وبراً به، بل لأجل رغبة قديمة في العودة باتت قائمة في داخله مثل ظلٍ لشاهد قبرٍ منسي، وكاد لؤي يندم عليها وهو يطالع بعينيه الخراب الذي عصف بالبلاد وتمنى لوهلة لو أن بغداد بقيت في وجدانه بنفس الصورة التي يذكرها عندما رُحّل عنها طفلاً. كان رأسه ممتلئاً

بخيالات سرت فيه مراراً عن شكل اللقاء الذي سيجمعه بأهله ووطنه، وحين حدث بالفعل وجده لايشبه أي من توقعاته وأحلامه فقد استقبلوه في ظلمة مهينة للقاء الأول به ثم لمّا تكشفت له الدنيا على حقيقتها آلمه رؤية الوجوه التي شاخت قبل أوانها وصبّر نفسه أخيراً محاولاً اقناعها دون أن يتحلى بالرضا ان ما من عمر جديد يعيشه ليعوض ما فات، وعليه تقبل الأمور كما يراها. تماماً كما هي!

في أثناء حديثهم عبّر لؤي لإبني خالته عن رغبته باستعادة جنسيته العراقية فقال سالار:

ـ ما تقولي شتسوي بيها! وجنسيتك السويدية تدخلك حتى اسرائيل بدون ما أحد يقولك على عينك حاجب.

لم يحاول لؤي ان يبحث عن جواب لذلك، فهو نفسه لايجد في داخله سوى العناد، وقال مغيراً مجرى الحديث:

ـ ليش انتقلتوا من هذاك البيت؟ مو حرامات بيت جدي يروح للغرُب.

ـ كان لازم نتحول حتى لانبقى جوا العين. وراكم تغير كلشي الناس تهجولت والنفوس هم تغيرت.

ثم استدرك مكملاً:

ـ بس إذا مشتاق للجن مال بيت الدهانة فلا تخاف إجوا ويانه لهنا.

ابتسم لؤي وقال محاولاً تلطيف الأجواء:

ـ هي بس خالتك أكو غيرها! ترى حتى لإيران هم لحقتنا.

رد سالار بسرعة:

ـ هاي عاقّة مالها ردّاد، أتوقع الأشباح نفسهم يخافون منها.

ودون ان يتردد لؤي قال:

ـ آني شفتها.

ونظر إلى كل من سالار وآزاد بتأكيد ثم واصل:

ـ أكثر من مرة شفتها، وآخر مرة بإيلام شفتها فوق جبل.

افتر ثغر سالار عن نصف ابتسامة ونظر إليه كأنه فخور باعترافه:

ـ عادي كلنا شفناها.

ثم نظر إلى أخيه آزاد وقال ضاحكاً:

ـ بس آزاد ميشوفها يمكن لأن ما عنده ايمان بهالسوالف.

أطفأ آزاد سيجارته في منفضة كان قد تغير لونها الأزرق إلى السواد وقال مغيراً لغة الحوار فيما بينهم إلى الكردية:

ـ أنا أيضاً رأيتها. لا تسألني كيف عرفتها، فقد عرفتها وحسب.

اعتدل لؤي في جلسته ليقول باهتمام:

ـ كأنها لعنة تلازمنا! ترى ما هو تفسير ان تموت لتعيش بيننا على هذا النحو، برأيكما؟

هز سالار رأسه ثم قائل بعد أن زفر بقوة:

ـ قيل إنها ماتت منتحرة بعد أن قتلت طفليها بالإضافة إلى الجنين الذي كان في بطنها فقد كانت حاملاً في شهورها الأخيرة. ما ادراك كيف اسُتقبلت في الجانب الآخر! لعلها لم تحظ بترحاب استهجاناً لفعلتها، لتهيم روحها المرفوضة بين العالمين.

ثم أكمل بعد أن ساد بينهم صمت لثوان:

ـ لكنني بصراحة لا يمكنني سوى ان أحييها على هكذا وقاحة

واستهتار في مواجهة الحياة اللعينة! كأنها ترفع الوسطى في وجه الحياة وتقول لها «فوك يو»، لا يشرفني البقاء، بل سآخذ أحبائي معي.

قال آزاد:

ـ أغلب المنتحرين بالعادة ليس لديهم اسباب مقنعة للانتحار، يتملكهم في لحظات إحساس بعدم الجدوى فيتماهون معه ليس إلا بأن يفنوا أنفسهم كلياً.

صمت ثلاثتهم لثوان قبل أن يقول لؤي بإيلاميته الجبلية التي كانت بالمقارنة مع لكنة قريبيه مكثفة وراسخة كأنها لكنة جدّ:

ـ «كنت في زيارة لمدينة يوتبوري ذات يوم، وبينما كنتُ أجلس في الترام في العربة الأمامية بالتحديد إذ توقف الترام فجأة لأن رجلاً كان قد القى بنفسه تحت عجلاته. كان يوماً كئيباً جداً. غائماً ويمطر رذاذاً سخيفاً، وأجواؤه الرمادية مناسبة حتماً لحفلة توديع الحياة تلك. أمرونا بمغادرة الترام دون أن يوضحوا السبب لكنني كنت متأكداً ان الرجل لقى حتفه لأنه انتحر تماماً تحت العربة التي كنت أجلس فيها. حين هبطت من الترام رأيت النصف العلوي من جسد الرجل وقد صار تحت العجلات. لم يكن منظراً بشعاً فحتى الدماء كانت أغلبها مخفيّة حيث التهمت العجلات بقية جسده. ولم يلاحقني وجهه لأيام كما انتظرت لأني لم أتبينه جيداً في حينها، فقط لمحت أنه كان يضع على رأسه كبوساً ويرتدي جاكيتاً ثقيلاً، وقد أدهشني انه حين غادر بيته ليقتل نفسه قد حرص على ألا يبرد. لكن لماذا يا ترى؟ هل لكي لايصاب بالبرد مثلاً! أو لأنه حرص على ألا يوجعه برد الشمال القارس بينما هو في طريقه لسحق جسده؟! الغريب ان مشاعري حُيّدت على نحو غريب فانهيت نهاري كما هو مفترض تماماً دون منغصات، وحدث يومها ان

تذكرتُ ميمي قسمت كأنها تظهر أخيراً متقدمة إلى الأمام بعد أن قبعت لأعوام في جزء ما مخفي ومهمل من عقلي. بعدها نسيتُ الشاب كلياً كأنني لم أشهد موته في وقت سابق من ذلك اليوم».

مع مطلع ساعات الفجر الأولى نام لؤي في مكانه حينما لم يتمكن من مقاومة تعبه أكثر، نام بالقرب من بري دون غطاء من شدة الحر، واستيقظ بعد ساعات قليلة ليجد سالار قد احضر إفطاراً عراقياً مميزاً، بينما وقفت زينب تقلي البيض وتهدر الشاي بالهيل.

ـ صباح الخير.

ـ صباح الخير، تعال شوف جبتلك گيمر وكاهي، وهاي هم دبس. أكيد يمكم ماكو هاي السوالف مو؟

جلس لؤي إلى الطاولة الكبيرة في المطبخ الواسع ووضع مرفقه عليها وهو يبتسم ابتسامة متعبة لكنها بدت على وجهه وكأنها عذبة، لم يشأ إخبار أهله الفرحين بعودته ان الأطعمة العراقية كلها متوفرة في السويد التي انتشرت بين بقاعها وجزرها العديدة جالية عراقية ضخمة، ورد ببساطة:

ـ عاشت ايدك.

ـ بس أنت شكو قاعد من وكت. ليش ما ريحت جسمك.

ـ اريد اخلص شغلي بسرعة. اريد ارجع جنسيتي.

رد لؤي باختصار حاسم.

ـ هسه حجي مجيد يقوم من النوم ونطلع سوا. أبوك صارله كم يوم ديراجع علمود أملاكه وأكو أمل يرجع جزء منها حتى لو شوية شوية. بس بصراحة ما أدري بخصوص الجنسية شلون؟ يقولون لازم تراجعون

عن طريق الأمم المتحدة حتى يتأكدون انكم مسفرين وانكم عراقيين، يعني شنو يضمن للجماعة انكم مو إيرانيين اقحاح مثلاً.

نظر لؤي إلى يساره بضجر ثم حرّك مرفقه بملل عن المائدة واعتدل في جلسته قليلاً، لم تكن به رغبة للإفصاح فضلاً عن عدم رغبته بالكلام. نظر إلى زينب التي كانت تدور بين المطبخ والصالة بهمة ونشاط وقال:

ـ اليوم عطلة عندكم؟

ـ لا، لا يظل بالك الدوائر والمؤسسات فاتحة.

أشار لؤي برأسه إلى زينب وقال:

ـ أقصد بنتك شو ممداومة.

رد سالار:

ـ هاي مو بنتي بنت آزاد. اني ما تزوجت.

ثم أكمل قائلاً:

ـ زينب ما عدها دوام. بطلت من الدراسة ويه الأحداث بعد صارت أم بيت.

سأل لؤي متعجباً:

ـ يعني شنو خلصت؟

ـ كانت بالمتوسطة وما لحقت تخلصها. خلصت ابتدائية بس. يمكن ماكو فرصة ترجع للدراسة بعد، الوضع ما يساعد.

تعجب لؤي من البساطة التي حرمت فيها الفتاة من انهاء تعليمها على الرغم من أنها قد نشأت في أسرة أغلبها من الجامعيين، وأعرب

عن دهشته تلك دون أن يحاول أخفاءها، فرفع إليه سالار رأسه وقد بانت على صفحة وجهه سحابة ضيق:

ـ يعني همه اللي تعلموا شنو استفادوا. كل جيل اله لعنة لازم يتحملها وهاي الفوضى الداتشوفها هي لعنة جيلها. باچر عقبة تتزوج وهي والمتعلمة يصيرون سوا.

بعد الإفطار خرج الثلاثة، لؤي ومجيد وسالار في طريقهم إلى انهاء معاملات الأب، دون أن يدركوا ان الموت يشحذ مخالبه ليدمر اجتماعهم النادر هذا. في بقاع أخرى من العالم قد يحاول الموت غالباً ان يعد نفسه ليحل في الأوقات الملائمة حين يفتك بالمرء مرض عضال مثلاً فيبدأ المريض بالاستعداد له بطريقة منافية للمعقول، أو حين يكثر أحدهم من الشراب ليقود سيارته في طريق زلق كثير المنحنيات يكون الموت الحتمي متربصاً به في آخره. غير أن الموت في العراق يأتي عادة على نحو مألوف ومن دون التقيد بقواعد التشريفات المصاحبة لقدومه. يأتي باشكاله المتعددة كافة واسبابه غير المقبولة في أغلب الاحوال. زياراته متكررة وغالباً ما تكون بغير حاجة لأجواء جنائزية مفرطة في كآبتها، إذ يمكنه ببساطة ان يباغت الناس بكارثة كبيرة تحل مع نسمات الربيع الندية مدمراً الآمال الصغيرة في صباح يدعو للتفاؤل والرغبة الطبيعية بالحياة. يمكنه ان يتجلى بكل سوداويته مع الانعكاس الجميل لأشعة الشمس البغدادية القوية، ويمكنه ان يمزق جسد طفلة ويلقي بجثتها على قارعة طريق دون اعتبار للمشاعر الانسانية الهشة سهلة الكسر. وبهذه الطريقة غير المزخرفة وبانعدام مبالغ فيه للياقات اقترب الموت من مجيد في لحظة خاطفة ليسرق روحه صباح ذلك اليوم البغدادي شديد الحرارة. فبعد ان كان الثلاثة قد انتهوا من مراجعة سريعة في أمانة العاصمة ساروا نحو «ساحة الوثبة» ثم وقفوا لاحتساء الشاي

من عند بائع الشاي الذي ينصب «چمبراً» صغيراً مع انعطافة الرصيف، وإذ حدث انفجار هائل بالقرب من مدخل «سوق الصدرية» المطل على الساحة وكان دويه قوياً جداً. ورغم قرب الثلاثة من موقع الانفجار إلا أنهم كانوا في محل شبه آمن وقد شعروا بعاصفة من الصهد والاتربة والدخان تجتاح المكان دفعت الناس بعيداً عن مواقعهم وسرعان ما بدأت تخمد فسارع لؤي وسالار يبحثان عن بعضهما وعن مجيد الذي وجداه ملقىً بمحاذاة الرصيف على بعد مترين من «الچمبر» حيث كانوا يحتسون الشاي قبل قليل. كان مجيد قد شعر مع دوي الانفجار مباشرة كأن سكيناً حادة تشق صدره فهبط على الأرض ضاغطاً على موقع الألم بأصابعه ومجاهداً لالتقاط نفسٍ لن ينزلق إلى جوفه لأنه سيفارق الحياة خلال ثوان معدودة.

حلت بالمكان فوضى عارمة، دخان واتربة، جثث متناثرة وقطع بشرية متطايرة وحرارة قوية تجتاح المكان لتحل محل الهواء توشك ان تصهر الجلود والقلوب التي في الأحشاء معاً. صراخ ونحيب، ثم عويل سيارات الإسعاف والإطفاء التي جاءت بكسل لتقدم خدماتها المتكررة في نقل المصابين والقتلى. ومن بين الجثث جميعاً كانت جثة مجيد الوحيدة التي لم تصب بخدش. نظر إليه أحد المسعفين قائلاً:

- هذا شبيه؟ مغمى عليه؟

فرد سالار بنبرة ثابتة وهو يجر إليه لؤي الذي كان ما يزال مشدوهاً وزائغ البصر:

- ميت.

ركع المسعف بجواره وتفحصه قائلاً:

- شو لا حرق لا دم.

جس نبضه ثم أشار بعدها لرفاقه:

ـ شيلوه.

* * *

إنه ذلك الفضاء الفسيح العامر بالنور مرة أخرى، إنها السماء والغيوم القطنية الكثيفة من تحتها حيث تحتجب اشعة الشمس بالكامل عن الأرض في تلك البقعة بالذات، بينما تشع بنور تذوب له الأرواح البليدة من شدة جماله وصفائه ولاسيما من هذا المستوى المرتفع والبعيد. أزال لؤي إحدى سماعتي «الهيدفون» من اذنه وأطل بنظره عبر نافذة الطائرة التي كانت المضيفة قد اعلنت بانها تستعد للهبوط إلى مطار «أرلاندا» خلال دقائق، محاولاً ان يتبين موقعهم ولعله حاول ان يقيس المسافة بين الأرض والسماء لكن عبثاً، فقد كانت الغيوم وحدها تبدو ممتدة من تحته ولا شيء آخر، وقد اضطر لأن يغمض عينيه ويبتعد عن النافذة ما ان مالت الطائرة إلى اليسار فاخترقهما شعاع الشمس القوي. نسي لؤي ان يعيد السماعة إلى اذنه، كانت أم كلثوم مستمرة في اغنيتها «رق الحبيب» التي اقترحها عليه سالار محاولاً تعريفه بالموسيقى العربية التي عدَّه متواضع الثقافة بخصوصها. أخبره ان شاعر الاغنية أحمد رامي هو أحد أفضل من ترجم رباعيات الخيام إلى العربية إلى جانب الشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي، وحدثه طويلاً عن الفروق بين شاعرية الشاعرين وقدرتهما المتباينة على الالتزام بالنص الأصلي، حديثاً لن يذكر لؤي تفاصيله طويلاً لكنه خرج منه بشغف جديد وكان شغفه بصوت «أم كلثوم» الذي سيلازمه لما تبقى من عمره. كانت أغنيتها على وشك الانتهاء في أذنه اليسرى، بينما كانت اليمنى تمتلئ بضوضاء محركات الطائرة دون أن يشعر لؤي بالضيق لذلك، وقد صار بعدها يستمع إلى وصلة من موسيقى جميلة وذهنه مشغولة حتى انتبه لـ«هايده»،

المطربة التي منعتها إيران والتي تَعرف إلى أغلب أغنياتها بعد هجرته، تغني بصوتها الذي يملك نغمة غلام وامرأة وبعض الخشونة التي تتحلى بها أصوات الرجال.

«أضع رأسي على كتفيك الرحيمتين

فتجري دموعاً غير اختيارية لتجلي عُقد قلبي

في صدري يعتمل حزن لأجل الأحقاد اللا انسانية

على كتفيك أحب (يحلو لي) البكاء»

في خلال دقائق كانت الطائرة تنحني بجذعها لتهبط بين الغيوم التي تنحت لتفسح لها الطريق وقد عاد لؤي ليسند رأسه إلى النافذة مراقباً مدينة ستوكهولم التي بدأت تتكشف له شيئاً فشيئاً حتى أصبحت الطائرة تحت تلك الغيوم الكثيفة تماماً، فبان النهار الرمادي الكئيب للمدينة والذي كان ينبئ بخريف سرعان ما سيتلبس ملامح الشتاء البليدة. وقبل أن تهبط الطائرة تماماً ودون ان يتأكد لؤي من سلامته كلياً زفر بشيء من الراحة بعد ما تبين له ان رحلة العذاب تلك قد انتهت. رحلته التي بدأها مقدِّراً لها أسبوعاً واحداً فقط فامتدت لثلاثة أسابيع طويلة ومرهقة، اضطُر فيها إلى مواجهة ماضيه وبعضٍ من مستقبله بطرق فجة وغريبة، وأكثرها صدمة كانت حين نجى وابنَ خالته سالار من موت محقق اثر الانفجار الذي أودى بحياة والده في غمضة عين، ليغادر الحاج مجيد الدنيا لسبب أحمق كالإصابة بنوبة قلبية مفاجئة جراء دوي الانفجار الذي فاجئه وأفزعه. وقبل أن تمر اربع وعشرون ساعة كاملة على تواجد لؤي في بغداد كان عليه اتخاذ قرار سريع بدفن ابيه في النجف، وبنقل الخبر إلى البقية من أهله، ثم استقبال امه المفجوعة وأخويه أكرم ومؤيد الذين قدموا من إيران على عجل، في حين اعتذر اخوه ليث عن المجيء في

محادثة هاتفية سريعة متعللاً بتواجده في مدينة بعيدة في عمل هام، مُبدياً أسفاً شبه حيادي وأقرب إلى ان يكون متبلداً على رحيل ابيهم المفاجيء. تذكر لؤي وهو يستعد لمغادرة الطائرة قول سالار في واحدة من الأحاديث الكثيرة التي جمعتهما سوياً:

ـ الجميع انانيون أمام مصائبهم، الكل يظن بان مصيبته هي الأدهى والأمر والأعظم مقارنة بغيره. هذه مصيبتي، مصيبة أهلي، مصيبة طائفتي، ومصائب الآخرين أقل أهمية وقد لا تخدش حِسّي الانساني ما دامت لا تعنيني كثيراً.

حاول لؤي ان يستجمع في ذهنه تنوع المصائب التي حلّت بإهله فتذكر أولاً أنهم وفق أبسط رؤيا قد تشرذموا وتباعدوا، ابتداءً من خالته فرصت التي استقرت وابناءها في «تورونتو» منذ سنوات، خاله مصدق واخيه سرمد اللذين غيبتهما روسيا، خاله موفق الذي حاول عبثاً ان يكتسب وجوداً رسمياً في إيران فانتهى به الحال لاجئاً هو واسرته في النرويج، ثم الباقي من أهله، أولئك المساكين الممزقون بين دولتين تتنازعانهم، والذين ودعهم لؤي من دون أن يتشاطر وإياهم الأمل بغد أفضل سيعيشونه بعد أن أفنوا عمرهم خوفاً وحذراً. ها هو يطأ بقدميه أرض السويد التي كانت موطناً آمناً ومطمئناً، وإذ هو يتذكر تماماً انه قبل سنوات وصل إلى هذا المكان بالذات قلقاً مرتبكاً تحاصره الحيرة والرهبة حين سلم نفسه لأمن المطار كلاجئ بلا وطن حيّر معه السلطات التي لم تفهم في البدء سبب لجوئه واختلاط أصوله. لن يكون كالآخرين! هكذا أقتنع لؤي بعد أن عوّد نفسه على مر سنوات مضت بأن عليه ان يتعايش مع شكله كمواطن جديد رغماً عنه ولا سيما في هذا البلد حيث ليس له فيه أصل أو نسب. فهو وحده يعرف خريطة مواطنته المتشعبة الغريبة. سيكمل عمره دون إجابة محددة على السؤال العصي

الذي عاش معه، ماذا تخلق الأوطان فينا؟ وستتخذ الاسئلة اشكالاً أقل تعقيداً ربما في محاولة لجعلها طيعة وقابلة للفهم. سيسأل لؤي نفسه اسئلة مثل: ماذا يعني الوطن الذي لا يقدم حرية وكرامة داخل كوب قهوة مصنوع من الكارتون سرعان ما سينتهي ليُرمى في أقرب مزبلة؟ ماذا تعني العنصرية المصنوعة من فلين هش! تلك التي تثير الاشمئزاز ولعله سيضطر للرد عليها بفظاظة حين يحدث ان يتلقاها من سويدي عجوز أزعجته الملامح المختلفة للقادمين الجدد والذي رغم تأففه الواضح لن يجرؤ بأية حال على سرقة حياته منه! وفي النهاية سيجد لؤي نفسه محتاراً، فماذا يعني كل ذلك مقابل التساؤلات التي يفجرها في وجهه عراقي مثله، يسحق عراقيته بلفظة واحدة، بسؤال غبي، فيجد نفسه يكتفي بالابتسام رفقاً بالمواطنة! هكذا، اكتشف بأنه يبدو مريحاً له ان يستمر بالعيش دون أجابات حادة وقطعية، وسيروض نفسه على الاقتناع بان حل العُقد الوطنية أمر يسير، وعدم تجاوز الأزمات الانسانية الهائلة هو مجرد نقص في حس الفكاهة.

بتلك البساطة الخالية من التعقيد وقف ينتظر دوره في طابور المواطنيين السويديين الذي لم يكن طويلاً كما انه سريع وسلس. وحين جاء دوره قدم جوازه الأحمر ذا الأطراف المذهبة إلى ضابط الأمن الذي نظر فيه ليعيده إليه بعد ثانيتين قائلاً بنبرة ثابتة ونظرة فارغة دون أن يبتسم.

- Välkommen hem

وجد لؤي نفسه يجيب بزفرة من صدره وبمبالغة غير مقصودة:

- Tack så mycket

الخاتمة

ديسمبر ١٩٥٠م

لم تكن قد امتلكت سر نفسها بعد في ذلك المساء حين وضعت عباءتها على رأسها واطمأنت على طفليها اللذين تركتهما في رعاية أمها لتغادر دار والدها الملاّ خلسة من دون اثارة انتباه أحد. كان أمراً معتاداً بالنسبة لها ان تهيم على وجهها في الدرابين العتيقة بين الحين والآخر، ولا سيما في الأوقات التي تكون فيها في قمة نشوتها، وكلما انتابتها تلك الحالة اللذيذة تجد في نفسها نشاطاً هائلاً فتنظف الصحون وتلمع الأواني وتغسل الثياب ثم تمسح الفناء، وتنبش بعد الانتهاء من كل ذلك عن أعمال منزلية أخرى دون كلل أو تعب بل كان يضايقها ان تقعد دون تصريف تلك الطاقة التي تشع في داخلها حتى أنها كانت تشعر وكأن روحها على وشك الخروج من جسدها الذي لم يعد يكفيها ويكفي طاقاتها المولّدة، وغالباً ما وجدت نفسها تنفر إلى خارج الدار تمشي بسرعة عجيبة وأحياناً كانت تهرول وهي تبتسم أو تضحك وقد تملكتها نشوة عظيمة ورغبة عارمة بالانعتاق كأنما لتهرب من نفسها. لا أحد في تلك الدربونة العتيقة كان سيفهم سر حالاتها المتناقضة تلك التي كانت تزأر في داخلها بين الحين والآخر. في التاسعة عشرة من عمرها فقط، فتاة أمية معزولة عن العالم كلياً، لسانها أعجمي وتعبيراتها وتصرفاتها

غالباً ما عُدت مبهمة ومثار شفقة أو حتى سخرية. ولوجها في نوبات ضحك وشعورها المباغت بالنشاط والخفة عُدّ بين أهلها سخافة وانعدام لياقة هي التي أصبحت أماً لطفلين وستكون أماً للمرة الثالثة قريباً. كانت تسمع وتعي ما يقال عنها دون أن تكون في يدها حيلة تواجه بها ما تمليه عليها نفسها التي ترمح بين نقيضين دون لجام، ولا مناص من التصاق جسدها بروحها عنوة فهي مسجونة في داخل هذا الجسد اللين ذي القد الرشيق الذي عاد لسابق عهده سريعاً بعد كلٍ من ولادتيها السابقتين، بينما يبدو هذه المرة وكأن به انتفاخاً أشبه بورم آيل للاستئصال. رغم ذلك، فإنها في هذه الفترة وفي هذا اليوم بالذات لم تكن على سابق عهدها الخفيف والمفعم بالنشوة والنشاط، بل كانت على العكس تماماً. كانت مهمومة وحزينة من دون أن يكون لحزنها سبب، حتى وجدت نفسها في واحدة من نوبات حزنها تهرع إلى الدرابين كما كان الحال في نوبات فرحها أيضاً. وفي هذه المرة وهذا اليوم بالذات مشت على غير هدى بين الدرابين العتيقة حتى قادتها قدماها إلى تلك الدربونة الضيقة التي تقع في نهايتها خربة مهملة، ووقفت لتواجه تلك الخربة التي كانت قد مرت بها من قبل وحدث ان استوقفها وجودها المعاند للزمن، وقد تبينت أمامها هذه المرة بشكلها المهيب والمثير وكأنها تدعوها إليها. كانت رائحتها تصل إلى انفها في عبور نادر للمسافات التي تقطعها الذرات العابقة بشذى الأرض الذي يدغدغ القلوب والحواس، لا سيما وقد بللت الأمطار ورطوبة الشتاء البناء الهرِم والأعمدة الخشبية المنبعجة فيه فصار عطر المكان فواحاً، وقد نال من قسمت التي وقفت قبالة البناء القديم لتأخذ شهيقاً عميقاً تشبعت به رئتاها وقد أغمضت عينيها رافعة رأسها إلى الأعلى في لحظة يوفوريا آسرة مناقضة تماماً لمشاعر الكآبة والحزن المعشعشة في دواخلها، ثم زفرت زفرة طويلة وفتحت عينيها

ببطء لتنظر إلى السماء التي كانت كئيبة ومعتمة وفي مرحلة التحول إلى الغروب. انزلقت عباءتها عن رأسها المحجب بفوطة سوداء كانت قد ارتخت حول وجهها قليلاً فبان منبت شعرها الأسود. لم يكن خياراً بعد هذه البهجة المصغرة التي شعرت بها ان تصعد إلى البناء الخرب، فنزعت عنها عباءتها وتركتها تسقط على الأرض ثم رفعت «دشداشتها» بقدر شبر تقريباً دون أن يتملكها خوف من أي نوع ولا حتى الخوف من أن يراها أحد، وذلك حتى وان لم تكن الدربونة الصغيرة خالية تماماً كما هي. لم يكن تسلق البناء صعباً إذ لم يكن عالياً، وفي دقيقة كانت قسمت فوق سطحه الذي وجدته مغبراً فيه بضع حاجيات مستهلكة ومهملة، كرسي خشبي فقد إحدى قوائمه، درفة باب مخلوعة، أكياس فارغة تدور في المكان مع الريح، والكثير من ريش الحمام كأن حمامات عدة قد ذبحت ونتفت في هذا المكان تحديداً. وبينما كانت قسمت تمسح المكان بعينها تمثل لها ظل امرأة تستدير ملتفة بعباءتها وتختفي في جدار بيتونة متهالكة كانت في طرف السطح، فتقدمت قسمت دون وجل وفي نيتها تفحص البيتونة فظهر أمامها كأنه انبثق من الأرض فجأة، برگه. كان يضع عباءة نسائية على رأسه وعبس في وجهها كأن في نيته إخافتها إلا أنها لم ترمش وطالعته بعينين باردتين ثم ابتسمت نصف ابتسامة. انتظر هو ردة فعل مغايرة منها ولما لم تتكلم، استرخى قليلاً وقال بشبه رجاء وهو يتمايل:

- لا يجب ان تكوني هنا.

فقالت ببساطة وهي تشرأب قليلاً لتنظر خلف كتفه:

- كأنني رأيتُ امرأة تلتف بعباءة دخلت للتو إلى هذه البيتونة عبر الجدار!

ـ ذلك أمر طبيعي يا عزيزة قلبي فهذا المكان مسكون بالجن وممتلئ بالأشباح. الأفضل ان تعودي من حيث اتيت.

لكنها تجاوزته متجهة إلى البيتونة:

ـ أريد ان أرى ما يوجد في الداخل.

ـ أقول لك مسكون بالأشباح. ألا تخافين.

ردت ببساطة هي أقرب إلى البراءة:

ـ لا.

ما حدث بعد ذلك لم يكن خطأً في استقراء الغيب وقع فيه بصّار، لأنه لم يخطئ أصلاً. وفي مناورة منه بدت كمحاولة لسحبها بعيداً عن المكان جرب ان يخيفها لتتراجع عن معقل أشباحه، خاصة سيده الذي سكن هذه الخربة مذ عاد به من موقع الحادثة التي كاد على إثرها ان يفارق الحياة. وبرغم ان پرگه كان قد تعلم من سيده أصول الشعوذة كما ينبغي إلا أنه لبث قليل الحيلة أمام عناد قسمت واصرارها على استكشاف المكان وطبيعتها المتبلدة في مواجهة الخوف الذي كانت تقابله بلامبالاة عجيبة، فاضطر لجرها من يدها جراً، ثم قال وهو يدفعها برفق:

ـ ليس عجباً قولهم ان ابنة بدرية مجنونة! ابتعدي من هنا قلت لك.

غير ان قسمت وقفت تنظر إليه وصدرها يعلو ويهبط، ثم قالت بعد أن القت نظرة سريعة على البيتونة:

ـ من تقصد؟ الناس؟ أم أشباحك يا عم پرگه؟

فرد بعصبية:

ـ أشباحي بكل تأكيد، ما يقوله الناس لا يعنيني كثيراً.

ولم يضايق قوله قسمت بقدر ما ضايقها وقوفه في طريق فضولها، وبدهاء حاول پرگه توجيه فضولها لأمر آخر حين قال:

ـ لو أنك فقط تعلمين ما يخبئه الغيب، لاهتممت به أكثر من اهتمامك لمجرد ان شبح امرأة غاب في بيتونة. ترى ما المثير في ذلك! الأشباح في كل مكان في هذه الدرابين اللعينة.

سألت دون تردد:

ـ ماذا تعني يا عم؟ ما المثير في ما يخبئه الغيب؟

نظر إليها من طرف عينه وقال بخبث:

ـ لو انك تعلمين!

إنها تغرق في كآبة معتمة وهي تعلم عز المعرفة ان روحها عليلة وإذ لا شيء كان سيزيد من حزنها على أية حال هكذا فكرت وهي تهبط من البناء بعد أن اقنعها پرگه بانه سيطلعها على بعض اسراره الصغيرة من دون مقابل. حين مسّت قدماها الأرض قالت وهي تلتقط عباءتها وتنفضها:

ـ أعلم انك تحاول إبعادي فقط، حتى انني لست شغوفة بالغيب الذي تتحدث عنه.

أجابها بنبرة ساخرة تاركاً عباءته السوداء القاتمة تنسدل على كتفيه دون جهد:

ـ لأن بك جنة! الناس كلهم يتحرقون شوقاً لمعرفة ما يخبئه لهم المستقبل، يدفعون لي بسخاء لأطلعهم على ذلك.

كان الظلام قد بدأ يتسلل إلى المنطقة حيث سارا معاً تاركين الدربونة

الصغيرة المسكونة بالجن، ولم تنتبه قسمت بأن پرگه كان يسير برفقتها وحيداً دون قطتيه كما تعودت ان تراه. قال لها مكملاً حديثهما:

ـ في الواقع ستعيشين طويلاً، حياة بسيطة هانئة، ستنجبين المزيد من الأولاد وفي أواخر عمرك ستنعمين بأحفاد كثر. سيزيد دخل زوجك خلال سنوات قليلة وسيصبح واحداً من كبار التجار في بغداد.

وكان صادقاً فيما يقول، لكن لم يبدُ على قسمت أنها فرحت بكلامه فالسواد المعشش في دواخلها لم يساعدها على تقبل الوعد بالسعادة البعيدة الي كان الرجل يحاول ان يمنيها بها، وقد ازداد غمّها حين أكمل پرگه حديثه:

ـ هذا بالنسبة لك انت، لكنني في الواقع أرى مستقبلاً رهيباً لهذه البلاد. هذه الشوارع والدرابين التي ترينها سيأتي عليها يوم ليس ببعيد في عمر الزمن، ستُسحق تماماً، سيقتل الناس بعضهم بعضاً في الشوارع، وستتعفن الجثث المشوهة في الطرقات دون أن تجد من يقوم بدفنها. إني أرى المشهد أمامي كاملاً. يؤلمني كثيراً يا بنيتي العيش بادراك كهذا بين جموع لاهية من البشر كل همهم هو الرزق وبعض التوافه الحياتية الأخرى.

ثم توقف فجأة وأغمض عينيه مكشراً عن ابتسامة رقيقة كأنه يرى في خياله مشهداً جميلاً، ثم قال مشيراً بيده إلى يمين قسمت:

ـ حتى انني أرى هذا المكان بوضوح بعد سنوات طويلة. أرى جثة مشوهة لشاب ستلقى في تلك الزاوية بعدما يقارب الخمس وخمسين عاماً من الآن، سيقتل هذا الشاب بسبب اشتباكات مع اهل منطقة أخرى، أو اهل قومية أخرى، ربما طائفة أخرى. لست متأكداً، شيء من هذا القبيل. سيقتله اختلافه على أية حال!

ولم تجفل قسمت من كلامه، فقط صارت تشعر بثقل ذلك الإحساس الغريب الشبيه بالقلق يتسلل إليها ويجثم على انفاسها حتى لم يعد للخوف تعدماً محل في نفسها. سألته كأنما كان يجب ان تلقي عليه مثل هذا السؤال:

- وماذا سيحدث لنا نحن؟ رباه بعد خمسة وخمسين عاماً! الأفضل ان أكون ميتة أو ان أكون في مكان آخر

فتح عينيه وقال دون أن تفارقه ابتسامته:

- معك حق. فجزء كبير جداً من أهل ملّتنا لن يكونوا هنا.

ثم سكت قليلاً ليكمل بعد برهة:

- أنت منهم. أولئك الذين سيغادرون البلاد قبل هذه البشاعات بسنوات عدة. غير أن بعض ما ينتظر ابناء ملتنا أدهى وأمر.

وهنا فقط وجدها تلتفت إليه وقد بان عليها شيء من الاهتمام.

- ماذا سيحدث لهم يا عماه. هل سيصاب أولادي بمكروه؟

تدارك پرگه نفسه ورد بسرعة:

- آه عزيزگم. لا تأخذي كلامي كله على محمل الجد.

ثم أكمل وهو يرفع عباءته ليغطي بها رأسه ويبالغ بإظهار أسفه:

- انا لا أدعي الجزم بشيء أبداً. هي محض إشارات اتلقّاها. لكنها رهيبة حتى انني مثقلٌ بها أبكي من بشاعتها ومرارتها يا عزيزتي قسمت! قد لا نعيش لنرى ما أرى، لكن لا عزاء في ذلك فقد يطال الأمر أولادنا أو أحفادنا، لا أكاد أدري!

وفي لحظة مفاجئة ظهرت شيرمينا بين أقدامهما فبدرت من قسمت صرخة فزع.

أفزعت الجميلة.

ـ شيري عزيزتي، يواش.

قال برگه ذلك وهو يقرفص بجانب قطته ليمسد شعرها، لكن شيرمينا بدأت تموء مواءاً غريباً أصبح مكتئفاً وهادراً حين شاركتها به نيرمينا التي ظهرت هي الأخرى فجأة واقفة على حافة سطح أحد البيوت. ارتبك برگه قليلاً ثم اعتدل واقفاً كأن قامته نمت فجأة وصارت بهذا الطول الفارع الذي جعل قسمت ترفع رأسها إليه لتتبينه. همّ بقول شيء ثم أحجم، ثم عاد ليقول في إشارة لقسمت:

ـ بيت الملاّ قريب من هنا. ام أنك تودين ان ارافقك إلى بيت زوجك؟

ـ انه قريب، لا داع لتوصيلي. سأعود بنفسي يا عم.

فغادر الرجل المكان فوراً دون أن يودع الفتاة وكانت إحدى قطتيه قد قفزت إلى حضنه بينما سارت الأخرى أمامه مسرعة كأنما لتوجهه إلى الطريق. بعد أيام سيُعاقَب برگه على ثرثرته هذه عقاباً شديداً بصب ماءٍ مغليٍ على جسده حتى يتسلخ جلده، أما قسمت فلم تتساءل وهي تودعه بنظراتها ان كانت ستعود لرؤيته أم لا وقفلت عائدة إلى بيت والدها حيث استقبلتها عمتها قيم بوجه متجهم في حين انفردت بها أمها لتلومها على خروجها من البيت دون اذن وعودتها بعد حلول الظلام:

ـ ماذا كنت سأقول لزوجك لو انه عاد لاصطحابك قبل أن ترجعي؟! وصغيرك هذا الم تفكري بإطعامه.

وكانت قسمت قد القت عباءتها على الأرض دون أن تكترث لكلام أمها، ثم تربعت بالقرب من رضيعها الذي التقطته والصقته بصدرها وبدأت تهز جذعها بحركة آلية بينما ذهنها مشوش ومتعكر أكثر مما كان

حين غادرت الدار إثر لحظة يأس قاتمة. شيئاً فشيئاً تباطأت حركتها وقد علق بصرها بابنتها وأختها الصغرى پري اللتين كانتا تلعبان بلعبة خشبية أُلبست قطعة من القماش لتبدو وكأنها دمية، وفجأة انخرطت قسمت في نوبة بكاء حارة وقد تصاعد في صدرها إحساس بالعجز بات يؤلمها كلما وجدت نفسها في مواجهته وهي مجردة من أي سلاح يمكنها ان تحارب به مزاجها الغريب وروحها المثقلة بالحزن والتعب دونما مبرر أو سبب واضح. لاحقاً في تلك الليلة كانت قسمت ستعجل بقتل نفسها لسبب مختلف لو أنها فقط وفقت لذلك، حين جاء زوجها ليصحبها إلى بيتهم وبينما كانت في طريقها إلى الخارج لمحت ابتسامة زادت من ضيقها على وجه شازي وهي تودّعها لتغلق من خلفهم باب الدار التي غادرتها قسمت للمرة الأخيرة كامرأة حية.

قضت قسمت يومين عصيبين تطاردها فيهما مشاهد الخربة المسكونة وكلمات پركه وخيالات لنساء طويلات ونحيلات يتلفعن بعباءات سوداء مثل غربان، لم يكن يخفنها بقدر ما كن يجذبنها إليهن، بفضولها الساذج وأسرارها التي لم تكن اسراراً لأنها خاصة ومثيرة بل لكونها عصية على التعبير والتفسير ليس الا، وبكل العوالق التي تحتشد في صدرها الفتي، صدر امرأة شابة جاهلة وأعجمية اللسان لا تكاد توفق للتعبير عن نفسها كما تشتهي، صدرها الذي لا يوجد فيه ثقب واحد لتنز منه المعرفة بينما تختنق فيه عوالم من الحيرة والغشاوة والآلام المبرحة لروحها المتحرجة من الحياة حيث هي ترمح بين نقيضين فتقبل وتدبر عليها دون سابق ادراك أو أدنى وعي. وعلى الرغم من كل هذه العذابات الصغيرة المتشابكة إلا أنها لم تكن السبب في انتحارها، فهي لم تكن ذكية بما يكفي لتختار طريقة تنهي بها ذلك الألم المتواصل الذي كان يسري في شراينها بصمت، مثل سم يقتلها ببطء. حاولت ان

تسعد نفسها باشياء بسيطة، بملاعبة طفلتها وباسترجاع متع كانت تشغل بها وقتها في السابق أو في الأوقات التي كانت تستثيرها بهجة مبهمة، لكنها كانت تكتشف مع كل محاولة ان كل ما بين الأرض والسماء قد فقد متعته ودهشته بالنسبة لها. وثقتها بكلمات پرگه الذي أملها بحياة هانئة وعمر مديد جعلتها تقنط من أيام عديدة سوف تأتي، واذ تبدو لها الحياة المفعمة بالتغيير والعيش الهانئ كئيبة وبعيدة وصعبة المنال.

مرت الساعات الأخيرة لقسمت في الدنيا وهي تبكي بكاءً مريراً وصامتاً تذرفه عيناها دون توقف. كان يمكن لأي شخص يعيش معاناتها ان يقتل نفسه تماماً كما فعلت غير أن روحها العليلة لم تكن السبب الوحيد في تهيئتها نفسها للموت في تلك الليلة حين قامت قبل أن ينتصف الليل بقليل من جوار زوجها الغافي، وحملت الطفلين على جنح الظلام وغادرت الدار دون أن تلفت انتباه أحد من سكنتها. كانت كلما تعبت من حملها الثقيل تنزل طفلتها من حضنها لتترك الصغيرة تمشي خطوات قليلة مترنحة من شدة التعب والنعاس، بينما ترتاح هي لدقيقتين ضاغطة رضيعها الهاديء والمطمئن إلى صدرها. لم يطل مسيرها فالدار التي كانت تسكن فيها مع زوجها لم تكن تبعد كثيراً عن شط دجلة، وببعض الصبر وتحمل المشي مع حملها الثقيل الذي انهك قواها كانت قسمت قد أصبحت في مواجهة المصير الذي اختارته لنفسها دون أن تكون متأكدة تماماً من وقوعه. شيء ما في قرارة نفسها الجزعة أملى عليها أن تخلع نعليها وعباءتها لتواجه الموت مجردة من اللوازم والمتعلقات التي تعودتها في أثناء مرورها القصير على هذه الحياة المثقلة بكل ما هو غير ملزم. وحده تعلّقها بالأمل بقي قائماً لبضع ثوان، غير أنها وفي اللحظة التي بادرت فيها إلى إلقاء رضيعها في النهر كانت كل الأصوات التي في داخلها قد خمدت وجال في جوفها صمت رهيب،

بما فيها ذلك الصوت الذي ظل يطرق صدرها حين كانت تركض مسرعة إلى حتفها، الصوت الذي ظل يردد مفعماً بالأمل:

ـ سوف ننجو سوف ننجو...

الفهرس

القسم الأول: الأحداث من ١٩٥٠ إلى ١٩٧٥م ١١
الفصل الأول ١٣
الفصل الثاني ٣٧
الفصل الثالث ٥٩
الفصل الرابع ٧١
الفصل الخامس ٩٣
الفصل السادس ١٠٩
القسم الثاني: الأحداث بين ١٩٨٠ و٢٠٠٩م ١٣١
لؤي ١٣٣
سالار ١٨٥
أكرم ٢٣٣
القسم الثالث: ٢٠٠٤ و١٩٥٠م ٢٥٣
٢٠٠٤ ..... ٢٥٥
الخاتمة ديسمبر ١٩٥٠م ٢٨٣

هذا الكتاب

لماذا يوجد من يقرر لي شكل وروح وطني؟ وكيف تأتت له السلطة التي تخوله لتجريدي منه لأن جَدّاً لي لا أعرفه ـ حدث أن سقط رأسه سهواً في موقع جغرافي بعيد؟ حين رسموا الحدود واقتطعوا البلاد وقرروا إسم الوطن الجديد وصفة المواطن الجديدة، حين قرروا أي جزءٍ محددٍ من التأريخ سيُعظم ويُتبع، لأن الجزء الآخر منه يؤرخ للبلد المجاور. حين بلوروا المشاعر المثيرة للفخر وقولبوا أشكال الإنتماء لم يحدث أن سألوني، ولو فعلوا بالذات حين اقتطعتُ من جذري ورميت على قارعة غربة هائلة مجرداً من هويتي وعمري، لكنت كفرت بكل تأريخهم، حدودهم، فخرهم وانتماءاتهم الهشة فهؤلاء الجبابرة القساة أهملوا تماماً حقيقة أنني أنا الوطن بذاته ماشياً على قدمين تحملان عود مراهق نحيل في الثالثة عشرة اسمه لؤي مجيد حسين الصائغ، مواليد العام ١٩٦٧ الديانة مسلم، لون العينين نرجسي، لون الشعر أشقر، لون البشرة ابيض لولا أنها مالت إلى شيء من السمرة تحت أشعة شمس هذه الأرض التي تلهب كأنها دوماً على شفى بركان، تاركة بصمتها المميزة عليه.

ISBN 978-9933353919